إبراهيم عبد العزيز

رسائل طه حسين

تقديم

نجيب محفوظ

ميريت للنشر والمعلومات
القاهرة ٢٠٠٠

إبراهيم عبد العزيز

رسائل طه حسين

تقديم

نجيب محفوظ

ميريت للنشر والمعلومات
٦ب ش قصر النيل
القاهرة
تليفون وفاكس:
٥٧٥١٥٠٠(٠٢)
merit56@hotmail.com
المدير العام: محمد هاشم

الطبعة الأولى
القاهرة ٢٠٠٠

الغلاف للفنان:
أحمد اللباد

رقم الإيداع:
٩٩/١٧٦١٩

الإهداء

إلى زوجتي خالص الشكر

وإلى أبنائي حسن الذكر

المؤلف



الفهرس

تقديم نجيب محفوظ (*)

لا أتذكر بداية محددة لتعرفي على طه حسين، ولكنني أذكر أنني كنت أعرفه طوال عمري، ولا أدري متى وكيف وأين سمعت عنه، ولكنني عرفت طه حسين الأديب وطه حسين الأستاذ وطه حسين العميد.

ولاشك أنني قرأت الأيام لطه حسين بمتعة لا مزيد عليها، وأنا لا أزال أتمرن على الكتابة ، ولعلني كنت في أوائل المرحلة الثانوية، فحاولت تقليدها في كراسة أو كشكول وأسميتها "الأعوام" على نفس الوزن محاولا أن أقلد نفس الأسلوب ونفس الطريقة ، وأحكى فيها عن نشأتي كما حكى طه حسين عن نشأته . وقد أعطانا طه حسين في رواياته المعروفة كل نماذج الرواية تقريبا، من رواية السيرة الذاتية في "الأيام" ، إلى الرواية الموضوعية كما في "دعاء الكروان" إلى رواية الأجيال كما في "شجرة البؤس" التى هى أول رواية في اللغة العربية من روايات الأجيال التى لا يخلو منها أدب أمة فى أوربا، وقد تأثرت تأثراً كبيراً "بشجرة البؤس" وظل هذا التأثير ينمو حتى كتبت "الثلاثية".

وقد ارتبط طه حسين الأديب، فى أذهاننا "بالحرية" والبحث العقلى الموضوعى كمفكر كبير.

ويعتبر طه حسين أحد الرواد مع العقاد والمازنى، وحسين هيكل وسلامة موسى الذين قامت عليهم حياتنا الأدبية فى مطلع القرن العشرين.

فالعقاد شخصية لا تتكرر، والمازنى كان أديبا عظيما جداً لم يأخذ حقه فى حياته ولا

(*) من حوار لنجيب محفوظ مع المؤلف، عن طه حسين كما أكد هو بخطه فى نهايته.

فى موته رغم أنه كان من أدق الناس فى الترجمة، وله أسلوب من أجمل الأساليب العربية الأدبية يرشحه لأن يكون الروائى الأول، ولكن كان فى المازنى شئ من الاستهانة، ا لله هو الأعلم بأسبابها ، مما لم يجعله يتخصص فى شئ ويعطيه حياته.

فقد كان طه حسين والعقاد والمازنى ود. محمد حسين هيكل ، وسلامة موسى، من الرواد الذين لا يقل تقديرى لأحدهم عن الآخر فى مجال الأدب.

أما طه حسين الأستاذ فقد كان عميدا عندما دخلت كلية الآداب، ولم يكن بالنسبة لى أستاذا مباشراً للأسف – ولكن فى بعض الأحيان بعد الظهر، تكون لنا محاضرة، فى الوقت الذى كانت لطه حسين محاضرة قبلها أو بعدها، فأحضرها ، وكنت أرى من تلاميذه فى ذلك الوقت، سهير القلماوى، وكان طه حسين فى محاضرته يقرأ القصيدة ثم يترك الطلبة يشرحونها، ثم يسألهم فى دقائقها:

لماذا قال الشاعر ما قال ، ولماذا لم يقل شيئا غير ذلك الذى قال ؟ أو أسئلة من هذا النوع، فكانت الدراسة على يدى طه حسين متعة وتربوية وفنية وجمالية جمالاً يفوق الوصف.

أما طه حسين العميد فقد راح يربينا تربية جامعية عظيمة، فينبه على الأساتذة ألا يسمحوا لنا بكتابة المحاضرات ، ولا يجوز لنا أن نقيد فى أوراقنا إلا اسم مرجع، أو سؤال نريد أن نسأله . أما أن أقيد ما يقوله الأستاذ وأحفظه، فهذا ما كان يرفضه طه حسين، وكان يقول لنا: أكتبوا المحاضرات مما استوعبته عقولكم ، ولديكم المراجع فى مكتبة الجامعة. فكانت تربيته الجامعية لنا تربية عالية جداً. ولذلك اعتبرنا قرار إخراجه من الجامعة، كارثة، وقمنا بإضراب فى كلية الآداب شاركتنا فيه بقية الكليات والمدارس العليا.

ولكن طه حسين الذى تظاهرنا من أجله فى الثلاثينات غضبنا منه فى الستينات حينما قام بأول هجوم علنى على العقاد بعد وفاته من خلال ندوة تليفزيونية حضرتها، وقال فيها إنه لم يفهم "عبقرية عمر"، ولم نكن نعلم سوى أن العلاقة بين الأديبين الكبيرين هى علاقة مودة وإعجاب متبادل ، فالعقاد يقدم لنا "دعاء الكروان شعراً، وطه حسين ينقده نقدا جميلا فى "الرسالة"، ويهديه "دعاء الكروان" نثرا بإهداء مطبوع:

إلى صديقى الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد.

سيدى الأستاذ

أنت أقمت للكروان ديوانا فخما فى الشعر العربى الحديث، فهل تأذن لى أن أتخذ له عشا متواضعا فى النثر العربى الحديث، وأن أهدى إليك هذه القصة تحية خالصة من صديق مخلص".

وفى مسرح الأزبكية اجتمعنا جميعا، وجاء طه حسين وتوج العقاد "أميراً للشعراء"، بعد وفاة شوقى، وكتب مقالا هزنا جميعا من الأعماق، مقدما فيه حيثيات تتويجه للعقاد أميرا للشعراء "لأن العقاد ليس مقلدا ولا يستطيع أن يقلد ولو حاول التقليد لفسدت شخصيته، وشخصية العقاد فوق الفساد" كما قال طه حسين، فالعلاقة بين الاثنين كما رأيناها وسمعناها وقرأناها علاقة ممتازة ، فماذا حدث حتى يهاجم طه حسين ، العقاد بعد وفاته؟ لقد كان العقاد شخصية قوية مهيبة مخيفة فى حياته.

وقد اهتزت صورة طه حسين قليلا بعد هذا الهجوم، فنحن نحب طه ونحب العقاد، وقد هزنا ما قاله طه فى حق العقاد.

وفى الوقت الذى كان فيه العقاد كاتب الوفد الأول، وعلمت أن طه حسين كان عدواً لسعد زغلول، حزنت وغضبت، وقلت لنفسى يعنى يا دكتور طه بشعبيتك وعلو فكرة الحرية عندك وأنت رجل من صميم الشعب، فأنت مرشح لكى تكون كاتبا لسعد زغلول، فكيف تكون كاتب الأرستقراطية المصرية ؟ هذه لم أفهمها، وربما كان مبعث ذلك علاقته الشخصية والفكرية بحزب الأحرار الدستوريين.

ولكن بعد إخراج طه حسين من الجامعة، تلقفه "الوفد" وبدأ يكتب فى صحفه ومجلاته، فبدأت أقرأ له ككاتب سياسى، رغم أنه كان كاتبا سياسيا من قبل ، ولكننى لم أكن أقرأ له حينذاك حيث لم نكن بعد قد تعلمنا قراءة الصحف، حتى بدأت أقرؤه ككاتب من كتاب "الوفد" الكبار ، ثم تتبعناه حتى صار مديراً لجامعة الإسكندرية، ثم وزيراً للمعارف فى وزارة "الوفد" الأخيرة، وكان هو الذى قرر مجانية التعليم فى المرحلتين الابتدائية والثانوية ، وقال : إن التعليم ضرورة كالماء والهواء.

لكل هذا أرى أن طه حسين شخصية كبيرة متعددة الجوانب، تجد فيها الوزير

المصلح، والمفكر الثائر، والأديب المتنوع الممتع، وله أسلوب خاص به مميز، لم تعرف "العربية" أيامنا أساليب مميزة بمثل هذه القوة سوى أسلوب طه حسين والمنفلوطى.

ورغم أننى أحببت طه حسين إلا أن طبيعتى كرجل منزو ، تجعلنى أحب من بعيد ، يعنى مثلا أنا أحب العقاد حبا يفوق كل وصف، وكنت أذهب إلى مكتبة "الأنجلو" لشراء الكتب وكنت أجده جالساً يقلب فى الكتب، ولكننى لم أجرؤ أبداً على الاقتراب منه والتسليم عليه، مقدراً انهماكه فيما هو فيه، فلم أضع يدى فى يده طوال عمره رغم إكبارى العظيم له واعتبار نفسى واحدا من تلامذته . كذلك كان طه حسين، ولكن بعد الثورة وإنشاء "نادى القصة" دعاه المرحوم يوسف السباعى بعد أن اختاره رئيس شرف للنادى، وقدمنا جميعا له ، فسلمت على "طه" وبدأت معرفتى به ، ولم يكن قد قرأ لى شيئا أبدا، ولكن المرحوم "أنور المعداوى" الناقد المعروف، قال له : أنت كتبت عن يوسف السباعى، وأمين يوسف غراب، وغيرهم ممن قرأت لهم، فاقرأ لنجيب محفوظ أيضا، فقبلها طه حسين، كنوع من الإحراج ، فالرجل لديه قراءاته ومسئولياته ، وقد كنت أهديه رواياتى كما أهديها لكبار أساتذتى ممن تتلمذت عليهم وأحببتهم وتأثرت بهم، وربما يكون طه حسين لم يهتم برواياتى فى البداية ، ربما لأنه لم يكن يعرفنى ، ومن غير المعقول أن يقرأ طه حسين كل رواية جديدة تأتى إليه، فلما تعرفت عليه فى "نادى القصة" وقدمنى له "المعداوى" ورجاه أن يقرأ لى ، كان من حسن حظى أنه كان راضيا عما كتبت، فقد قرأ لى أول ما قرأ "زقاق المدق" وكتب عنها مقالا رائعاً، ثم كتب مقالاً آخر لا ينسى عن "بين القصرين" ، فقد عرض للرواية الأولى وقام بتحليلها وقال : إنها رواية تصل لمستوى الأدب العالمى، وكتب عن الرواية الثانية مشيدا بما هو أكثر من ذلك.

لقد رفع طه حسين ، روحى المعنوية لدرجة لم أكن أتصورها، خاصة أن ذلك قد جاء بعد حرمان طويل من النقد منذ أن تناول أعمالى "سيد قطب" و"أنور المعداوى"، فمرت سنوات طويلة حتى كتب عنى طه حسين.

ثم حدث اتصال بيننا، ودعانى لمقابلته فى بيته، فكنت أتردد عليه، أحيانا أذهب إليه وحدى، وأحيانا أذهب بصحبة ثروت أباظة، وفى هذه اللقاءات كان يدور حديث فى الأدب وفى السياسة، وكان يتبسط معنا، ولكن شخصيته كانت تفرض الأستاذية التى ربما

لم يكن يحب أن يظهرها كى لا يضايق الناس بهـا ، ولكنـه رغـم تبسـطه معنـا إلا أننـا كنـا نشعر بأستاذيته وهو يتحدث إلينا.

لقد كان رجلا عظيما مضيئا فى شخصيته، وفـى إبداعاتـه ككـاتب متعـدد المواهـب، وفى ترجمته لأدب الإغريق، ومؤلفاته الأدبية والعلمية، فمن ذا الذى يستطيع أن يجمع بـين الفن والعلم ويجيد فيهما كما فعل طه حسين إلا أن يكون رجلا عظيما.

وهـذا الكتـاب لإبراهيـم عبـد العزيـز الـذى يضـع فيـه بـين أيدينـا وثـائق وآوراق ومراسلات طه حسين مع نجوم عصره فى الأدب والفـن والسياسـة والقـانون وغيرهـا مـن مجالات الحياة، هو كتاب يساهم بشكل كبير فى إضاءة شخصية طه حسين وتقريبهـا إلينـا فى جميع صورها الإنسانية والنفسية، ويجعلنـا نعيـش مـع رجـل مـلأ عصـره ولا يـزال يثير الجدل بعد رحيله، فنراه فى حالات القوة وحالات الضعف، ونشاهده فى حالات التوافـق وحالات التناقض، وكل ذلك وغيره مما تكشفه رسائله ورسائل الآخرين إليه، مما يجعلنا نحبه أحيانا، ونغضب منه أحيانا أخرى، نقترب منه بعـض الوقـت، ونبتعـد عنـه بعـض الوقـت، ولكننا فى كل الأحوال نعجب بطه حسين ونعجب له، ونحبـه ونقـدره باعتبـاره رمـزاً مـن أبرز رموز النهضة الأدبية والفكرية فى القرن العشرين.

نجيب محفوظ

مقـــــدمة

لعله من سوء الحظ أو بؤسه ألا أعيش عصر طه حسين وأسعد بلقائـه وأحتفـظ لـه بأحـاديث وذكريات كتلك التى تشعرنى بالحياة وحسن الحظ كلما تذكرت أسـاتذتى توفيـق الحكيـم ويحيى حقى ، ونجيب محفوظ بارك الله فى عمره.

وظل إحساسى بشئ ينقصنى كلما تذكرت أننى لم أكن من تلاميذ عميد الأدب العربى الذى شغل عصره والناس ولا يزال، غير أننى حاولت أن أعوض هذا الشعور بالنقص بما فاتنى مـن حـظ عظيم بلقاء طه حسين، بان أقابل تلاميذه وأحفاده، ففيهم منه بعض صفاته وهـم قـادرون على أن يصوروه لى فى أحواله كما عاشوها وشاهدوها ، وكان اهتمامى الأكبر يقوم على استجلاء الوجـه الإنسانى للعميد، ثم مضيت فى مسـعاى لأعثر على كنـوز طـه حسـين وهـى أوراقـه ومراسـلاته ووثائقه والتى عكفت على الحصول عليها بمعرفة السيدة الفاضلة منى الزيـات حفيـدة طـه حسـين التى أتاحت لى الإطلاع على كل ما ترك طه حسين من تـراث ظللـت أتابعـه بضعـة أسـابيع بمـنزل الحفيدة حتى استطعت أن أحوز هذا الكنز لأتيح للقارئ المصرى والعربى متعة الإطـلاع عليـه فى هذا الكتاب وكتب أخرى بدأت بكتاب "أوراق مجهولة لطه حسين، و"أيام العمـر" رسـائل خاصـة بين طه حسين وتوفيق الحكيم" ثـم هـذا الكتـاب الـذى بـين يديـك ، يتلـوه آخـر– إن شـاء الله – لنكتشف الكثير من عالم طه حسين كأننا نعيش معه ونتحرك معـه ونتفـاعل معـه، ونضحـك معـه.. ونحزن معه.. إلخ.. إنها حياة كاملة نعيشها مع طه حسين كأنه لا يزال حيا يتحرك بيننا وقـد بعـث الحياة فى نجوم عصره، منهم من نعرفهم ومنهم من صاروا مجهولـين بالنسـبة لهـذا الجيـل والأجيـال القادمة، فحرصت على ألا أفصل طه حسين عنهم أو أفصلهم عنه، فهو النجم الـذى تـدور حولـه كـل النجـوم لا يخفيهـم ضـوؤه السـاطع، أو يطغى عليهـم ، بـل يضيئهـم ويعرفنـا بهـم وبحيـاتهم وبجهودهم وبريادتهم وأفضالهم على العلم والثقافة والأدب والتاريخ والآثار والقانون.. وغيرها من المجالات التى أنشأت بها مصر نهضتها الحديثة والمعاصرة ووضعتها فى طريـق عصـر التنويـر الـذى

نحن بحاجة إلى العودة إلى رموزه نستلهم منهم العون والقدوة والإرادة والعزيمة، وروح المثابرة والتغلب على الصعاب وتجاوز كل المعوقات مهما كانت وأيا كانت ، ولنا فى طه حسين وصحبه المثل والقدوة ، وتلك هى رسالة هذا الكتاب أن نتمثل طه وصحبه فى أحوال قوتهم وانتصارهم، وأن نعذرهم فى أحوال ضعفهم ، ونحترمهم فى أحوال انكسارهم، لأنهم فى النهاية بشر وإن تميزوا ، وعلينا أن نستفيد من هذا الامتياز بتكراره إن أمكن، واستكماله ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، وإحيائه بما أتيح لنا من ظروف التقدم المعاصرة ، فلاشك أن ظروفنا أفضل منهم، لأنهم هم الذين بدأوا وزرعوا ، وكم تكون البدايات صعبة ، ونرجو أن نكون قد استفدنا من غرسهم فلا نهمله ، واستفدنا من انجازاتهم فحاولنا أن نضيف إليها.. إن طه وصحبه ليسوا مجرد أشخاص بل إنهم يمثلون عصراً جديداً بدأوه وعلينا أن نستكمله بروح عصرنا نحن لكى نلحق بالمتقدمين بين الأمم. فلطه وصحبه الشكر على ما أنجزوه لنا ، ولأسرة طه حسين والسيدة الفاضلة منى الزيات كل الشكر والتقدير والعرفان.

كما أشكر تلك الصحبة الجميلة من الأصدقاء الأعزاء الذين تعاونوا على ظهور هذا الكتاب إلى النور بداية من العظيم الأستاذ نجيب محفوظ صاحب نوبل الذى لم يبخل بثنائه على ما قدمت من كتب ولم يتردد فى التعاون لتقديم هذا الكتاب الذى خصه بذكرياته عن طه حسين، فله منى ما يعجز الشكر عن الوفاء به لهذا الرجل الذى يمتد نسبه إلى أصول الشجرة المباركة للرواد الكبار، ولزميلى فى مهنة البحث عن المتاعب الأستاذ حلمى النمنم الشكر على متابعته لميلاد هذا الكتاب منذ أن كان فكرة حتى صار حقيقة واقعة وهكذا دائما يكون الموهوبون الذين يسعون لنجاح غيرهم بقدر سعيهم لأنفسهم ، أما الناشر الأستاذ محمد هاشم المتحمس دائما للشباب يعمل وينجح بهم ، فله منى بكل حروف الكتاب التى سابق بها الزمن فسبقته، كل ما يمكن من الشكر وكل ما أستطيع من تحية، وإلى القارئ العزيز نرجو أن يكون ما بذلنا من جهد على مستوى الأمل الذى من أجله سعى إلى هذا الكتاب وقضى وقتا بين صفحاته.

إبراهيم عبد العزيز

مقدمة بقلم طه حسين

أنـــــا (*)

إن كان حقا أن بعض الناس يعرفون أنفسهم معرفة تتيح لهم أن يتحدثوا فيسرفوا أو يوجـزوا في الحديث عن أنفسهم تلك التي يعرفونها أو يزعمون أنهم يعرفونها، فإنني لا يضيرني أن أعترف بأنني لست أعرف نفسي.

ولكني أعرف في نفسي إلى ذلك خلالا قد يعرفها بعض الناس وقـد ينكرونهـا، أعـرف فيهـا أنها نفس مؤمنة لا يزلها عن إيمانها أن تكون على رأي والنـاس جميعـا علـى رأي، لأن إيمانهـا إيمـان القلب والعقل جميعا.. وأعرف فيها التصميم حين تريد ، لا ينحرف بها عن الغاية التي تريدهـا أن تتكاءدها عقبة من العقاب ، لأنهـا لا تريـد حـين تريـد إلا مؤمنـة إيمـان القلـب والعقـل والضمـير، وأعرف فيها الصبر على بأساء الحياة ونعمائها جميعا، فمـا تعـرف اليـأس حـين يدلهـم الخطـب، ولا البطر حين تنبسط ظلال النعمة، لأن بؤس الحياة ونعماءها أعراض تزول.

على هذا الإيمان ، وهذا التصميم، وهذا الصبر، مضيت في الحياة منذ كنت فما أنكرت مرة عاقبة من عواقب أمر مضيتُ فيه .. وأغلب الظن أنني سأمضي على ذلك ما بقي من حياتي، حتـى يتحقق لي أو يتحقق للذين يشهدون عاقبة أمرنـا كلـه بعـد أن نصـير ذكـرى فـي ضمـائر الأجيـال المستقبلة ، أن الإيمان ، والتصميم، والصبر، هي الحياة، الحياة التي تحقق معنى وجود الإنسان الحـي الممتد بآثاره في الإنسانية الباقية..

طه حسين

(*) تحت هذا العنوان أملى طه حسين هذه السطور عن نفسه وهي كما نراها فـي صورتهـا بهـا كثير مـن الشـطب والتعديل وكأن طه حسين أراد أن يعرفنا بنفسه في سطور قليلة مركزة مضبوطة العبارة والمعنى.

أنا المصرى (*)

قيل لنا ذات يوم حين كنا طلابا للعلم فى باريس أثناء الحرب الكبرى أن الحكومة الفرنسية قد رأت لأمر من أمور الحرب أن تخضع الأجانب فى فرنسا لملاحظة دقيقة، ومراقبة شديدة ، وأن تعلم من أمرهم ما ظهر وما بطن، وأنها من أجل ذلك قد فرضت على كل أجنبى أن تكون له تذكرة شخصية يستخرجها من إدارة الشرطة.. فى البلد الذى يقيم فيه ، وأن هذا الأجنبى ملزم أن يظهر هذه التذكرة كلما طلبت إليه أثناء إقامته وسفره، وأثناء استقراره واضطرابه ، وحين يكون عاكفا على الدروس فى داره ، أو جالسا إلى السمر مع أصحابه فى ناد من الأندية.

وما هى إلا أيام حتى تلقى كل واحد منا دعوة إلى إدارة الشرطة فى الحى الذى كان يقيم فيه، وكلف أن يصطحب الأوراق التى تثبت شخصيته.

فذهبت صباح يوم من أيام الجمعة إلى إدارة الشرطة فى ناحية من أنحاء الحى اللاتينى، وهناك دخلت على رجل فرنسى شيخ ، ما أرى إلا أنه كان خليقا أن يحال إلى المعاش لولا أن الحرب كانت تصرف الشبان والكهول إلى الميادين، وتضطر الدولة إلى استبقاء الشيوخ، وأشباه الشيوخ فى أعمالهم.

وكان هذا الرجل موظفاً فرنسياً بأدق مالهاتين الكلمتين من معنى، فإن للموظفين الفرنسيين خصالا يمتازون بها عن الموظفين فى البلاد الأخرى. هم أحرار العقول، ولكنهم محافظون أشد المحافظة فى أعمالهم الفنية، وهم من أجل هذا يمتازون بشيئين متناقضين أشد التناقض: عنف ظاهر، ورقة مستترة. فأما عنفهم فيفجأ الأجنبى ويغيظه ويملأ قلبه اضطرابا وهلعا، وأما رقتهم فتسحر الأجنبى وتملأ قلبه اطمئنانا وأمنا، ولكنها كما قلت خفية مستترة لا تستكشف إلا بالصبر والبحث وطول المزاولة والاختبار.

أُدخلت على هذا الموظف الفرنسى فلقينى فى هذه الغلظة العنيفة التى أشرت إليها، والتى كنت أعرفها حق المعرفة، فلم أكن أحفل بها ولا أشفق منها، وجعل يسألنى عن اسمى، واسم أبوى، وعن تاريخ مولدى، وتاريخ رحلتى إلى فرنسا. وأسباب هذه الرحلة.

(*) الراديو المصرى ٥ يونيو ١٩٣٧ – العدد ١١٦.

وكان يلقى عليّ هذه الأسئلة كأنه قاضي التحقيق حين يسأل متهما مخوفا ، ولكنى كنت أسمع منه وأرد عليه مبتسما راضيا، كأنما كنت أسمع منه مداعبة ومزاحاً. ثم انتهى السؤال والجواب إلى جنسيتي، وكنت قد سافرت من وطنى مصريا خاضعا لسيادة الترك العثمانيين ، ثم أعلن أصدقاؤنا الإنجليز حمايتهم بعد ذلك، ولكنى لم أحفل ولم أفكر فيها ولم يخطر لى أنها ستكون ذابال في يوم من الأيام ولم أفكر على أى حال فى أن هذه الحماية ستمسنى من قريب أو بعيد. فلما سألنى هذا الموظف الفرنسى عن جنسيتي؟ أجبته : بأنى مصرى.

فاستعاد الجواب ، ثم قال مبتسما مغيظاً فى وقت واحد: ولكن هذه ليست جنسية.

قلت : لا أعرف إلا أنى مصرى.

فضحك فى شئ من السخرية، ثم ظهرت ناحية من نواحى الخلق الفرنسى الذى يمتاز به الموظفون الفرنسيون ناحية الحاجة إلى البحث والفهم والاستقصاء ، يحبون ذلك أشد الحب ويقدمون عليه مع ذلك كارهين متثاقلين، لا يخفون ضجرهم وتبرمهم.

نهض هذا الموظف إلى كتب ودفاتر، فاحتملها ووضعها أمامه، وجعل يقلب أوراقها، ويطيل النظر فيها ، وكأنه قد نسينى نسيانا تاما، وانصرف إلى بحث علمى شغل به ساعة على أقل تقدير، ثم التفت إلىّ مشرقا، وقد بعث من حلقه آهة المنتصر المظفر، وضرب بيده على المائدة كأنه قد تخفف من عبء ثقيل وقال:

لقد عرفت الآن صفتك السياسية فأنت رعية عثمانية ومحمى بريطانى!

قلت مغيظاً: فإنى لا أعرف إلا أنى مصرى.

قال ضاحكاً: أنت مصرى ما فى ذلك شك ، ولدت فى قرية من قرى مصر، ولكن هذا لا يمنحك جنسية سياسية لأن هذه الجنسية المصرية غير موجودة، وقد كنت قبل إعلان الحرب رعية عثمانيا ، فلما أعلنت الحماية أصبحت محميا بريطانيا، وسنرى بعد انتهاء الحرب واستقرار الأمور، ماذا تكون ، وإلى أى حال يصير أمرك وأمر مواطنيك.

ثم أتم عمله وأعطانى هذه التذكرة الشخصية التى سجل فيها أنى رعية عثمانى ومحمى بريطانى، وافترقنا ، وإنه سعيد سعيد مغتبط لأنه قد ظفر من نفسه بحل مشكلة من مشكلات القانون الدولى، وإنى لمغيظ محنق أشعر بالإهانة فى أعماق نفسى لأنى أحمل جنسية لا أعرفها، وحماية لا أريدها، فلست من الترك ولا من الإنجليز فى شئ ، وإنما أنا مصرى ، ومصرى ليس غير.

.. وكنت أحس كلما ذكرت هذه القصة فى ظرف من الظروف التى أشرت إليها كأن عبئا ينحط عنى، وكأنى أتخلص من بعض الحرج، وكأنى أسترد من الحرية حظا لم أكد أملكه، حتى إذا

كان يوم صيف (حين حصلت مصر على استقلالها وصارت عضوا بعصبة الأمم ومعترفا بجنسيتها المصرية طبقا لمعاهدة ١٩٣٦) أحسست نفسي حراً طلقاً وأحسست هذه الحرية عذبة سائغة، تشيع في القلب فتملؤه سرورا وغبطة، وتشيع في النفس فتملؤها إباء وكبرياء.

وتظهر آثار هذا كله على وجهي الذي كانت تلقي عليه مشقة العمل في العام الجامعي غشاء مظلماً قاتما، فإذا هو يشرق ويشيع فيه الابتهاج ، وعلى لساني الذي كان يثقله الجهد والعناء، فإذا هو ينطلق بألوان من الحديث إلى كل من لقيت في هذه الأغلال الثقال التي حُطمت عن مصر في أقل من عام..".

".. إني لا أكتب هذا لأتحدث في شأن من شئون السياسة، بل أكتبه لأعرب عن شعور من حقي الطبيعي أن أعرب عنه، وهو شعور الابتهاج بالاستقلال(*) وأسأل نفسي، ويسأل المصريون عما يمكن أن تكون عليه سيرتنا بعد الاستقلال"(**).

طه حسين

(*) رغم أن معاهدة ١٩٣٦ حققت استقلالا ناقصا لأن الاحتلال كان لا يزال قائما، إلا أن ما حققته من مكاسب لا يمكن التقليل من أهميتها بالنسبة للظروف التي تمت فيها، ويكفي للدلالة على ذلك تلك القصة التي رواها طه حسين وما فيها من شعور بالمهانة لأنه ليس له وللمصريين جنسية مصرية، فاستردوها بتلك المعاهدة مما يمثل استردادا لشخصيتهم.

(**) أجاب طه حسين عن هذا السؤال في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر" وكان مدركا أن ما كسبته مصر هو "بعض الحقوق".

إبنى طه بك حسين

لم يكن الكاتب الأمريكى "رونالد روبينسون" فى كتابه "أهم مائة شخصية فى العالم" مبالغا حين وضع اسم طه حسين "لا بين الشخصيات المائة المختارة فحسب بل ضمن التصنيف الأضيق: بين الرجال العشرة الذين طبعوا عصرهم أيضا: مع برتراند راسل وتشرشل وأينشتين.." وغيرهم، ولم تكن الفتاة الفرنسية "سوزان" تعلم وهى تقبل الزواج من الفتى المصرى الكفيف طه حسين أنه سيحوز مثل هذا المجد ، وإن كانت تعلم يقينا أن عليها أن تأخذ نصيبها من كل المحن التى اختصت بها الحياة، الرجل الذى أحبته، وبقدر فرحتها بالنجاح الباهر الذى حققه طه حسين فى الحصول على الدكتوراة التى كانت خير عون له فى اجتياز امتحاناتها، بقدر قلقها الذى ساورها وهى فى الطريق مع طه حسين لزيارة والديه فى صعيد مصر بكوم أمبو حيث كانا يعيشان آنذاك، فكيف استقبلها الشيخ حسين على سلامة. والده، وكيف استقبلتها والدته، إن سوزان نفسها تحكى قصة هذه اللحظات بما حملته إليها من مفاجآت غير متوقعة.

فتقول : استقبلانى بحرارة..

قال عمى لابنه: سأخرج مع زوجتك، فلا تنشغل بنا.

تناول ذراعى وقمنا معا بجولة فى البلدة. لن يبدو أمرا خارقا لشباب اليوم أن يتنزه شيخ وقور معمم مع امرأة شابة سافرة، أجنبية ومسيحية تعتمر القبعة! لكنه كان كذلك فى تلك الحقبة. ولم أنس هذه اللفتة على الإطلاق عندما يتحدثون عن التعصب الإسلامى لا أملك نفسى عن الابتسام أو الغضب.. هذا الرجل الذى كان ذا مهنة بسيطة ولاشك ، لكنها تتيح للأسرة حياة كريمة، والذى كان يحب القراءة والحوار مع الوجهاء، وكان يتميز بميزة طبيعية أدهشتنى : فقد كانت عيناه الزرقاوان تتألقان بدهاء محبب، ولم أدهش للاحترام الذى كان يلقاه فى القرية. أما حماتى ، فقد انصرفت بكليتها لتأمين راحتى وراحة طفلتى الصغيرة . كانت الحوالة المالية التى أرسلها والد طه هى التى سمحت لنا بشراء عربة للطفلة. كان يحدثنى عن أبويه بحنان".

وعندما سألت الراحل محقق التراث المعروف إبراهيم الإبيارى الذى عمل سكرتيرا لطه حسين على مدى ربع قرن ، عن صلة العميد بوالديه ، حدثنى قائلا: كان يحب والديه. وعندما توفيت والدته وهو وزير للمعارف، كنت من الذين ذهبوا معه لدفنها، وقد رأيته للمرة الأولى يبكى، فقد كان حزينا جدا لفقده والدته التى كان يبرها كثيرا فى حياتها، وأذكر حين زارته فى

القاهرة، أن قام باصطحابهـا لزيـارة أوليـاء الله الصـالحين كسيدنا الحسين ، وكنـا نستقل لذلك سيارة، وحين نصل إلى أحد الاولياء يطلب منى طه اصطحاب والدته للزيارة، فلما سألته فـي المرة الأولى أن يكون هو فى صحبتها، أقنعنى بأن سهولة تعرف الناس عليه سوف يفسد الزيارة".

وعند ماتت والدته كان طه حسين "مفطور القلب مفجوع الفؤاد على فقد أمه الغالية"(١)

وهكذا كان طه حسين يلقى الحب من والديه، ويتلقون هم البر منـه، وكـان قلقهـم الشـديد عليه إبان الأزمات التى عاناها، ولعل من أخطرها أزمة "فى الشعر الجـاهلى" التى رغـم براءتـه مما نسب إليه فيها إلا أن لعنة هذا الكتاب ظلت تطارده حتى يومنا هذا، وكان مـن الطبيعى أن يقلق عليـه والـده أشـد القلـق وهـو يـرى ابنـه عرضـة للاتهامـات "والحمـلات القاسـية فـى الصحافـة، والشتائم، والتهديد بالموت الذى كان وراء إقامة حراسة على مدخل بيتنا أمام باب الحديقة خـلال عدة أشهر" كما تقول سوزان.

وكان والد طه يحاول الاطمئنان عليه من خلال الخطابات، وكان طه يطمئنه قائلا:

"أبى أنت أوصيتنى بألا أصدق كل ما أسمع وأنا أوصيك بألا تصدق كل ما تقرأ".

معذور جدا

ولم يكن طه حسين فى مواقفه وكتاباته باحثا عن الشهرة أو المال، بل باحثـا عـن قيـم التنوير والتحضر والرقى والإنسانية، تحكى لى حفيدته منى الزيات فـى حـوار معهـا قبـل خمس سنوات ، وقبل رحيلها للاستقرار بأمريكا، إن طه حسين "كان يحب العدل ويكره أن يجد أحـد عنـه، وكـان له أخ تزوج اثنتين، فقاطعه طه حسين طوال عمره ، ولمـا سـأله أبـوه الشـيخ حسـين علـى سـلامة: ولماذا تقاطع أخاك بسبب زواجه من اثنتين؟

فقال طه حسين: إنه لا يكره فكرة الزواج بأكثر من واحدة إلا لشئ هـو تجنب العـدل، لأن الله رغم أنه أحل تعدد الزوجات فقد ورد فى محكم آياته "ولن تعدلوا".

ومع الحوار الأبوى القائم بين طه حسين ووالـده، فقـد كـانت الخطابـات وسـيلة أخـرى مـن وسائل الاتصال بين الابن وأبيه.

---

(١) محمد رفعت المستشار الفنى لوزارة المعارف – الهلال يناير ١٩٥١.

بين أيدينا رسالة كتبها والد طه إلى ابنـه فـى الرابـع مـن أكتوبـر ١٩٣٨، وكـان طـه يشـغل منصب عميد كلية الآداب، وفى الخطاب النادر يتوسط الشيخ حسين لنجل ابن عم طه الذى طرد من المدرسة لعدم قدرته على دفع المصروفات. ولعل مثل تلك المواقف. هى التى دفعت طه حسـين ليطالب بمجانية التعليم للجميع بحيث يصبح فى متناولهم كالماء والهواء، ولنقرأ هذا الخطـاب النـادر بخط والد طه حسين، وسوف نجد فيه قطعة من الأدب الأبوى الرفيع تدل عليه هذه العبارات التـى جاءت فى هذا الخطاب، فهو يخاطبه بقوله:

"نجلى حضرة صاحب العزة الدكتور طه بك حسين" وهو يحرص على ألا يثقل على ابنه لـولا الضرورة فيقول له: "فاضطررت لتكرار رجائى" ثم يؤكد "وألح فى الرجـاء" ثـم يـبرر ذلـك بقوله "ووالدك معذور جدا فى هذا الإلحاح" ويبدو أن ضغط أسرة ابن عم طـه حسـين كـان شديدا على والده لاعتقادهم أن قريبهم عميد الأدب العربى يمكنه بنفـوذه أن يخدمهـم ويحـل مشكلتهم.

لنقرأ نص الرسالة وما يهمنا فيها هو هذا الاحترام من الوالد لولده وأى ولد هو؟

يقول الشيخ فى : ١٩٣٨/١٠/٤

نجلى حضرة صاحب العزة الدكتور طه بك حسين

أقبلك ألف قبلة وأدعو لك بـدوام الرفاهيـة وكمـال الصحـة وأرجـو أن يكـون أفـراد الأسرة الغالية بخير: (وبعد) لم يصلنى ما يطمنى على مسعاكم فى مسألة حفيدنا "محمد ربيـع" نجل عبد الحميد ابن عمكم خالد وقد حضر بطرفى مسرورا ومتـأثرا جـدا إثـر محـادثتكم لـه تليفونيا ومستبشرا بقبول رجائه.

وقد عرفنى بأن ابنه طرد من المدرسة لعدم دفع المصاريف. وجميع أفراد عائلته فى زعـل شـديد مخافـة ضيـاع مسـتقبل ولدهـم، ولـما لاحظـت حالتـه تسـتدعى الشـفقة هـالنى ذلـك فاضطررت لتكرار رجائى، وأملى عظيم فى أن تجعلوا لهذه المسألة المكانة الأولى من همتكـم، وأنا موقن تماما بل أضعاف هـذه المسـألة ميسـورة لديكـم، ونظـرة بسـيطة مـن السـهل جـدا تقريرها، فأرجو وألح فى الرجاء، ووالدك معذور جدا فـى هـذا الإلحـاح لأهميـة ذلـك لـدى خصوصا وأن فى استطاعتكم تنفيذ هذه الرغبة.

والسلام عليكم ورحمة الله

والدكم

حسين على سلامة

ولم يكن غريبا بعد ذلك أن ينتقد طه حسين نظام التعليم والمسئولين عنه فى المجلس الأعلى للتعليم الذى "ليس بين أعضائه من يعرف لذع الجوع، وليس بين أعضائه من يعرف انكسار النفس حين يرد ابنه عن المدرسة لأنه لم يدفع المصروفات فيعود إليه باكيا تغسل الدموع الغزار وجهه الصغير".

ويؤكد طه حسين أن التعليم حق للناس جميعا، وأن على الدولة أن تيسره لهم بلا تكلفة لهم وأن تزيل من طريقهم العقبات، وأن مصر هى البلد الوحيد فى هذا العصر بين بلاد العالم الذى يشقى الشعب فيه بنفقات التعليم".

بل يطالب طه حسين "الحكومة" أن تعفى المصريين لا من نفقات التعليم وحده ولكن من نفقات الغذاء أيضا". ولا يترك لها عذرا لأنها مسئولة وإن لم تفعل فهى مقصرة "والحكومة التى تحتمل هذا التقصير ليست خليقة للبقاء فى مناصب الحكم" ويذهب طه حسين إلى رؤيته الأبعد فى مجانية التعليم لمحاربة الجهل والفقر والمرض ويرى أن "الخطوة الأولى فى سبيل محاربة هؤلاء الأعداء الثلاثة إنما هى أن نعلم الصبية والفتية، ونكفل لهم طعاما مريئا، ولعبا هنيئا، وصحة موفورة ، دون أن نتقاضى أباءهم على ذلك أجرا يعجز أكثرهم عن أدائه".

مراسلات

النحاس باشا - طه حسين

في الوقت الذى كان فيه طه حسين يفكر فى الانتحار بعد أن ضيقت عليه ديكتاتورية رئيس الوزراء إسماعيل صدقى ، سبل العيش والحياة لرفضه رئاسة تحرير جريدة "الشعب" المتحدثة باسم حزب الديكتاتور، تقدم مصطفى النحاس باشا ليعرض عليه المشاركة بقلمه فى تحرير صحيفة "كوكب الشرق" إحدى الصحف الناطقة بلسان حال "الوفد" ، ويستقبله النحاس باشا مرحبا به على صفحات "كوكب الشرق" حين كتب بخط يده "وإنى لمغتبط باشتراك النابغة الكبير الدكتور طه حسين فى تحريره على المبدأ الوفدى" ويعاهد طه حسين قراءه على "الإخلاص فى القول والعمل، والصدق فى الرأى" ، لتبدأ بذلك رحلة من الصداقة بين زعيم الفكر طه حسين ، وزعيم الأمة مصطفى النحاس توجت باشتراك طه فى الوزارة الأخيرة للنحاس كوزير للمعارف . وقد جرت بين الرجلين الصديقين حوارات ومراسلات .

ومن الطريف أن نعرف كيف كان موقف طه حسين من زعيم الوفد الأول سعد زغلول وحملته عليه بسبب عدم احتفاء سعد به حين التقيا وموقفه منه أثناء أزمة الشعر الجاهلى، ثم كيف كان موقف طه من زعيم الوفد الثانى النحاس باشا إلى درجة أن يصفه بأنه "زعيم المؤمنين" مما قدره له النحاس، ويظهر ذلك واضحا فى التلغراف الذى أرسله فى إحدى المناسبات من الإسكندرية: إلى حضرة صاحب العزة الدكتور طه حسين بك ... الزمالك .

لعميد الأدب العربى شكر وتقدير وتحية وتهنئة، أبقى الله لى إخلاصك المكين ووفاءك المتين، وبارك فيك لهذا الوطن الأمين.

مصطفى النحاس

فى طريقنا إلى لندرة

وأثناء الوزارة الثالثة للنحاس يكتب النحاس خطابا فيما يبدو أنه رد على خطاب لطه حسين الذى يبدو أنه كان يعتذر له عن الإطالة فى الكتابة إليه ، ويشير النحاس فى خطابه إلى أثر معاهدة ١٩٣٦ والفرح بها، وهى المعاهدة نفسها التى ألغاها النحاس بنفسه بعد أن استنفدت أغراضها. يقول النحاس فى رسالته:

رئاسة مجلس الوزراء

مكتب الرئيس

الإسكندرية فى ٦ أغسطس ١٩٣٦

عزيزى الدكتور طه حسين

لقد كنت على العكس أحب أن تطيل فى الكتابة إلىّ لأن مثل هـذه العواطف الخالصة التى بلغت الغاية فى التعبير عنها هى راحة لنفس المكدود وعون على أشق المجهود وزاد فى مواقع الجهاد أى زاد .

أما المحادثات فقد علمت من غير شك أنها آتت ثمرتها ووقعنا بحمد الله الاتفاق يوم الأربعاء الماضى والجميع مغتبط راض بهذا الاتفاق ، والأمة فى فرح منه عظيم .

نبرح مصر بإذن الله يوم الاثنين المقبل ١٧ أغسطس ١٩٣٦ فنصل باريز يوم السبت صباحا فى طريقنا إلى لندرة . (هكذا كتب النحاس باريس ، ولندن).

أطيب الأمانى لزوجك الفاضلة ونجليك ، وصادق حبى لك.

المخلص

مصطفى النحاس

فى الربع

ولأن طه حسين كان يهدى كتبه إلى النحاس فإن النحاس بدوره كان يرد على تلك الرسائل بآرائه وملاحظاته النقدية التى ترينا وجها آخر للزعيم المهتم بالفكر والأدب، ولنقرأ معا رده على طه حسين بعد أن أهداه "الأيام" فى جزئها الثانى.

يقول النحاس فى رسالته:

مصر الجديدة فى ٥ إبريل ١٩٤٠.

عزيزى حضرة صاحب العزة الدكتور طه حسين بك.

قرأت هديتك الجزء الثانى من كتابك "الأيام" فراقنى فيه سلاسة التعبير ودقة التصوير. ولقد اجتذب إعجابى أوله حتى أتيت آخره وخرجت منه بأشياء فيها الكثير من الطرافة والعجيب من الوقائع.

رأيت فيه وصفا صادقا لحياة الشظف والضيق التى عانيتها . حياة كنت أمينا جد

الأمانة على وصف كـل ما فيها فذكرت شرها وخيرها وأنصفت من شاركتهم فيها أو أشركوك هم فيها، في غير تجن ولا إنكار لحسنات من أحسن منهم. وإن كنت قـد تغاضيت عن سوءات من أساء منهم فلم تشأ أن تذكر أشخاص المسـيئين ، شأن رجل الخلق والعفة وسعة الصدر.

ولقد استطعت ببراعتك الوصفية وسيرك فيما كتبت مع الطبيعة والحقيقة أن تنتقل بقرائك إلى الحياة التي حييتها حتى يحسون كأنهم شاهدوا عيشتك في "الربع" ورأوا ما ذقت من المر، وحتى لتأخذهم الشفقة ، بل والغضب لذلك الفتى المسكين الذى قضى بعض سنى حياته مهملا في ركن من حجرة يأكل وحده ويفكر وحده ويتعلم وحده، ويهمل في كثير من الأوقات حتى من أخيه الشيخ، ثم ليأخذهم الإعجاب بالفتى والغبطة له والانتصار لرأيه حتى يصلون إلى أنه استطاع بذكائه وحرية فكره واقتناعه بما يدافع عنه أن يكون شيئا مذكورا ينظر إليه ويؤبه له ويهتم به .

وكذلك العقيدة إذا خالطت قلبا مؤمنا بها تغلبت على كل عقبة وتخطت كل خطر وقضت على كل ما يقف دون إبرازها وانتفاع الناس بها.

وهكذا حرية الفكر إذا صادفت نفسا أعدها الله للذود عنها كتب لها النجاح الذى كتب لك وصادفها التوفيق الذى صادفك.

ولا أكتمك أن كتابك زاخر بالصور الفنية الطريفة ، والوقائع الحقيقية الرائعة ، فهو جدير بأن يقرأ ويقتنى .

على أننى لا أختم كلمتى هذه إليك قبل أن أشكرك وأثنى عليك بصالح أنت لـه أهل. نفع الله بك العلم وطلابه وأجزل لك جزاءه وثوابه .

المخلص

مصطفى النحاس

لغة القرآن

ويعلق النحاس باشا على كتاب آخر لطه حسين أهداه لـه بعنوان "على هامش السيرة" فيكتب إليه هذه المرة بخط مطبوع على الآلة الكاتبة أثناء وزارته الخامسة فيقول :

عزيزى حضرة صاحب العزة الدكتور طه حسين بك

تحية مباركة طيبة وبعد، فلقد تلقيت هديتكم الكريمة "على هامش السيرة" ، بما هى أهل له من التقدير وحس القبول ، وشكرت لكم كلمة الإهداء الرقيقة التى وجهتموها إلىّ . والحق أن القارئ ليجد فى كتابك من إمتاع الخيال والعاطفة مالا يجده فى غيره ، فيمضى فى قرائته إلى نهايته مأخوذا بما فيه، لا يملك عنه انصرافا ، ولا يجد عنه حولا .

لقد أضفيت فيه من فنك ما جعل له جاذبية ينشط معها الخيال نشاطا يذهب بفوارق الزمان، وحدود المكان ، فيعيش القارئ مع أشخاص كتابه فى وقتهم وبيئتهم حتى لكأنه يبصر ما يعملون ، ويستمع إلى ما يقولون. رأينا فى كتابك "الوليد بن المغيرة" فى هيبته وفخامته وضخامته ، وفى وجهه الجهم الغليظ ، وسمعنا صوته العميق الذى يخيل إلى السامع أنه يخرج من غار بعيد القاع. ورأينا ابن أخيه "أبا جهل" عمرو بن هشام فتى قويا نحيفا، شديد النشاط ، كثير الحركة، بعيد الأمل، ثم لمسنا النار التى تضطر م فى قلبه كراهية للأمين وحقدا عليه. ورأينا كثيراً غيرهم ممن ارتبطت بهم حوادث السيرة كأنهم يعيشون بيننا ، لأنك استطعت بفنك أن تردهم أحياء ينفضون عنهم غبار القرون ، وأن تحملهم على أن يعيدوا نفس المواقف التى وقفوها فى تلك العصور .

كل هذا أو غيره مما يشابهه دقة وروعة ، كان فى كتابك مثلا فنيا بارزاً من أمثلة القوة والبراعة التى اختصك الله بها. ولا ريب أنك أحدثت فى الأدب العربى ألوانا من الفن القوى تجدد الإيمان بأن لغة القرآن لا تزال مستعدة للصور الأدبية الرائعة، وأن فى تاريخها مادة غزيرة تنسج منها أحسن القصص وأمتعها .

فبارك الله قلمك ، وصان أدبك وأعزبك لغة العرب، ونفع بمؤلفك طلابك ومريديك ومحبيك.

والسلام عليكم ورحمة الله.

القاهرة فى ٧ صفر ١٣٦٣

٢ فبراير سنة ١٩٤٤.

المخلص

مصطفى النحاس

شكوى زوج مندور

وفى رسالة أخرى من النحاس إلى طه حسين يرد فيها على ما نقله إليه الأخير من شكوى "السيدة حرم الدكتور مندور من تراخى كبار المحامين الوفديين فى العناية بأمره ، وذلك على إثر

اعتقال صدقي له بتهمة الشيوعية مع مـائتين مـن الكتـاب والمفكريـن المعـارضين إرهابـا لهـم، وقـد اتصلت بالسيدة "ملك عبد العزيز" زوج الناقد الكبير المعروف د. محمد مندور لأقف علـى حقيقـة شكواها لطه حسين فذكرت لى أن طه حسين قد زارها زيارة مجاملة أثناء اعتقـال الدكتـور منـدور ولم تشكو إليه إطلاقا من تراخى كبار المحامين الوفديين فـى العنايـة بـأمره "وتؤكـد أنهـم قـد قـاموا بواجبهم كما يجب أن يكون ، فهل نفهم من كلام طه حسين للنحاس بهذا الشأن أنـه ادعـى هـذه الشكوى لكى يثير اهتمام النحاس بتلميذه صـاحب الفضـل عليـه حـين أرسـله فـى بعثـه، والـذى يعجب منه بـ "وفاءه وحسن تقديره لأساتذته وأدبه معهـم فـى الجـدل والنقـاش"، أم نتهـم ذاكـرة زوج د. مندور خاصة وأن وقائع ما حدث مرت عليها أكثر من خمسين سنة ؟ على أية حـال لنقـرأ رسالة النحاس باشا:

عزيزى حضرة صاحب العزة الدكتور طه حسين بك .

تحية صادقة كريمة لك وللسيدة المحترمة حرمـك والأنجـال الأعـزاء وبعـد.. فقـد تلقيـت رسالتك الخاصة بما تشكو به السيدة حرم الدكتور مندور من تراخى كبـار المحـامين الوفديـين فى العناية بأمره وإنى أؤكد لك أنى لم أتوان لحظة واحدة عن تتبع هذه المسألة والاهتمام بها، ولما تسـلمت كتـابك اتصلـت بحضـرة الأسـتاذ محمـود سـليمان غنـام وسـيكون فـى مقدمـة حضرات المحامين عند نظر المعارضة القادمـة، وثـق أنهـم لـن يتوانـوا عـن تأديـة واجبهـم نحـو الدكتور مندور.

هذا وإنى أنتهز هذه الفرصة فأحييك تحية ممتزجة بصادق التهنئة على ما تدبجـه يراعتـك من مقالات رائعة جمعت بين سلاسة اللفـظ ودقـة المعنى وسـرعة البديهـة فـى الكشـف عـن الحقائق وتبصير الرأى العام بما وراء الستار.

وليس بجديد على عميد الأدب العربى أن نرى له كل يوم هذه النفثات وتلـك الآيـات البينات .

حيا الله قلمك وبارك عزمك ومتعك بما تحبه وترضاه . وتقبل وافر تحياتى

٢٢ أغسطس ١٩٤٦.

المخلص

مصطفى النحاس

وفى رسالة جديدة يشكر النحاس لطه حسين وفاءه رغم شعور طه بالتقصير فى حق صداقته للنحاس مما يتبين من خلال سطور خطاب النحاس الذى يقول فيه :

سيدى بشر فى ٤ سبتمبر ١٩٤٨.

عزيزى حضرة صاحب العزة الدكتور طه حسين بك

السلام عليك والشوق إليك من معترف بفضلك ، مقر بعلمك وأدبك.

أما بعد، فقد تسلمت كتابك الرقيق ، فلمست بين سطوره صدق الأخوة ، ووفاء الرجولة، وحدب المحدب، وعاطفة المخلص المكين . وإن من كان مثلك فى فضله وعلمه ، ورجولته وخلقه ، وكمال أدبه وحسن عشرته ، لا يمكن أن يقصر أو يهمل أو يتغاضى ، فإنى لمقدر لك ظرف انشغالك بمختلف الأعمال، ولا أحس أننا تفارقنا إلا بالجسم ، فإنى أراك كل يوم فيما أقرأه لك وعنك ، وفيما أسمعه من حركتك المباركة ، وتنقلك فى بلاد فرنسا من مكان إلى مكان ، لا لتقطع الوقت سائحا أو متنزها أو مستروحا ، ولكن لتقدم للعلم والحضارة والثقافة أجل الخدمات وأخطرها، ولتضرب لفرنسا الأمثال على أن فى مصر علماء أماثل لا يقلون عن علماء الغرب فى شتى ضروب الثقافة والإطلاع إن لم يزيدوا.

ولا أكتمك أنى لم أكن أنتظر منك – وأنت فى مشاغلك المتلاحقة أن تجد من وقتك فسحة. تكتب فيها إلى إخوانك وأصدقائك وكلهم يلمسون عذرك . ويكتفون بمتابعة ما تكتب وما ينشر عنك. ولكنك أبيت – وأبرز ما فيك الوفاء – إلا أن تكون ذاكراً لى بقلمك كما تذكرنى بلسانك وقلبك، وإلا أن تختلس وقتا – قد تكون اقتطعته من طعامك أو من راحتك – لتكتب إلىّ كتابا كله خلق وكله رجوله وكله وفاء ، فأدخلت على قلبى السرور والانشراح ، فى وقت امحى فيه كل سرور وبهجة ، مما نراه من أحداث وتصرفات آخذ بعضها بتلابيب بعض ، بل فى وقت تكاثرت فيه المحن التى تنوء تحت ثقلها العزمات ، والتى تلقيناها ونتلقاها بإيمان لا يضعف وصبر لا ينفذ، وتوكل على الله لا يفارقنا فى فينة من الفينات .

ولقد جاء كتابك وما فيه من تذكير بآيات الله ، وما وعد الصابرينوالمجاهدين ، حين يبتلون ويصبرون ، فى وقت أشد ما نكون حاجة إليه، لا ليذكرنا شيئا نسيناه ، ولكن ليشد من عزمنا ويقوى من يقيننا ، ويزيدنا إيمانا بالله وبقضائه وقدره فوق إيماننا .. ومن غير طه

حسين يستطيع أن يتغلغل فى الأعماق ويصل إلى شغاف القلب، فتبعث رسالته الروح والريحان ، وتملؤها الهدوء والاطمئنان ..

حياك الله وبارك فى أخوتك ، ومتعك بما ترجوه ويحبه لك أصدقاؤك - وما أكثرهم - وحباك من الصحة والعافية ما تؤدى به رسالتك لهذا الجيل والأجيال المقبلة ، ومنحك من التوفيق ونجاح القصد ما أنت أحق به وأولى .

واقبل من السيدة حرمى تحيتها وشكرها وتقديرها.

وأرجو أن تبلغ السيدة المصونة حرمك تحياتنا جميعا وأصدق تمنياتنا . ولا أنسى تحية النجل العزيز ..

وإلى اللقاء فى أسعد الفرص وأجمل الأوقات والسلام عليك ورحمة الله

المخلص على الدوام

مصطفى النحاس

تأخر خطابك أياما من وقت صدوره بين البريد الجوى المتباطئ وبين الرقابة فأرجو ألا ينال كتابى هذا فى وصوله إليك ما ناله كتابك الكريم من تباطؤ وتأخير والسلام .

مصطفى

***

أما فى الوزارة التى ارتبطت باسم طه حسين فنعرض للرسائل المتبادلة بين طه حسين ، والنحاس، ولكن قبل ذلك علينا أن نكشف عن بعض الحقائق الغائبة .

الفضل فى المجانية

نبدأ من مجانية التعليم التى ارتبطت بطه حسين منذ رفع شعاره الشهير "العلم حق للجميع كالماء والهواء" وإن كان البعض يحاول نسبة هذه المقولة إلى نجيب الهلالى" (الوفد ١٨ ديسمبر ١٩٩٨) غير أن المدهش أن طه حسين نفسه يؤكد أن دعوته للمجانية لم تكن مجرد دعوة أطلقها مفكر لنفع بنى وطنه لانتشالهم من الجهالة التى يعيشون فيها ، ولكن هذه الدعوة كانت باتفاق مع النحاس باشا حتى يضمن لها التنفيذ ، ولنقرأ اعترافات طه حسين فى إحدى خطبه المجهولة أثناء

إحدى جولاته بالأقاليم لحث الأغنياء على التبرع لإنشاء المدارس تحقيقا لشعاره ، ففى خطبته بالدقهلية يقول بالنص موجها حديثه إلى مستمعيه:

"أؤكد لكم أني ما دعوت إلى نشر العلم وتيسيره ومجانيته وإنشاء المدارس الكثيرة قبل أن أكون وزيراً إلا بعد أن اتفقت مع النحاس باشا على أن أدعو إلى هذا ونحن بعيدون عن الحكم ، بحيث إذا عاد إلى الحكم كان جزءا أساسياً من برنامجه. إنما كنت أدعو إلى نشر العلم بوحي منه واتفاق معه، كنت أعبر عن نفسه وقلبه وأمله ، وأقسم صادقا وأشهد ويشهد الوزراء جميعا أنه هو الذى وضع فى خطبة العرش الأولى مجانية التعليم فوراً" (أهرام ١٩٥١/٣/٣).

آخر من يعلم

أما دخول طه حسين الوزارة كوزير للمعارف فلها قصة مختلفة غير تلك القصة الشهيرة التى ذاعت وانتشرت وأكدها د. محمد حسن الزيات زوج ابنة طه حسين ، فى الحلقات التى نشرها "بالمصور" قبل أن يجمعها فى كتاب "مابعد الأيام" والذى ذكر فيه "ويحضر النحاس باشا إلى منزل طه حسين دون موعد .. فيفاجئه بأن يطلب منه أن يتولى منصب وزير المعارف فى وزارته التى يجرى تأليفها وطه حسين يشكره . ولكنه يرجو معاودة التفكير لأسباب منها أنه ليس عضوا فى الوفد ، وأعضاء الوفد الذين شاركوا رئيسهم جهاده أحق بالاشتراك معه فى الحكم، كما أن السراى غاضبة عليه منذ زمن بعيد ولا ينتظر أن توافق على تعيينه ، وسبب آخر هو أنه ملتزم أمام نفسه وأمام الشباب ببرنامج للتعليم سبق أن شرحه عام ١٩٣٧ فى كتابه "مستقبل الثقافة فى مصر" الذى كان يعده فى الأصل ليقدمه تقريراً إلى النحاس باشا نفسه، وهو لا يعرف رأى وزارة الوفد عندما تتولى الحكم فى تطبيق هذا البرنامج الذى يؤكد ضرورة إعلان مجانية التعليم الابتدائى والثانوى ، وراح النحاس يفند هذه الأسباب محاولا إقناع طه حسين" إلى أن يصل بنا الزيات فى كتابه المشار إليه إلى قول طه حسين للنحاس "وإذا أصبحت أنا وزيراً للمعارف فإن رفعتكم ستحبون قطعا إعلان مجانية التعليم فى أول خطاب للعرش تلقونه أمام البرلمان . ويسأل النحاس باشا : هذا شرط؟ ويرد طه حسين : لا، معاذ الله، ليس شرطا ولكنه توقع" إلخ. وهذه القصة ليست دقيقة سواء فيما يتعلق بالمجانية أو دخول طه حسين الوزارة ، أما المجانية فقد اتفق طه حسين عليها مع النحاس خارج الحكم منذ وقت مبكر كما أشار فى خطبته بالدقهلية كما سبق أن ذكرنا. أما قصة دخوله الوزارة فهو يرويها بنفسه عقب خروجه من الوزارة فى مقال مجهول أيضا

نشره بأهرام ١٩٥٢/٥/٣ ، ويؤكد فيه أنه أدخل الوزارة فجأة دون أن يستشار كما أخرج منها فجأة دون سابق إنذار، ويقسم على ذلك قائلاً:

"فالله يشهد ما عرفت هذا الترشيح إلا بعد أن أرسل مشروع المرسوم بتأليف الوزارة إلى القصر ودعيت لا ليعرض عليَّ هذا الترشيح ولا ليسمع رأيي فيه ، ولكن لأنتظر في دار الرئيس النبأ بتوقيع المرسوم ، ولأذهب بعد ذلك مع الزملاء إلى القصر لحلف اليمين القانونية.

ولقد أراني مغرقا في الاستماع لقصة من قصص شكسبير حين أنبئت بأن الرئيس يدعوني في التليفون فلما استجبت له، طلب إليَّ أن أزوره في داره فوراً ، فقطعت القراءة حيث قطعها التليفون، وأسرعت إليه أظنه سيستشيرني في بعض الأمر كما يتفضل بذلك بين حين وحين، فلم أكد ألقاه حتى أنبأني بأنه اختارني وزيراً للمعارف ، ولم أكد أرد عليه تحيته واختياره حتى أنبأني بأن المرسوم قد رفع إلى القصر، وبأن المناقشة لا تفيد، فلم أزد على أن شكرت وانتظرت واستقبلت الوزارة أحسبها أمراً هينا. وما أكثر ما يستقبل الناس من الأمور الهينة . ولكن لم أكد أمارس بعض أمرها حتى جعلت تستأثر بي قليلا. قليلا، ولم تمض أيام حتى رأيتني قد غرقت فيها إلى أذني"... ".. وإذا أنا أصرف.." عن أهلي وشئون أهلي ، وأنسى كل شئ إلا أن هناك شعبا يريد أن يتعلم وإني موكل بتعليمه ، وأن الوسائل إلى تعليمه محدودة لا تسعف، وقصيرة لا تؤدى إلى الغاية، وأن عليَّ أن أبذل خير ما عندى لأصل إلى خير ما يمكن الوصول إليه".

ويضيف طه حسين "ثم أراني ذات ليلة وقد أنبأني رئيس الوزراء بأني قد خرجت من الوزارة كما دخلتها ، لم أختر أن أكون وزيراً ، ولم أختر أن أخرج من الوزارة ، كما أني لم أختر أن آتي إلى هذه الدنيا من أعماق الغيب ، ولن أختار أن أخرج من هذه الدنيا إلى أعماق الغيب ، وإنما هو قضاء الله يجرى على الناس بما لا يريدون قبل أن يجرى عليهم بما يريدون".

وتؤكد صحف تلك الفترة ما رواه طه حسين، فلم يكن الرجل مطروحا بالمرة في آخر تشكيل وزارى للنحاس ١٩٥٠، وأن ترشيحه جاء في اللحظات الأخيرة قبل صدور الأمر الملكي في ١٢ يناير ١٩٥٠ بتشكيل الوزارة السابعة للنحاس باشا، إلى درجة أن الصحف الصادرة في اليوم السابق لم تكن تذكر إلا "نجيب الهلالي" كمرشح لوزارة المعارف، فتقول صحيفة "المصرى ١١ يناير ١٩٥٠م":

"وأقبلت على دار رفعة النحاس باشا وفود الجامعة وطلاب المعاهد العليا وكان قدومها مصادفة أثناء اجتماع رفعته برجال الوفد، وظل الطلبة يهتفون مطالبين بالهلالي رجل المعارف

ونصير العلم وصاحب السياسة الصائبة فى العلم، وقد دفع الطلبة إلى ذلك ما ترامى إلى أسماعهم من أن سعادة الهلالى باشا يصر على اعتذاره عن الاشتراك فى الحكم لأسباب صحية بحتة".

وظهر اسم طه حسين كمرشح للوزارة بعد أن رشحه نجيب الهلالى للنحاس باشا، وقد كان الهلالى وزيراً للمعارف فى وزارة توفيق نسيم **١٩٣٤** والتى كان يؤيدها النحاس ، وقد أعاد الهلالى باشا ، طه حسين إلى الجامعة بعد أن كان قد فصله صدقى باشا منها، وعندما اشترك الهلالى باشا فى الوزارة النحاسية **١٩٤٢** كان طه حسين مستشاراً فى ذات الوزارة ، ويؤكد طه حسين "أن الهلالى هو أول من جعل التعليم الابتدائى بالمجان ولم يكن قبله كذلك".

ورغم أن ترشيح طه حسين للوزارة فى اللحظات الأخيرة ولم يكن يدور اسمه فى ذهن النحاس لولا ترشيح الهلالى له ، وتنبيهه إليه، فإن النحاس لدهشتنا كان متمسكا بطه حسين إلى أبعد حدود التمسك أمام معارضة الملك بحجة أن أفكار طه حسين يسارية ، ولكن النحاس تشدد أمام الملك باعتبار أن طه حسين هو أهم وزرائه المرشحين للوزارة بل إنه قال إنه مستعد "أن يتنازل عن كل الوزراء إلا طه حسين".

ويبدو أن تشدد النحاس بالنسبة لطه حسين لم يكن له علاقة بطه حسين ذاته بقدر ما كان ذلك فصلا من فصول التحدى بين النحاس والملك .

أرضيت المواطنين

وكما فهمنا من حديث طه حسين حول قصة دخوله الوزارة ، فقد كان بينه وبين النحاس حوار مستمر يصل إلى درجة استشارة النحاس لطه حسين "فى بعض الأمر كما يتفضل بذلك بين حين وحين" ومن تلك الاستشارات التى أخذ بها النحاس بناء على اقتراح لطه حسين تهديده للملك بتقديم استقالة وزارته إذا أصر على إلغاء مجلس الدولة تخلصا من السنهورى رئيس مجلس الدولة والذى كان يرفض دائما أى رغبات ملكية لتقييد الحريات بقوانين ، وإلى جانب الحوار بين زعيم الفكر وزعيم الأمة فقد كانت بينهما رسائل قبل أن يلى طه حسين الوزارة، كما عرضناها سابقا، ثم كانت بينهما رسائل أثناء الوزارة لارتباط ذلك بأزمة سياسية نشبت بين طه حسين كوزير للمعارف وبين وزارة الخارجية التى يرأسها محمد صلاح الدين.

ونترك طه حسين يتحدث بنفسه عن تلك الأزمة المجهولة التى ننفرد بنشرها للمرة الأولى من

خلال خطاب أو تقرير بعث به إلى النحاس باشا وقد حرص على أن يطلب منه إلى حد الرجاء أن "هذا التقرير الموجز خاص أرجو ألا يطلع عليه أحد غير مقامكم الرفيع" وقد ظل سر هذه الأزمة مجهولا حتى كتابة هذه السطور، وقد بلغت صفحات هذا الخطاب الذى كتبه طه على شكل تقرير عن نتائج رئاسته لوفد مصر فى الأونسكو بباريس ١٩٥١ أثناء وزارته للمعارف، بلغت حوالى عشر صفحات كتبها أو آملاها طه حسين فى حوالى ثلاثة عشر يوما كما يبدو من تأريخه للرسالة التى حملت تاريخين حين بدأ الرسالة فى باريس فى ٧ يوليو وأتمها فى مدينة بولزانو الإيطالية فى ١٩ يوليو .

ومن الجدير بالذكر أن هذه لم تكن هى المرة الأولى التى يرأس فيها طه حسين وفدا مصريا فى مؤتمر دولى ، بل سبق أن رأس طه حسين وفد مصر إلى اليونسكو فى السنة السابقة ١٩٥٠ بفلورنسا أثناء الوزارة غير أنه اضطر إلى العودة قبل استكمال أعمال المؤتمر نظراً لانتهاء العام الدراسى وضرورة عودة وزير المعارف طه حسين للاستعداد للعام الجديد، وقبل أن ندخل إلى الخطاب الأزمة ، لابد أن نقرأ خطاب النحاس الذى أرسله لطه حسين احتفاء بتشريفه لمصر فى محفل دولى كاليونسكو، وفى هذا الخطاب يعترف النحاس ضمنا دون أن يصرح أنه تأخر فى تقدير طه حسين التقدير اللائق به ، وإن أرجع ذلك إلى حكومات غير حكومته حيث "لست أخفى عليك أننى كنت منذ زمن بعيد آسف الأسف كله إذ أرى الأجانب يقدرونك قدرك ، والحكومات الأجنبية تعرف لك منزلتك ، وحكومات مصر - سامحها الله - تتحداك"، ولهذا حين صار طه حسين وزيرا فى حكومة النحاس فإن الأخير يرى أنه بذلك "أرضيت نفسى وأرضيت المواطنين".

يقول النحاس باشا بتاريخ : الجمعة ١٢ مايو ١٩٥٠.

عزيزى حضرة صاحب المعالى الدكتور طه بك حسين

صنع الله لك أجمل ما يصنع لرجل أخلص الإخلاص كله لوطنه، ووفى الوفاء كله لإخوانه وزملائه وأصدقائه ، وأحسن السفارة عن بلده فى كل مكان حل فيه ، أو قوم التقى بهم .

لقد طالعت كتابك فطلعتنى لهجة صادقة عرفتها دائما فى رسائلك ، وعبارة طبيعية لا تكلف فيها ولا تطبع، ألفتها فيما تكتبه أو تتحدث به.. ولقد تتبعت أنباء رحلتك الموفقة ، وخطواتك المباركة، الخالصة لوجه الله والعلم . وكنت كلما سمعت عنك نبأ سارا ، أو قرأت خبرا طيبا ، أحس الغبطة تسرى فى نفسى وتشيع فى جوانحى، لأنك لقيت ما أنت له أهل وبه خليق ، أو على الأصح لقيت مصر فى شخص رجلها العالمى تكريما يرفع من ذكرها

ويضعها فى المكان الجدير بها، وإذا كنت تشرف بوزارة على رأسها شخصى الضعيف فإنى ليسعدنى أن وفقنى ا لله إلى ضمك إلى إخوان صدق ووفاء اخترتهم لمعاونتى على حمل العبء وأداء الرسالة، والنهوض بمستوى البلاد السياسى والعلمى والخلقى .. نعم يسعدنى أن تكون بين زملائى وإخوانى الوزراء تحمل رسالة التعليم – ويالها من رسالة – وتنشر أراءك وتعاليمك فى النشء فتنشر الخلق الفاضل ، والوفاء المقيم ، والشجاعة التى لا تقيدها الرسميات ، ولا تحد منها الظروف والملابسات.. ولست أخفى عليك أننى كنت منذ زمن بعيد آسف الأسف كله إذ أرى الأجانب يقدرونك قدرك، والحكومات الأجنبية تعرف لك منزلتك ، وحكومات مصر – سامحها ا لله – تتحداك وتقف فى طريقك، وتحارب العلم والأخلاق والوفاء فى شخصك.. حتى إذا أذن ا لله أن تزاح الغمة وأن أوفق لاختيارك زميلا رسميا لى كما اتخذتك من أمد طويل أخا وصديقا – كانت غبطتى بمعاونتك وسرورى بمشاركتك لنا فى حمل العبء، بمقدار تقديرى لك ، وإعجابى بفضائلك الغر، ووفائك الثابت ، وثباتك الباقى على الزمان.

وكان منطقيا أن أوثرك بمودتى ، وأخصك بتقديرى – وأختارك بين زملائى بعد ما عرفته فيك ، ولمسته عن كثب من خلالك التى لم تبدلها الحوادث ، ولم تنل منها صروف الأيام، وإنى لأحمد ا لله وأحمد الوفاء والخلق إذ أرضيت نفسى وأرضيت المواطنين ، وقدمت عارفة للعلم إذ أهديت إلى أبنائه الدكتور طه حسين بك ليشرف على نشره ، ويتولى أمره ، ويفيض على أهله من قوة نفسه ، وسعة أفقه، ما يبعث فيهم حياة جديدة تشبع رغبة محبى العلم وطلابه، وتحبب لهم الإقبال عليه ، والاغتراف من منهله، ولست فى قولى هذا أقرضك ثناء بثناء ولكنه تقرير للحق والواقع الذى لا مغالاة فيه والذى يقوم الدليل عليه كل يوم بما نراه من جهدك الدائب – وحركتك التى لا تنقطع والتى كان من آثارها رحلتك الموفقة التى افتتحت فيها كرسى محمد على أمام جمهرة من رجال العلم والأدب فى معهد البحر الأبيض المتوسط من مدينة نيس، فكان هذا العمل الذى نسبت إلىّ فضله خير دعاية لمصر ولمليكها ولحكومتها مع أن لك نصيب الأسد فيه ، وفضل السبق إلى التفكير فى إبرازه . وإنى لمسرور من تكريم الحكومة الفرنسية إياك وحفاوتها بك فأنت كما قلت لك وأكرر: مصرى وهبتك مصر للثقافة والأدب والعلم فى بلاد ا لله جميعا.. وا لله يجعل التوفيق حليفك فى سعيك لتدبير ما تحتاج إليه جامعاتنا ومدارسنا من الأساتذة والمعلمين، وما تبذله من جهد فى إنشاء معهد ثقافى مصرى يكون مقره مدينة طنجة كما شرحته لى قبل سفرك إلى فرنسا.

وأختم كتابى هذا بأن أحملك تحيتى وشكرى إلى زميلك مسيو "ايفون ولبوس" وزير

المعارف الفرنسية على ما أبداه نحوى من عواطف رقيقة كريمة - وشكر الحكومة الفرنسية على ما أظهرته نحوك من نبل الشعور وكرم الضيافة وحسن الاستقبال.

وآمل أن أراك فى آخر الشهر الحالى بيننا ناعما بالصحة سعيداً بالتوفيق فيما شخصت إليه ، وحتى ألقاك أرجو أن تتقبل أصدق ما أكنه لك من تقدير وإعجاب ووفاء. وللسيدة المحترمة قرينتك العزيزة منى ومن حرمى أصدق التحيات وأطيب أمانى الصحة والتوفيق والعودة إلى مصر سالمين معافين. والسلام عليكم ورحمة الله

المخلص

مصطفى النحاس

إسرائيل تتدخل

نصل الآن إلى الفصل الأخير المثير الذى تكشفه رسالة طه حسين فى شبه تقرير عن نتائج ترأسه لوفد مصر إلى "الأونسكو" ١٩٥١. وهو ما طلب طه أن يبقى سراً، وهو ما وعده النحاس بكتمانه حين رد عليه برسالة مؤكدا توصية طه فى تقريره "على أن يكون ما احتواه سراً خاصا بينك وبينى". وسوف نفاجأ فى رسالة أو تقرير طه حسين بأكثر من مفاجأة ، أولها خلافه الحاد كوزير للتعليم مع وزير الخارجية محمد صلاح الدين ، وإن ظل ذلك الخلاف مكتوما لا يصرح به طه إلا لرئيس الوزراء ويحرص على أن يظل بعيدا عن مشاعر وزير الخارجية "فلست أريد أن أسوء زميلى صلاح الدين باشا" كما يقول طه حسين ، كما نعرف لأول مرة كيف أن إسرائيل لم تكن تحارب مصر فقط فى ميدان القتال كما حدث فى ١٩٤٨، بل كانت تحارب مصر فى المحافل العلمية أيضا لاستبعادها من أى إسهامات دولية.

ندخل الآن بسرعة (بعد أن طالت المقدمات) إلى أطول رسالة لطه حسين، وهذا هو نصها:

سيدى صاحب المقام الرفيع.

كان من أوجب الواجبات أن أكتب لمقامكم الرفيع إثر وصولى إلى باريس مهديا أصدق تحياتى وشاكراً ما تتفضلون به علىّ دائما من عناية دقيقة وعطف كريم. ولم يكن شئ أحب إلىّ من هذه الكتابة ، ولكنا نحب أشياء وتحول الظروف بيننا وبينها حتى كأن الدهر موكل بصرفنا عما نحب إلى مالا نحب .

فلم أكد أصل إلى باريس حتى تلقفتنى منظمة "الأونسكو" وإذا أنا أغرق فى أعمالها إلى

أذنى نجتمع كل يوم فى الساعة التاسعة والنصف إلى ما بعد الساعة الأولى ثم ننصرف لتناول الغداء على عجل ونعود فى الساعة الثالثة والنصف فلا ننصرف إلا بعد تمام الساعة السابعة ، فإذا خرجنا لم نعد إلى فنادقنا لنستريح، وإنما نمضى إلى الحفلات الاجتماعية التى تقيمها الوفود والتى ليست أقل إجهاداً من الاجتماعات العامة، وكذلك أنفقنا هذه الأسابيع الثلاثة عناء حين نصبح وعناء حين نمسى، واشتغال عن أنفسنا وعن كل مايلذها ويرضيها. والحمد الله على كل حال. وإنى لأرجو أن يكون الله قد هيأ لمقامكم الرفيع ما تتمنى لكم مصر كلها من راحة النفس والجسم ومن فراغ البال ورضى الضمير، وإن كنت أعلم أن أعباءكم تزداد من يوم إلى يوم ، وأن سفر الوزراء للأعمال أو للراحة فى الخارج يضاعف هذه الأعباء ويزيدها ثقلا إلى ثقل، والله يكفلكم بعنايته ويشملكم برعايته ويمدكم بروح منه ويتم لكم التوفيق فى كل ما تحاولون فى خدمة الشعب المصرى الذى لا يثق إلا بكم ولا يعتمد إلا عليكم ولا ينتظر الخير إلا على يديكم.

أما بعد.. فقد شغلتنا فى اجتماعات الأونسكو مسألتان خطيرتان إحداهما مسألة ترشيح مصر لعضوية المجلس التنفيذى، وقد فوجئنا فى باريس بتعليمات جاءتنا من وزارة الخارجية تكلفنا أن نرشح سوريا مكان مصر وقد ضقت بهذا الأمر أشد الضيق ، وكلفت سفيرنا ثروت بك أن يتصل بمعالى زميلى وزير الخارجية ويبلغه رأيي فى هذا الموضوع ، فاتصل به ثم أخبرنى بأن معالى الزميل يرى أن الخير فى ترشيح سوريا لأنها وعدت بتأييد مصر فى منظمات أخرى. وقد قبلت أن أنفذ هذه التعليمات آسفا، واتفقت مع وزير سوريا المفوض ومع الوفود العربية الأخرى على ترشيح سوريا وأسعى فى نجاح هذا الترشيح. وفى أثناء هذا سافر حسنى باشا (عبد الوهاب باشا حسنى من الخاصة الملكية) إلى إيطاليا ليشهد مثول معالى عبد الفتاح حسن باشا بين يدى جلالة الملك لحلف اليمين القانونية (كوزير للشئون الاجتماعية). ويظهر أن حسنى باشا تحدث فى هذا كله إلى جلالة الملك فأمره بالمحافظة على أن تحتفظ مصر بهذا المكان فى الأونسكو وكلفه أن يكتب إلى رئيس الديوان بالنيابة ليتصل بمقامكم الرفيع فى هذا الشأن. وعاد حسنى باشا إلى باريس فأخبرنى بذلك ، وقد تضايقت لهذا التصرف جداً ولكننى لم أقل له شيئا. ثم وصلت برقية من صلاح الدين باشا تشتمل على صورة ما أبرق به إلى رئيس الوزارة السورية متصلا بهذا الموضوع، ولم أكد أقرؤها حتى هممت أن استقيل من الوزارة ثم ملكت نفسى وأكرهتها على الاعتدال . ذلك أن فى هذه البرقية كشفا خطيراً لوفد مصر فى "الأونسكو" فهى تنبئ رئيس وزارة سوريا بأن الوفد المصرى قد أرسل إلى القاهرة أخباراً تدل على أن أمل سوريا فى النجاح

ضئيل جداً وهى تطلب إلى رئيس وزارة سوريا أن يكلف وزيره فى باريس الاتصال بالوفود العربية والوفد المصرى للتحقق من صحة هذه الأخبار، فإذا ظهرت صحتها كان من الخير أن تؤيد الوفود العربية مصر لترشيحها لهذا المكان. وما كنت أظن أن مثل هذه البرقية يمكن أن تصدر من وزارة الخارجية.

فالوفد المصرى فى الأونسكو مؤلف من مصريين لا ينبغى أن يكشفوا حتى لو أخطأوا. ورئيس هذا الوفد وزير مسئول وزميل لوزير الخارجية فلا ينبغى أن يكشف على هذا النحو ولا أن يكون هو وزملاؤه موضوعا للتحقيق أمام وفود أخرى مهما تكن عربية فإنها أجنبية . ولولا أن نجاح مصر كان موقوفا على أن أرشح نفسى لهذا الكرسى لخالفت تعليمات وزارة الخارجية مؤقتاً ولرشحت مصر وظفرت لها بهذا المكان . ولكن الهيئات الأجنبية فى الأونسكو كانت ترشحنى شخصياً لهذا الكرسى ، وقد ألح علىّ فى ذلك ممثلو بريطانيا العظمى وفرنسا وبلجيكا وهولندا وأمريكا. ويوجسلافيا . فأبيت كل الإباء وألححت على هؤلاء الممثلين فى تأييد ترشيح سوريا لأنى لم أرد أن يظن ظان أو يقول قائل أنى آثرت نفسى على مرشح الجامعة العربية ومرشح وزارة الخارجية المصرية ، وهو المندوب السورى ، ولو قبلت الترشيح لانتخبت بإجماع الأصوات . لكننى بذلت وبذل زملائى جهدا شديداً حتى ظفرنا لسوريا بأغلبية ضئيلة وقد نجحت والحمد لله. هذه مسألة.

أما المسألة الثانية فهى مسألة إنشاء مركز للتعليم الأساسى فى مصر وهو مركز يتعلم فيه المعلمون على أن يعلموا الأطفال والشباب ماليس منه بد ليكونوا أعضاء منتجين فى البيئة الاجتماعية التى يعيشون فيها. وقد أعلنت فى الخطبة التى ألقيتها فى الاجتماع العام "للأونسكو" أن حكومة مصر مستعدة لإنشاء هذا المركز ليتمرن فيه المعلمون من الأقطار العربية والإفريقية. وسُرت الوفود بهذا التصريح وصفقت له تصفيقاً شديداً. ولكن فوجئت بعد ذلك ببرقية من وزارة الخارجية المصرية تنبئنى فيها بأن حكومة لبنان تريد أن تنشئ هذا المركز فى بيروت وتطلب إلىّ التفاهم مع الوفد اللبنانى على هذا الموضوع وتأييده إن احتاج إلى التأييد، فألقى فى روعى أنى إنما شهدت اجتماع "الأونسكو" لأصفى مركز مصرفيه ولأؤيد الوفود العربية الأخرى على حساب وطننا الذى بلغ من الكرم أن يعطى كل شئ ولا يستبقى لنفسه شيئا.

وقد حاولت أن أقنع الوفد اللبنانى بألا ينازعنا فى هذا المركز ولكنه لم يقتنع وطلب إلى "الأونسكو" إنشاء المركز فى بيروت . وهناك قام ممثل إسرائيل فطلب ألا ينشأ المركز فى مصر ولا فى لبنان وأن ينشئ فى تركيا. وأراد الوفد البريطانى أن يؤيدنا دون أن يسوء أحداً

فطلب أن يؤجل البت فى هذا الموضوع وأن يترك اختيار البلد الذى ينشأ فيه هذا المركز للمجلس التنفيذى والمدير العام. ووافقت هيئة "الأونسكو" على هذا الاقتراح، ولولا تقدم لبنان بطلبها لتم إنشاء المركز فى مصر.

ولست يائسا من أن ينشأ المركز فى مصر وإن كان لبنان ممثلا فى المركز التنفيذى ومصر ليست ممثلة فيه. وكل ذلك العناء مصدره شئ واحد هو أن وزارة الخارجية لا تستشير وزارة المعارف فى علاقاتنا الثقافية مع البلاد الأخرى ، على حين أن وزارة المعارف تستشير وزارة الخارجية فى الصغير والكبير من شئوننا الثقافية التى تتصل بالبلاد الأجنبية على اختلافها.

ولست أقول هذا شاكيا ولا لائما وإنما أقرر الحقائق الواقعة آسفا لها، وأرجو مخلصا أن يأمر معالى صلاح الدين باشا أعوانه فى وزارة الخارجية بأن يستشيروا وزارة المعارف فى كل ما يتصل بالثقافة ، كما هى فى البلاد الأخرى التى سبقتنا فى مثل هذه الشئون.

ولست أخفى على مقامكم الرفيع أنى عملت فى "الأونسكو" هذه الأسابيع الثلاثة ضيق النفس محرج الصدر، مجاملا مع ذلك للوفود العربية ما وسعتنى المجاملة . وكان يمكن أن نجتنب هذا كله لو مضت الأمور بين وزارة الخارجية ووزارة المعارف كما كان ينبغى أن تمضى .

أما فيما عدا ذلك فقد نجح الوفد المصرى نجاحا حسنا ملحوظا. فكانت له وكالة "الأونسكو" وكان رئيسه عضوا فى المجلس الذى يدير أعمال المنظمة أثناء الاجتماع . وكان أعضاؤه حاضرين فى جميع اللجان الكبيرة والصغيرة مشاركين مشاركة قيمة فى جميع الأعمال يرجع إليهم فى المشكلات الحادة .

وليس من الغرور أن أقول أن تدخلى فى مناقشات الميزانية هو الذى جمع الآراء على الرقم الذى كان يريده المجلس التنفيذى والمدير العام رغم الجهود التى بذلها وفد بريطانيا العظمى ووفد الولايات المتحدة لإنقاصه نحو مليون من الدولارات . ويمكن أن أقول واثقاً مطمئنا أن مصر قد كسبت لنفسها فى هذا المؤتمر الدولى الخطير مركزا مرموقا ممتازا ، وكثيراً ما كانت هى الحكم فيما كان يثار من المشكلات بين وفود الدول الكبرى . فعسى أن تحتفظ مصر بهذا المركز. ولست أشك فى أننا إذا أحسنا الاتفاق والتضامن والتعاون فيما بيننا، ربحنا كثيراً، وما أشد حاجتنا إلى ذلك فى هذا الموقف العالمى المضطرب . وقد أطلت على مقامكم الرفيع ولكنى حرصت على أن أرفع إليكم تقريراً موجزا عن نشاطنا فى "الأونسكو" لتكونوا على علم بالمهم منه إلى أن يعرض التقرير المفصل على مقامكم الرفيع

بعد عودتى إلى مصر إن شاء الله.

وهذا التقرير الموجز خاص أرجو ألا يطلع عليه أحد غير مقامكم الرفيع : فلست أريد أن أسوء زميلى صلاح الدين باشا ، ولكنى مؤمن بأن من الحق علىّ أن أظهر مقامكم الرفيع على كل شئ لأكون وفيا لشخصكم أولا ولليمين التى أقسمتها والعهد الذى أعطيته على نفسى بأن أكون مخلصا لكم فى كل ما أعمل وفى كل ما أقول.

إلى جانب "الأونسكو" كان لى نشاط آخر شخصى مع وزارة الخارجية ووزارة المعارف فى فرنسا بشأن مسألتين . إحداهما مسألة مدرسة الحقوق الفرنسية التى أطالب بإلغائها منذ عام . وقد نجحت فى هذه المسألة وقررت جامعة باريس تصفية هذه المدرسة بحيث لا تقبل طلابا جددا فى السنة المقبلة وإنما تتم تخريج الذين يتعلمون فيها الآن وينشأ مكانها معهد للدراسات القانونية الحرة لا يعقد امتحانات عامة ولا يمنح درجات ولا دبلومات . وكذلك يصبح تعليم القانون فى مصر مقصوراً على كليات الحقوق المصرية.

المسألة الثانية مسألة معهد فاروق للدراسات العربية فى أفريقيا الشمالية، وقد طلبت كما يعلم مقامكم الرفيع أن ينشأ هذا المعهد فى مدينة من مدن أفريقيا الشمالية غير طنجة، واقتنع وزير الخارجية الفرنسية بوجهة نظرنا ووافق على أن ينشأ المعهد ويفتتح فى أول العام الدراسى المقبل أى فى نوفمبر من هذا العام. ولكنه طلب مهلة إلى منتصف أغسطس لاختيار المدينة التى ينشأ فيها هذا المعهد. وهذه المدينة يجب أن تكون إحدى ثلاث : إما الرباط وإما الجزائر وإما تونس.

لهذا قررت أن أعود إلى باريس فى آخر أغسطس إن شاء الله لأعلم آخر ما وصلت إليه وزارة الخارجية فى اختيار إحدى هذه المدن. ومازلت عند الرأى الذى تفضل مقامكم الرفيع فقبله وأيده وهو أن إنشاء هذا المعهد يجب أن يتم فى هذا العام فإن تلكأ الفرنسيون أغلقنا معهدهم فى القاهرة ومنعنا هيئاتهم العلمية من البحث عن الآثار فى مصر. وهم يعلمون ذلك حق العلم ويشفقون منه كل الإشفاق .

وما دام مقامكم الرفيع يمنحنى مودته وعطفه وثقته فأنا مطمئن إلى النجح إن شاء الله.

هذا تاريخ الأسابيع التى قضيتها فى باريس، ولعل مقامكم الرفيع يرى أنى لم أضع الوقت وأنى لم أكن مسرفا ولا كسلاً حين طلبت الأجازة . ولست أجد من الألفاظ ما أشكر به مقامكم الرفيع على الإذن لى بأن استريح بعد العناء المتصل . فلأكل كل هذا الشكر إلى الله عز وجل فهو القادر على مالا نقدر عليه، وهو القادر على أن يمنحكم ما أنتم أهل له من السعادة الدائمة والهناء المتصل والنجح فى كل ما تسعون إليه، والظفر بكل ما تطمعون فيه،

وهو القادر على أن يديم عليكم نعمته ويشملكم بالعافية الكاملة، ويحفظ عليكم ما تحبون من رضاه عن أعمالكم وأقوالكم ، ويرضى الشعب عن نصحكم له وعنايتكم به ، وتضحيتكم فى سبيله بأغلى ما تملكون .

وأنا أرجو بعد هذا الكتاب الذى بدأته فى باريس وأتمه الآن فى مدينة بولزانو "الإيطالية" أن تتفضلوا فترفعوا "أصدق" إجلالى لحضرة صاحبة العصمة السيدة الكريمة وتتقبلوا أصدق تحياتى وأخلص حبى وأعمق وفائى.

باريس ٧ يوليو – بولزانو ١٩ يوليو

فصل من التحدى مع الملك

والرسالة ليست فى حاجة إلى تعليق.. ولكنها تثير التساؤل عن موقف النحاس من تلك الأزمة بين وزيرين من وزرائه والتى تدل على وجود انقسامات أو عدم انسجام بين بعض الوزراء، فبعضهم وفدى ويعتبر تلميذا للنحاس وتدرب فى مكتبه للمحاماه وصعد السلم حتى صار وزيراً كمحمد صلاح الدين، وبعضهم لم يكن وفديا وجاءت به إلى الوزارة شهرته وسمعته الأدبية والفكرية كطه حسين الذى كان مؤيدا لسياسة الوفد وإن لم يكن وفديا وهو ما حدا إلى إصابة أعضاء الحزب بالمفاجأة لاختياره وآخر ، وزيرين من خارج أعضاء الحزب، وهو ما عبر عنه النحاس بأنه لم يختر بعض وزرائه اختياراً حزبيا بل اختياراً قام على أساس أنهم خبراء فى المجال الذى أختارهم من أجله كوزراء .

نعود إلى موقف النحاس من أزمة وزيرين فى حكومته ، نستطيع أن نؤكد أن محمد صلاح الدين وزير الخارجية لم يتصرف من نفسه بشأن الإصرار على ترشيح المندوب السورى فى "الأونسكو" فمن المؤكد أنه تشاور مع النحاس بهذا الشأن باعتبار مصر هى زعيمة العرب فهى التى جمعتهم فى شخص النحاس باشا، رؤساء وملوك لتأسيس الجامعة العربية ، فيكون النحاس من هذا المنطلق قد وافق على ترشيح المندوب السورى ، رغم اعتراض الملك كما رأينا فى الرسالة السابقة وإصراره على ترشيح المندوب المصرى ، وهذا يوضح فصلا آخر من فصول الصراع والتحدى بين النحاس والملك ، ومن الواضح هذه المرة أيضاً أن النحاس قد كسب الجولة من الملك لأن الدارس لشخصية النحاس وعناده يعلم أنه لم يكن يسمح للملك بأن يفعل ما يريد، فما بالك بوزرائه الذين لا يمكن لأحد منهم أن يفعل شيئا أو يتخذ قرراً بعيداً عنه خاصة إذا كان متصلا بالعلاقات العربية التى يعمل على دعمها، ويبدو أن طه حسين كان بعيدا وهو وزير

للمعارف عن مركز صناعة القرار ولذا بدا غضبه حادا وإن لم يسمح لذلك الغضب بأن يدفعه للاستقالة واكتفى بشكواه الخاصة لرئيس الوزراء وأوصاه أن يتكتم الأمر ولا يفضي به إلى أحد، ويبدو أن ذلك كان يرضى النحاس أيضاً لأن طه لم يقم بتصعيد الأزمة إلى أبعد من مجرد الشكوى. والنحاس حريص على إرضاء طه حسين وإن رأى أنه لم تكن هناك ضرورة لإخباره بأنه كان متفقاً مع وزير خارجيته على كل ما حدث في مؤتمر "الأونسكو" لصالح البلاد العربية الشقيقة حتى وإن جاء ذلك على حساب مصر وتنازلها وتضحيتها من أجلهم، وتلك رؤية سياسية تقدم قيمة التضامن العربي الذى تقوده مصر على قيمة أن تفوز مصر بمنصب دولى هنا أو هناك.

تنكر زميلنا

ويبدو أن طه حسين لم يكد ينته من خطابه "الأزمة" ويرسله إلى النحاس ، حتى أتته الصحف تحمل خبران أحدهما استوجب التعزية لفقد عزيز صديق للرجلين "إسماعيل باشا رمزى وزير الأوقاف" ، وأحدهما استوجب المواساة لتنكر وزير قدم استقالته (أحمد حسين وزير الشئون الاجتماعية الذى اختاره النحاس رغم صغر سنه) دون مراعاة لخاطر النحاس، وهذان الخبران رأى طه حسين أنهما يستوجبان سرعة التعليق عليهما بالتعزية والمواساة للنحاس باشا الذى وصلته الرسالتان في وقت واحد وبتاريخ واحد، مما اقتضى من النحاس أن يرد عليهما برسالة واحدة. ولنقرأ أولا رسالة طه حسين الجديدة بنفس التاريخ السابق للرسالة الأولى في:

٢٩ يوليو ٥١

سيدى صاحب المقام الرفيع

سلام الله ورحمته وبركاته على مقامك الرفيع وشخصك الحبيب إلىّ الأثير عندى. أما بعد، فقد حملت إلىّ الصحف التى ترد من مصر خبران أثرا فى نفسى تأثيراً متناقضا أشد التناقض متباعدان أعظم التباعد، أحدهما وفاة زميلنا وصديقنا إسماعيل رمزى باشا رحمه الله. وأنا أعرف قلبك الرحيم، ونفسك الشفيقة ، وضميرك المؤثر للود، والحفيظ على العهد، الوفى للأصدقاء، فخالط الأسف على الراحل الكريم إشفاق عليك من وقع المصاب ونزول الخطب ، وتصورت كيف تأثرت نفسك فى هذه الفاجعة . فرحمتك حبالك، وأشفقت عليك ضناً بك، وابتهلت إلى الله أن يجنبك كل مكروه ، ويعصمك من كل سوء ، ويسبغ عليك العافية ، وينزل على قلبك السكينة، ويمنحك من المعونة والتأييد ما يكون لك فيه بعض

العزاء .

الثانى ما كان من تنكر زميلنا أحمد حسين باشا الذى رفـع إلى مقـامك الرفيـع اسـتقالته وأبى فيما تقول الصحف أن يعدل عنها مع إلحاح مقامك الرفيع عليه فى ذلك.

ولست أعـرف حقيقـة مـا دفعـه إلى الاسـتقالة، ولا حقيقـة عـذره فـى الإصـرار عليهـا والاستمساك بها، ولكنى أجد فى هذا الاستمساك قسوة لا أحبها، وشدة لا أرضاهـا. فـأنت لزملائك وأعوانك أب رفيق رؤوف لا تحملهم ما لا يطيقون ، ولا تكلفهم ما يكرهون، ومـا أكثر ما تشقى ليسعدوا، وتتعب ليستريحوا، وتسهر لينـاموا ، وأقصى ما يجوز لأحدهم إنما هـو الشكوى إليك والإلحاح فى هذه الشكوى طمعا فى عطفك، وثقة بحبك حتى ترضيـه . فامـا أن يغضبك ويسوءك ، أو يضيف إلى تعبك تعبا، وإلى عنائك عناء، فهـذا هـو الـذى لا أحبـه ولا أقره ولا أرضاه، وأنا أرجو أن يكـون زميلنـا قـد راجـع نفسـه فـآثر العافيـة ، وثـاب إلى الرضى، واعتذر إليك من التقصير في ذاتك . فإن يكن ظنـى قـد صـدق ورجـائى قـد تحقـق فالحمد لله على اجتماع الحكمة والتئام الجرح.

وإن يكن ظنى قد كذب ورجائى قد خاب فليس زميلنا أول من أخطأه التوفيق وأدركه العجز وسط الطريق. وما أكثر الذين انشقوا عليك، وتفرقوا عنك فلـم يـزدك انشـقاقهم إلا قوة، ولم يزدك تفرقهم عنك إلا استمساكاً بالحق وإصراراً عليه.

وأنت موفق إن شاء الله فى كل ما ترى ، مؤيد بروح الله فى كل ما تبتغـى. ولـو أنـى كنت فى مصر لشافهتك بذات نفسى ولأظهرتك من قرب على وفائى لك وحرصى على أن ترضى. أنا مؤمن بأنك قد جاهدت فأحسنت الجهـاد ، وأبليـت فأحسـنت البـلاء، وصـبرت على المكاره فأبلغت فى الصبر. وأوجب لك هذا كله على المصريـين عامـة ، وعلـى زملائـك منهم خاصة حقوقا هى ذمة فى أعناقهم، وأيسر هذه الحقوق أن يكونوا دائما عندمـا تحـب ، وأن يباعدوا بين أنفسهم وما تكره، ومهما يكن رأى النـاس فهـذا رأيـي ، وهـو عهـد أقدمـه إليك: لا أكون إلى آخر الدهر عند مـا تكـره مهمـا يكلفنـى ذلـك مـن جهـد ويُحملنـى مـن مشقة.

فاقبل منى وفاء صفوا عفوا لـن تشـوبه شـائبة مهمـا تكـن الظـروف ، فلعـن الله حيـاة يفسدها الانحراف عنك، أو يكدرها الانصراف عما تحب.

أكتب هذا ومقامك الرفيع يعلم أنى أزهد الناس فى الوزارة ، وأبغضهم لها، وأحرصهم على فراقها، ولكنى أحب مخلصاً أن تثق منى بالود المحض والإخاء الصرف، وبـأن بقـائى فـى الوزارة أو تركى لها رهن برأيك، فأى الأمرين أحببت ، فإنه سيقع منى موقع الرضى لا يمـس

ما بينك وبينى من ود هو آثر عندى من كل شئ، وأعز علىّ من كل عزيز.

فاقبل تحيتى صادقة ووفائى محضا وإخائى صريحاً.

طه حسين

قطعة من جسمى

وقد أحدثت رسالة طه حسين البليغة المؤثرة أثرها لبالغ فى نفس وقلب النحاس باشا كما سيتبين من رده عليه ، وعلينا أن نلاحظ أنه سيرد على الرسالتين اللتين أرسلهما طه حسين فى وقت واحد، وبتاريخ واحد ، وسيخص الرسالة الأخيرة بالاحتفاء ، ويكتفى بالرد على الرسالة الأولى "الأزمة" بطمأنة طه حسين بأن محتواها سيظل سراً فيما بينهما.

كتب النحاس باشا رسالته على الأوراق الخاصة برئيس مجلس الوزراء ، أو كما جاء فى نصها:

رياسة مجلس الوزراء

مكتب الرئيس

عزيزى معالى الدكتور طه باشا

شهد الله أنك وفى الوفاء المحض، مخلص الإخلاص الذى لا يشوبه غرض، ولا تفسده مطامع الحياة.

وإن كتابك الفياض بمعنى الأخوة الكريمة، الزاخر بعبارات الصدق والوفاء ، قد أدخل على نفسى الطمأنينة وعلى قلبى روحا من الهدوء والانشراح..

لقد طالعنى كتابك فى ظروف محرجة أشد الحرج، قاسية أعظم القسوة ، لا لما تضمنه من أحداث لم نتعودها، أو نجر بها ، ولكن لما اكتنفها من نكران للجميل - ونسيان للماضى القريب ، أثرهما على النفس المخلصة شاق، ومغبتها مؤلمة قاسية، وأى ألم أشق على النفس، وآلم للقلب، من أن يفقد الإنسان صديقا مخلصاً، ورجلا وفيا، كالفقيد إسماعيل رمزى باشا، الذى كان مثلا من أمثلة الانسجام الأخوى، وقدوة تحتذى فى المحافظة على المبدأ الوفدى ، فى وقت نرى فيه الذين نفخنا فيهم، وعمدنا إلى إظهارهم ، والإشادة بهم ، يعملون على حربنا، والخروج علينا ومحاولة النيل منا، ومضاعفة الأعباء والمسئوليات التى ينوء بها كاهلنا فى هذه الأيام الدقيقة العصيبة.

ولست أكتمك أن كتابك قد وصل إلىّ ساعة الحاجة إلى مثله، فلقد رأيت فيه نوعا جديداً من الأخوة والوفاء ، والحب والإخلاص الذى لا يزيد ولا ينقص وفقا لتطورات الحاجة الشخصية، أو المآرب الذاتية ، ولكنه الود الصرف، والوفاء الخالص، الذى جمعنا الله عليه، ونماه بقدرته فينا، فلم يعتمد يوما من الأيام على مصلحة – أو يسعى وراء غاية دنيا، وإنما كان فى الرخاء مثله فى الشدة، مثار الفخر والذكر، ومكان التقدير والإجلال، وهو هو الوفاء الذى سيظل باقيا ما بقينا قويا تزيده الأيام قوة ، ويخرج من الأحداث نقيا صافيا.

وإنى لأقدر من أعماق نفسى تلك العاطفة الجياشة التى بدت فى رسالتك بمناسبة استقالة أحمد حسين باشا والتى ما كنت أود أن تكون لولا أنه أصر عليها، واستمسك بها وخابت كل المحاولات التى بذلت لإثنائه عنها، وما فعلنا كل هذا إلا محافظة على الشمل أن يظل ملتئما، وعلى الانسجام الوزارى أن يكون بمأمن من العواصف والهزات، ولكنه – سامحه الله أبى غير ما أردنا، وقصد إلى غير ما قصدنا لمصلحة المجموع لا لمصلحة فرد من الأفراد. ولقد لفت نظرى فى رسالتك القيمة الصادقة ما ذكرته بصفة خاصة من أن بقاءك فى الوزارة وتركك إياها رهن برأيي، وأن أى الأمرين أحببت سيقع منك موضع الرضا لا يمس ما بينى وبينك من ود هو آثر عندك من كل شئ ، وأعز عليك من كل عزيز . وعلم الله أن هذا الذى طالعته فى رسالتك هو ما أحسه من أخوتك وصداقتك ، ولم يزدنى علما بك، ولا حكما عليك . فأنت أخ الود، وصديق النفس، وما كانت العلاقة بيننا علاقة وزارة نشترك فيها، أو حكم نتقاسم همومه وآلامه، ولكنها أكبر من ذلك وأسمى، وأبقى على الزمن وأخلد، وأصدقك الحق أننى لن أتخلى عنك ، ولن أفرط فيك . وسأظل مستمسك بك إلى جانبى إلى آخر لحظة، وإن أرغمتنى الظروف على غير ما أحب – وأرجو ألا ترغمنى – فإنى سأكون كمن يقتطع قطعة من جسمه، أو يفرط فى عضو صالح من أعضائه. هيهات أن يجد له بديلاً، أو يعتاض عنه بمثله، على أنه مهما تكن الأحوال فإنى معتز بأخوتك ، فخور بصداقتك، ممتلئ النفس غبطة بوفائك وإخلاصك، راجيا أن يظل وفاؤك صرفا، وإخاؤنا محضا، وعلاقتنا خالصة لا يكدرها ما اصطلح الناس عليه من شئون الدنيا، ولا ما ألفوا أن يتهافتوا عليه من أمور الحكم، والجاه أو السلطان.

ولك منى تحية التقدير، ووفاء الصديق، ومحبة الأخوة الممتزجة بالإجلال والاحترام.

وأكتفى بهذا عن الرد على خطابك السابق الذى أوصيتنى فيه على أن يكون ما احتواه سراً خاصا بينك وبينى. وأرجو فى الختام أن تبلغ السيدة حرمك تحيتى واحترامى.

مصطفى النحاس

سان ستفانو فى مساء الأربعاء ٨ أغسطس ١٩٥١

أشقى الناس

وتمضى الأمور بعد ذلك إلى نهايتها المحتومة وتطوى بحريق القاهرة آخر صفحة من صفحات الوفد وزعيمه لتتم إقالة الوزارة النحاسية السابعة والأخيرة ، والتى كان لها حظ اشتراك طه حسين فيها، ورغم قصر المدة التى قضاها كوزير للمعارف "سنتان" إلا أنه ترك أبعد الأثر فى تاريخ الوزارة بحيث لا يذكر التعليم ولا تذكر وزارته إلا مقترنة باسم طه حسين، ولعلنا فى شوق شديد اليوم ونحن نتتبع أنباء خروج الوزراء بعد التغييرات الحكومية، حيث يتكرر السؤال مع كل تغيير: كيف يستقبل الوزير الخارج من الوزارة هذا المصير، ولعل الساعات والأيام الأولى تكون فى حياة الوزير الذى هجر السلطة والنفوذ أو قد هجرته من أقسى الفترات فى حياته، فكيف عاش الوزير طه حسين هذه المرحلة من حياته؟ إنه لا يدع فرصة لنا للتخمين والاستنتاجات ، بل هو يخبرنا بنفسه فى نفس المقال المشار إليه سابقا كما أخبرنا بقصة دخوله وخروجه من الوزارة ، فيحكى عن حياته ومعيشته بعد خروجه أو إخراجه من الوزارة التى أقيلت بأكملها عقب حريق ٢٦ يناير ١٩٥٢، فيقول:

"وأصبحت من غداة تلك الليلة مطمئن النفس مستريح البال لا أتعجل الخروج من الراحة إلى العمل، ولا أختلس طعام الإفطار اختلاسا، ولا أترقب أنباء التليفون بأن إضرابا قد كان فى هذه المدرسة أو تلك ، وبأن اضطرابا قد وقع فى هذه الجامعة أو تلك، وإنما خرجت من النوم مترفقا ، وخرجت من الدار حين ارتفع الضحى فسعيت إلى القصر لأسجل شكرى للمليك على ما أتاح لى من محاولة خدمة الشعب، ثم سعيت إلى دار الرئيس (رئيس الوزراء النحاس باشا) لأشكر له فضل اختياره وحسن ما أسدى إلىّ من معونة أثناء تشرفى بالعمل معه، ثم عدت إلى دارى راضيا موفوراً ، ولكن لا أقول الحق كله إن لم أضف أنى كنت متعبا مكدودا ، وأنى احتجت إلى وقت غير قصير لأتنفس فى أناة ورفق، ولأذوق الحياة كما تعودت أن أذوقها قبل أن ألى وزارة المعارف. وفى اختلاف الليل والنهار وتعاقب الأحداث والخطوب ما ينسى الكتاب أنهم كانوا وزراء . وأشهد لقد كنت خليقاً أن أنسى هذين العامين لولا تحدث الناس إلىّ فيهما، ودعاء الناس لى بلقب ليس لى فيه الآن حق قليل أو كثير، وما لى لا أنسى الوزارة وقد لقيت فيها عناء وشقاء، وما رضيت فيها عن نفسى قط، وإنى لأشقى الناس حين أرضى عن نفسى، فما يرضى عن نفسه إلا رجل قد فرغ من الحياة أو فرغت منه".

مراسلات

طه حسين - نجيب الهلالى

(*)على كثرة ما كتب طه حسين من رسائل إلى أصدقائه السياسـيين وغير السياسـيين فإننا لا نجد غير صديق رأى فيه طه حسين صديقه الوحيد فى مصر، الذى كان يؤثره بالحب والمودة والإعزاز بعد أسرته، وهو أحمد نجيب الهلالى، المحامى، وزير المعارف، وآخر رئيس وزراء لمصر قبل الثورة، وأحد القلائل الذين احتفظت لهم الثورة بقدرهم، فسبقها إلى شعار "التطهير" الذى تبنته الثورة بعد قيامها ، وكان هو الذى نصح الملك بقبول شروط الثورة، وكانت نصوص معاهدة الجلاء تعرض عليه لإقرارها من الناحية القانونية قبل أن يوقعها عبد الناصر، وهو الذى وضع بروتوكول الإسكندرية الذى نص على تأليف الجامعة العربية وتحديد أهدافها، وفضلا عن أن الهلالى كان سياسيا ماهرا لدرجة أن أطلق عليه النحاس باشا "أمكر المكرة" فقد كان سياسيا نزيها دخل الوزارة مستورا وخرج منها مديونا، وصفه د. محمد حسين هيكل باشا بالتفانى فى خدمة بلاده ورغبته فى النهوض بالعلم والأخلاق ، ووصفه كامل الشناوى بأنه صاحب ثقافة عميقة عريضة فى الأدب والفلسفة والفقه والقانون، وكان أول من بدأ إصلاح التعليم، بل إن هناك من يذهب إلى أنه صاحب مقولة "التعليم كالماء والهواء" التى نسبت إلى طه حسين، الذى يعترف "بأن الهلالى هو أول من جعل التعليم الابتدائى بالمجان"، وهو الذى أعاد طه حسين إلى الجامعة بعد أن طرده إسماعيل صدقى منها، كما عينه مستشارا فنيا لوزارة المعارف، وانتدبه مديرا لجامعة الإسكندرية، ورشحه وزيرا للمعارف فى حكومة النحاس الأخيرة، ولن نجد فى أوراق طه ورسائله إلى من كان يراسلهم إلا صديقا واحدا اختصه بأكثر وأطول وأصدق وأصفى رسائله.

كتب طه حسين إلى الهلالى باشا من فرنسا يروى له أحداث سفره، والحوار الذى دار بين النحاس باشا وزوجته سوزان على ظهر السفينة عن الهلالى نفسه، فيقول:

أخى العزيز

أما إذا لم تشغلك عنى ظروف الحياة فى مصر فأنت تلومنى إن أبطأت فى الكتابة إليك. وأما إذا شغلك المدير وجه النهار والسمر أول الليل، والنوم بين هذا وذاك فأنت تذكرنى من حين إلى حين وتسأل متى تصل إلىّ أخباره . وأنا قابل منك كلا الأمرين مغتبط بهما، سعيد بأن تذكرنى كثيراً أو بأن أمر على خاطرك مراً سريعاً. وإذا كنت لم أكتب إليك فلأن الأيام التى قضيتها فى باريس إلى الآن كانت مفعمة بجلائل الأعمال وصغائرها. من اختلاف إلى

(*) المصور ١٩ نوفمبر ١٩٩٩.

السوربون والكوليج دى فرانس، والإليزيه، والكوميدى فرانسيس، والأوبرا، والمعرض، وما يتصل بهذا كله من سخف الاحتفالات والأعياد التى أقيمت للكوليج دى فرانس . وكنت أذكرك وآسف لأنى لم أكن أجد الوقت للكتابة إليك. أما الآن وقد فرغت من هذا كله فأرجو أن تتصل إليك كتبى حتى تشكو من كثرتها ، ولكن أحذر أن تظل هذه الكتب من غير جواب. ولست أطلب لكل كتاب جوابا. وإنما أطلب جوابا لكل كتابين. وهذا الكتاب هو الثانى فقد كتبت إليك من "سترندا" فى إيطاليا، وأحب أن تلاحظ أنى لست أقل منك عملا، فبين يدى مجلدات تريد أن تقرأ، وبحث يريد أن يكتب للمؤتمر، وملاعب باريس مغرية، وليست متنزهات الأقاليم أقل منها إغراء ، وسأوثرك على كل هذا فتستطيع أن تأخذ لى فى الأسبوع نصف ساعة من عوض بك إبراهيم وبلغه تحيتى.

ذكرناك كثيراً فى السفينة مع صاحب الدولة، وكان أول ذلك أننا كنا نعد مرة المهرة والمكرة الذين يحسنون الشيطنة أو يسيئونها، فذكرنا أسماء، ثم افترقنا. ومضى على ذلك وقت طويل ثم مر الباشا بامرأتى وهى تتحدث إلى حرمه ، فقطع حديثها قائلاً لزوجتى : لقد نسيت يا سيدتى أمكر المكرة . قالت من هو؟ قال: نجيب. ولست أذكر لك : ابتهجت سوزان بهذا الجواب. ولكن أهدى إليك تحيتها الخالصة، وأرجو أن تتقبل منى تحية أنت وحدك تعرف ما تشتمل عليه من حب وإخاء.

الأيام المظلمة

وحينما اشترى طه حسين امتياز جريدة "الوادى" وأشرف على تحريرها أثناء أزمته مع وزارة صدقى باشا ، عانى طه حسين من خسائر مادية شديدة، فإن كان قد نجح كصحفى إلا أنه فشل كإدارى ، واضطر إلى الاستدانة، وكان الهلالى ممن استدان منهم، ويسمى طه هذه الفترة بالأيام المظلمة، فقد كتب إلى نجيب بك الهلالى:

أخى العزيز

أكتب إليك مرة أخرى مستعينا بك وأثقل شئ علىّ أن يأخذك الحياء فتكلف نفسك ما لا تطيق أو ما يشق عليك ، أو أن يمنعك الحياء من الرد علىّ. فأقسم عليك لا تتكلف من هذا كله شيئا.

وأنا أعلم أنى ثقيل ولكنى أعتقد أنك تحتمل منى هذا الثقل الذى أرجو أن يخف قريبا.

أما الجريدة فما زالت حالها بعيدة عما يرضى ولكنها أخذت تحاول أن تقف على قدميها، وأظن أن هذا ليس مستحبا. فقد أخذ انتشارها يزيد بعض الشئ، وقد أخذت بعض شركات الإعلانات تفكر فيها، الغريب أنى برغم هذه المصاعب كلها بعيد كل البعد عن اليأس ، بل بعيد إلى حد ما عن سوء الخلق. ولعلى لم ابتسم قط كما ابتسمت فى هذه الأيام المظلمة. وإذا كان فى حياتى شئ ممض فهو احتياجى كثيراً إلى أن استدين، وإشفاقى المتصل من العجز عن أداء الدين. وأنا أريد الدين المادى. فقدر لرجلك قبل الخطو موضعها ، أستغفر الله. وأستغفرك. أنت أكرم علىّ وأرفع عندى من هذا الكلام.

وتقبل تحيتى الخالصة

طه حسين

١٠ نوفمبر ١٩٣٤

السخف الرسمى!

ويكتب طه حسين من مصيفه إلى الهلالى رسالة يضمنها بعض الاقتراحات والأفكار الخاصة بالتعليم ، وهو حين يتحدث يقسم حديثه إلى قسمين قسم خاص بالهلالى الصديق، وقسم آخر يخص به الهلالى الوزير. فكتب إليه يقول:

خطاب إلى نجيب بك الهلالى ٢٥ يوليو ١٩٣٥

أخى العزيز

أكتب إليك بعد أن انقضت ثلاثة أسابيع منذ اليوم الذى ودعتك فيه قبل سفرى . فقد أذكر أنى لقيتك مودعا فى الثالث من هذا الشهر. وأنا أكتب إليك فى الخامس والعشرين منه. وتستطيع أن تثق بأنى منذ ودعتك لم أنقطع عن التفكير فيك مرات. فى كل يوم أذكر شخصك وأذكر عملك المعقد المختلف الشاق، وأشفق عليك مما تحتمل من جهد وما تلقى من عناء. ولست غاليا ولا متجاوزا الحق إن قلت أنى لا أكاد أفكر فى أحد غيرك من المصريين ، ولا أكاد أفكر فى شئ غير وزارة المعارف من شئون مصر، ولولا أنك وزير المعارف لما فكرت فى هذه الوزارة التى تعرف رأيى فيها منذ زمن بعيد.

ولست أرى عليك بأسا من أن تقرأ هذا الكلام الفارغ الذى أكتبه إليك فقد تجد فيه راحة من الكلام الملآن الكثير الثقيل الذى تقرأه فى ديوانيك والذى تمتلئ به حقائبك إذا

انصرفت إلى بيتك وأويت إلى مكتبك أو إلى غرفتك لتستريح فاغتصبت وقت الراحة وأنفقته في هذا السخف الرسمي الذي يفرضه عليك الواجب الوطني.

وأنا أكتب إلى الصديق لا إلى الوزير، ومن هنا أصطنع الحرية فيما أكتب. وهل رأيت قبلي أستاذا يتحدث إلى وزيره بأن الأعمال الرسمية سخف، وبأن الواجب الوطني يفرض على الوزراء أن ينفقوا أوقاتهم وجهودهم في السخف. ولكني أرجو من الصديق ألا يطلع الوزير على هذا الكلام الخطر الذي يكفي للمحاكمة التأديبية.

غير أني أعلم أن لك ولي في الحياة العامة رأيا غريبا لا يكاد يشاركنا فيه أحد غيرنا. فنحن نرى أن الحياة العامة والحياة الخاصة سخفا كلها، ونحن نضحك من هذا السخف حين نخلو إلى أنفسنا وقلما نخلو إليها. ولكننا مع ذلك نؤمن بهذه الحياة العامة وما تفرض علينا من واجبات ، ولا نبيح لأنفسنا التهاون أو التفريط فيما تفرض علينا من أعمال وأثقال. ونحن نتكلف في سبيل ذلك كل جهد ، ونضحي في سبيل ذلك بالصحة واللذة والراحة معا.

خلقنا هكذا فلا نستطيع أن نغير أنفسنا ولا أن نحمل ضمائرنا مالا تطيق من المزاح حين يجب الجد، والراحة حين يجب التعب، والأثرة حين يجب الإيثار . ومن هنا تنام أنت أربع ساعات من أربع وعشرين، وتختلف إلى ديوانيك في الصباح والمساء، وتعقد لجنة المناهج والمكتب الفني، تزور أسواق الخضر والفاكهة، ونادي المعلمين، وتسمع من هذا وتقول لذاك، دقيقا كل الدقة في كل ما تأتي كأنك تؤدي واجبا دينيا خطيرا . ومن هنا أسافر أنا للراحة فلا أستريح ، وإنما أقرأ وأقرأ ، وأفكر فيما سأكتب، وفيما سأقول، وأمتنع على أهلي كلما هموا بنزهة أو رياضة. وأفكر في وزارتك التي لم أكن أحب أن أفكر فيها قبل أن تتولاها.

وأظن أنه قد آن لي بعد أن تحدثت إلى الصديق حديثا أراه قصيرا وستراه أنت طويلا، لأنك مشغول بالواجبات الوطنية. أظن أنه قد آن لي أن أتحدث إلى الوزير فأذن يا صاحب المعالي أن أرفع إليك ما يأتي.

أولا: كانت وزارة صدقي باشا قد كلفت وزيرنا المفوض في لندرة وهولندا حافظ عفيفي باشا أن يرأس وفد مصر في مؤتمر المستشرقين الذي عقد في "ليدن" سنة ١٩٣١، وكان لذلك أثر حسن جدا.

فمن الخير أن تكلف الحكومة القائمة وزيرنا المفوض في روما مراد سيد أحمد باشا رياسة الوفد المصري في المؤتمر نفسه الذي سينعقد في سبتمبر المقبل، وليس على الحكومة من ذلك بأس ، فلن يكلفها هذا العضو الجديد نفقة ما. وبهذه المناسبة أرجو أن تقوى

الجامعة، وفد الحكومة بندب اثنين عنها هما: أحمد أمين وعبد الوهاب عزام. وقد كتبت فى ذلك إلى مدير الجامعة قبل سفرى. ويكفى أن يعلم وزير المعارف أن الوفد الألمانى فى المؤتمر السابق قد نيف على السبعين. فليس كثيراً أن يكون الوفد المصرى مؤلفاً من ستة أو سبعة، ومصر موئل العربية والإسلام إلى آخر هذا الكلام الكثير.

وكانت الحكومة السابقة قد دعت المؤتمر إلى أن ينعقد فى مصر فلم تنجح لأن إيطاليا غلبتها، فهل تجدد الحكومة الحاضرة هذه الدعوة كما تقضى بذلك التقاليد. مسألة لا أقترح فيها شيئا وإنما أتركها لتقدير الوزير .

ثانيا: رأيت فيما رأيت منذ وصلت إلى فرنسا، أن الحكومة الفرنسية قد أقدمت على عمل كنت قد تشرفت باقتراح مثله على معاليكم فى بعض الحديث فأظهرتم ميلا إليه واستعدادا له.

فقد قررت وزارة المعارف الفرنسية أن تضم مدرسة المعلمين العليا للبنات إلى مدرسة المعلمين العليا للبنين ، بعد أن زالت الفروق التعليمية بين أولئك وهؤلاء . فلعل وزارتنا تذهب هذا المذهب ، ولاسيما وليس بين تعليم البنين والبنات فى مصر فرق ما.

ثالثا: وإذا أقبل الصيف فى فرنسا لم تكد تنظر فى صحيفة فرنسية أثناء شهر يوليو إلا وجدت فيها الحديث عن مجلس المعارف الأعلى، واجتماعه ودرسه لشئون التعليم كلها.

وقد بدأ وزير المعارف فى مصر تقريره عن إصلاح التعليم الثانوى بوجوب إصلاح الديوان قبل كل شئ . وأظن أن أول خطوة فى سبيل الإصلاح الفنى لوزارة المعارف ، إنما هى إنشاء مجلس المعارف الأعلى، على أن تمثل فيه فروع التعليم كلها، وأن تكون رياسته لمدير الجامعة، وأن يكون رأيه استشارياً ، وأن ينظر فيما يعرض عليه الوزير من المسائل الأساسية فى شئون التعليم ، وفيما يعرض عليه الأعضاء من الاقتراحات التى تمس حياة التعليم، وعلى أن يجتمع مرة أو مرتين فى العام اجتماعا يطول أو يقصر حسب ما تقتضيه الأعمال المعروضة عليه.

كم أتمنى مخلصا أن يكون صديقى نجيب هو المنشئ لمجلس المعارف الأعلى هذا، والواضع لهذا الأساس المتين من أسس التعليم الصحيح فى مصر.

والآن أعترف أنى قد أطلت، ولكنى أرجو أن لا تكون هذه الإطالة مانعة لك من قراءة هذا الكتاب، وأنا أعفيك من الرد عليه، وإذا وضعت عنوانى فى آخره فليس معنى ذلك إلا أنى أنبئك بمكانى لعلك تحتاج إلىّ فى بعض الأمر.

وأنا أهدى إليك ما ينبغى للصديق المخلص من حب وإخاء، ومـا ينبغـى للوزيـر الجليـل من تحية واحترام.

طه حسين

أليس غريبا أن أطيل هذه الإطالة ولا أشكر لك ما أسـتمتع بـه مـن الراحـة فـى فرنسـا، فأنـا مدين لك بها ، ولكن هل أستطيع أن أشكر لك ما أنا مدين لك به فهو أعظم من الشكر.

طه حسين

الجد كل الجد

وسنلحظ بوادر أزمة بين الصديقين حين قرر طه حسين الاستقالة من جميع اللجان التى وضعه فيها الهلالى باشا لأن طه وجدها غير محققة للأغراض التى أنشئت من أجلها. وهو حين يفعل ذلـك ظن أن الأمر لا يعدو اختلافا فى وجهات النظر، سيتقبله الهلالى ضاحكا، يقول طه حسين فـى : ٨ نوفمبر ١٩٣٥.

أخى العزيز

ستدهش حين يصل إليك هذا الكتاب فى بيتك من صديـق يسـتطيع أن يتحـدث إليـك فى كل لحظة لأنك عودته ذلك قبل أن تكون وزيرا وبعد أن كنت وزيرا.

ولكنى مع ذلك أكتبه إليك لأنـى لا أريـد أن أحدثـك فـى موضوعـه . فقـد ثقـل هـذا الحديث على نفسى. وإن لم يثقل عليك لأنك علمتنى أن أحاديثى لا تثقل عليك مهمـا يكـن موضوعها.

أكتب إليك راجيا منك فى صدق وإخلاص رجاء صديق من صديق أن لا تغضب حـين تجد فى الوزارة استقالتى من اللجان التى أنا فيها، وألا تراجعنى فـى ذلـك. فـأنت تعلـم حـق العلم أن أثقل شئ على نفسى وأبغض شئ إلىّ أن تطلب إلىّ شيئا فأجيب بلا. وأقسم لـك أن العمل فى هذه اللجان ثقيل جدا على نفسى يكلفنى مالا أحب من الضيق ، ويضيع علـىّ مـا أنا فى حاجة إليه من الوقت، ولست أحب أن أكذبك لأنـى لم أتعـود ذلـك ، فلـو أن حـالتى النفسية كما يقولون صالحة لما اعتذرت من عمل مهما يكن شـاقا ثقيـلا، ولكـن هـذه الحالـة النفسية بعيدة كل البعد عن أن تكون صالحة، وما أحب أن أفصل ذلك، ولا أن أطيل القـول فيها فأنت فيما أعتقد تعرفها حق المعرفة، وقد بذلت جهودا صادقة لإصلاحهـا فلـك الشـكر

خالصا متصلا.

ومهما أنس فلن أنس أنك رددتنى إلى الجامعة وحملت الحكومة على أن تحاول إنصافى، وحملتها أيضا على أن تحتسب لى فى المعاش أعواما قديمة، ومكنتنى من السفر إلى أوربا. وهذا كثير لا يجحده إلا رجل غيرى. ولكنى كنت أنتظر أشياء أو أعلل النفس بآمال لا أراها مسرفة ولا غالية . وإنما أراها متواضعة كل التواضع، فقد ظهر أنى كنت أنتظر أكثر مما ينبغى، وأعلل النفس بآمال عسيرة التحقيق. فلم يبق إلا أن أنهض بالواجب راجيا منك ألا تكلفنى مالا أطيق.

وأنا أرجو أن تقبل من صديقك المخلص تحية ملؤها المودة والحب. وأرجو بنوع خاص ألا تقرأ هذا الكتاب ضاحكا، وأن لا تتم قراءته ضاحكا، وأن لا تنظر إليه كما تعودت أن تنظر إلى بعض أعمالى ضاحكا. فإنى أؤكد لك أنى لا أكتبه ضاحكا ، وإنما هو الجد كل الجد.

غضبك يؤذينى

وقد قوبلت استقالة طه حسين من جانب الهلالى بغير ما توقعه طه حسين، الذى فوجئ بغضب الهلالى وثورته التى بلغت حداً أثر أبلغ تأثير فى نفس طه حسين، لدرجة أنه يكتب خطابا إلى الهلالى فيرجئ إرساله بعدما تصاعدت الأزمة نتيجة ظروف ووشايات تراكمت، ليعود طه حسين مستأنفا خطابه بخطاب آخر مكمل له ليستدرك ما حدث محاولا إصلاح ذات البين فى خطاب أدبى بليغ يعد من أروع ما قيل فى عتاب صديق لصديق..

يقول طه حسين فى: فى ٢٧ نوفمبر ١٩٣٥

أخى العزيز

أنبئت أن ظنك قد ساء بى وأنك وضعتنى حيث تضع غيرى من الناس. فقدرت أنى حين استقلت من اللجان التى تفضلت فوضعتنى فيها، إنما قصدت ألا أتعاون معك فى هذه الظروف الخاصة.

وائذن لى قبل كل شئ فى أن ألا حظ أنى كنت أعتقد أن مكانتى فى نفسك أرفع من هذا ، وأن ما بيننا من الصداقة والإخاء أرفع من السياسة وأعراضها، ومن الوزارة وما يختلف عليها من الظروف.

وإنى كنت أعتقد أنك سترى فى هـذه الاستقالة نوعـا مـن الغضـب أو لونـا مـن تمـرد الصديق أو نزولا عند حكم ضرورة شخصية قاهرة ، ولاسيما وقد طلبت إليك غير مـرة أن تعفينى من هذه الأعمال لأدبر من أمرى الخاص الذى تعرفه ما يحتاج إلى التدبير. ولكنك قـد أعرضت عن هذا كله ، وأبيت إلا أن تضعنى حيث تضع عامـة النـاس، فتظـن بـى الظنـون ، وتسير بى سيرتك مع المتقلبين . فهذا فى نفسه مؤلم حقا وأنت تعرفنى أكثر مما أعرف نفسى، وأنت تعلم بعد الخبرة والبلاء أنى لست جاحدا ولا منافقا، وأنت تعلم أنـى قـد لجأت إليـك فى وقت الشدة، واستعنت بك على الضراء أكثر مما لجأت إلى أمـس النـاس بـى، وأكـثر ممـا استعنت بأقرب الناس إلىّ.

فصدقنى إن قلت لك إن سوء ظنك بـى يؤذنـى فـى كرامتـى ويجرحنـى فـى مروءتـى ، وليس هذا بالشئ القليل .

وأنى لأقسم بك وأنت أعز الناس علىّ وآثرهم عندى بعد زوجى وابنى ، ما فكرت فى سياسة ولا فى مغاضبة لوزارة المعـارف، ولا لوزيرهـا، حـين كتبـت إليـك مـا كتبـت . وإنما فكرت فى أن أقتصد من الوقت ما يمكننى من أن أكتب مقالة أو أضع كتابا أستعين بـه علـى الحياة.

وأنت بالطبع حر فى أن تصدق هذا القسم العظيم أو لا تصدقه، ولكنى أعرب عما فى نفسى مخلصا، وما أستطيع أكثر من هذا ، بل أنا أستطيع أن أقيم الدليل على صدق ما أنبئك به إن كان سوء ظنك بى قد انتهى إلى هذا الحد، فأسترد استقالتى من اللجان التى لم تعـين لى فيها خلفا لتعلم أنى أبعد الناس عما ظننت بى، وإنى أرفع من أن أجفو صديقـى للسياسـة أو لما هو فوق السياسة.

دعنى أذكرك مودتنا وأيامنا، فقد يظهر أن السياسة وأثقالهـا قـد أنسـتك مكـانى منـك، وخيلت لك أنى كهؤلاء الذين يخدمونك وزيرا ، ويتجنبونك إن بعدت عن الحكم.

ودعنى أقل لك فى صراحة الصديق للصديق، بل فى صراحة طه لنجيب أنـى لم أخطـئ معك إلا فى شئ واحد وهو أنى استقلت فى وقت غير ملائم للاستقالة، وأنا نادم علـى هـذا الخطأ ومعتذر منه ومستعد لإصلاحه إن أردت أنت، ما وسعنى هذا الإصلاح. فأمـا فـى غـير هذا فلم أقصر فى ذاتك، ولقد ساءت الظروف السياسية فسعيت إلى مقابلتك وطلبتها إليـك مباشرة وبالواسطة فلم تُرد لقائى.

ولست أعرف أنى أخطأت معك غير هذه المرة ، ولكنى أعرف أنك أنت ظلمتنى أشنع الظلم، فأسأت بى الظن، وعاملتنى معاملة عامة الناس، واتهمتنى فى نفسك بخيانـة الصديـق،

وما كان ينبغى لك أن تفعل هذا، فينبغى أن تكون الصداقة فى نفسى كريمة كنفسك، أنفس من كل شئ وآثر من كل شئ وأرفع من أن تبلغها وشاية الواشين.

أسعى إلى مقابلتك فترفضها ، وأسأل عنك فى التليفون فتعرض عن سؤالى. ويقول لك الواشون سخفهم فتسمع لما قالوا . وهبنى أخطأت فمن الذى يمنع الصديق أن يصلح خطأ الصديق. تسير معى سيرتك مع سليم ثم ترى بعد ذلك أنك منصف ، وأنى أنا المخطئ.

كلا– إنى لأقهر نفسى وآخذها بحزم عنيف لأنى أحبك وأوثرك وأكره أن أقسو فى الكتابة إليك.

تعتب علىّ فيما يظهر بل فيما يقال أنى اشتركت فى احتجاج الأساتذة المصريين فى كلية الآداب. فأحب أن تعرف قبل كل شئ أنى لم أعلم بأمر هذا الاحتجاج إلا من مدير الجامعة حين تقرر وأصبح أمرا محتوما، وأصبح التخلف عنه شيئا لا يليق ، وأحب أن تعلم بعد ذلك أنى لا أرى فى هذا الاحتجاج وقد اشتركت فى كتابته عمدا شيئا يمس الوزارة أو يؤذيها ، وإنما أراه تقوية لها وتأييدا لسعيها فى خدمة هذا البلد التعس. ولكنك أيها الصديق تسمع ما يقال وما أكثر ما يقال، تسمع لقوم غير ناصحين ولا صادقين، ولو سمعت للناصحين الصادقين لهانت أمور تحسبها شاقة وما هى بالشاقة.

كم أحب أن ألقاك وأن أسمع منك أقسى الحديث، وأن أتحدث إليك أرق الحديث وأعذبه ، ولكنك تعرفنى وتعرف أنى لا أريد أن أسعى إلى وزير فأرد عنه، وإن كان هذا الوزير أخى نجيب. وحسبى أنى أحسنت الظن بوزير المالية، فطلبت من سكرتيره أن يأخذ لى منه موعدا فلم يرد علىّ . وحسبى أن هذا نغص علىّ الحياة أياما، فلو قد سعيت للقائك ثم رددت عنه لبغضت إلىّ الحياة تبغيضا.

إن كنت حريصا على مودتى، مستبقيا، فمر أحد كتابك بدعوتى إليك، وإلا فلن أكلفك ما لا تحب، ولن أريك وجهى الذى قد تكرهه، ولكنى سأخلص لك دائما، وسأفى لك دائما، لأنك لا تستحق منى سوى الإخلاص والوفاء ، وسأحفظ فى قلبى جرحا داميا دائما لأن الرجل الوحيد الذى كنت أراه الصديق الوحيد قد أساء بى الظن وعاملنى كما يعامل عامة الناس.

وأحب أن تذكر هذا البيت القديم، فهو أصدق وصف لما بينك وبينى. وأنت حر فى أن تقبل علىّ أو تعرض عنى، ولكنى أريد أن تقرأ هذا الكتاب وأن تحفظه عندك، فقد تصدقه الأيام، أما البيت فأنت تعرفه، ولكن لا بأس من أن أذكرك به ، وهو:

ستقطع فى الدنيا إذا ما قطعتنى يمينك فانـــظر أى كف تبدل

طه حسين

أمليت هذا الكتاب منذ شهر كما ترى من تاريخه، ثم بلغتنى عنك هنات فلم أرسله إليك.

وأنا أرسله إليك اليوم لأن الناس أكبروا فيما يظهر أن تقع القطيعة بينك وبينى، فتحدثوا بذلك وأكثروا، وسعى بعضهم عندك، وسعى بعضهم عندى، ومشى جماعة من الأصدقاء إلى مدير الجامعة يطلبون إليه أن يجمعنا عنده وأن يصلح ما بيننا فأبى، ولكنه قبل آخر الأمر أن يمر بى ثم يسعى بى إليك فأبيت. لا لأنى أكره السعى إليك بل لأنى أكره أن يتوسط بينك وبينى ثالث مهما يكن.

ولو قد دعانا لطفى بك إلى بيته لاعتذرت ولم أجب دعوته لأنى مازلت أعتقد أن ما بينك وبينى من المودة أكرم وأصفى من أن يسعى فيه الوسطاء. وأحب أن تعلم أنى لم أرسل إليك وسيطا، ولم أرغب أحدا فى أن يترضاك، وأنى لست فى حاجة إلى أن ترضى عنى إذا لم يكن بد من وسيط لأبلغ هذا الرضى. فالذين تحدثوا إليك فى ذلك بين رجلين: متطوع للخير يسوءه أن يفسد ما بين صديقين، وفضولى يحب أن يسمع منك ومن ثم يذيع ما يسمعه بين الناس. وقد أنبئت أنك واجد علىّ لأنك تظن أنى قد عرضت بك فى مقال كتبته عن برنارد شو. أنبأنى بذلك مدير الجامعة، فأذن لى فى أن أعتقد أن ما كنت فيه من جهد وعناء قد خيل إليك أنك المعنى بكل شئ، وأنى أقسم بك وبابنى وزوجى ما فكرت فيك حين كتبت هذا المقال، ولا فكرت فى أحد من الوزراء القائمين، وما كان ينبغى لى أن أفكر فيكم، لأنى كنت أعلم من أمركم فيما يظهر مثل ما كنتم تعلمون. كنت أعلم أنكم لم تخالفوا الشعب ولم تتنكروا له، ولم تنقطع الوسائل بينكم وبينه، وإنما كنتم تظهرون الشدة وتضمرون اللين، وتخاطرون بسمعتكم، وتجدون مع ذلك فى إصلاح الأمر، واسترجاع الدستور.

كنت أعلم ذلك علم يقين، وكنت أكتمه على كل إنسان إلا على نفسى، فلم يكن ينتظر أن أتهمكم بما ظننت أنى أعرض به فى هذا المقال. ولقد كلمنى مدير الجامعة فى ذلك فلم أخف عليه أمام عبد الرحيم أنى إنما كنت أعرض بالأحرار الدستوريين وأشباههم، فاضطرب لذلك وضحك ضحك من لا يدرى كيف يقول.

أما بعد فإنى أعيد ما قلته لك فى الكتاب الذى كتبته منذ شهر وهو أنى هممت أن أسعى إليك فأبيت أن تلقانى. وأزيد على ذلك أن الناس قد تحدثوا بأنكم ستستقيلون،

فوطنت نفسى على أن أسعى إليك منفرداً، وأخذت أدبر السعى إليك مع الزملاء. يعرف ذلك مدير الجامعة وسكرتيرها العام. ثم أقمتم فى الحكم فحمدت الله وشكرت له هذه النعمة، يعرف ذلك رئيس الوفد. ولكنى لم أسع إليك لأنى لا أحب ولن أحب أن أتكلف السعى إلى الوزراء وهم يظهرون الغضب والإباء . وأنا أتمثل دائما قول الشاعر القديم:

إذا أنكرتنى بلـدة أنكرتها   خرجت مع البازى على سواد

وقد تسألنى: لم أكتب إليك ؟ فأجيبك بأنى أكتب إليك لأن غضبك يؤذينى، ولأن سوء ظنك يقض مضجعى، وأجيبك بأنى أكتب إليك لأرجو منك ألا تقبل وساطة وسيط بيننا، مهما يكن فلن أقبل هذه الوساطة. ولست فى حاجة إلى رضاك إذا لم يصدر عن قلبك عفواً. وإذا طلبت رضاك فإنى أطلب حقاً لى ولا أستجدى شيئا أحب أن تمنحنيه منحا. ومازلت أعتقد أن لى عليك حقوقا ، وإن أول هذه الحقوق ألا تظن بى السوء ولا تسمع فىَ للوشاة . وإذا رثى أحدنا لصاحبه فإنى أنا أرثى للصديق الذى يسئ الظن بصديقه ويسمع فيه كلام من لا خلاق لهم ولا غناء فيهم.

ثم أجيبك آخر الأمر بأنى أكتب إليك لأنى أحبك أكثر مما تحبنى وأكثر جدا مما تظن. ومن يدرى لعلك قد أبغضتنى إلى حد لا تسمح معه لنفسك بقراءة هذا الكتاب أو هذين الكتابين اللذين أسرفا فى الطول. وعلى كل حال فأنا أهدى إليك تحية صديقك طه. وأرجو أن ألقاك فى يوم بعيد جدا لأنه سيكون بعد استقالة الوزارة لا قبلها ، إلا أن يدعو الوزير إليه أستاذا موظفاً، فإن طاعة الوزراء واجبه. أليس كذلك.

٢٦ ديسمبر ١٩٣٥

أحب دائما الاحتياط

وحين يعود الوفد إلى الحكم فى وزارة ١٩٤٢ يشغل نجيب الهلالى وزارة المعارف، فيأتى بطه حسين معه مستشارا فنيا للوزارة ، ويضطر طه حسين فى نفس العام إلى السفر مع أسرته للمصيف، وتشغله فى سفره أمور منصبه الجديد وما تركه خلفه من أعمال يحاول أن يضع لها الحلول ، وهو لا يخفى ضيقه من عدم استشارته فى بعض الأمور بينما هو مستشار الوزارة.. فيكتب أثناء سفره من:

فلسطين أكتوبر ٤٢

أخي نجيب باشا

ليس هذا كتابا رسميا. ومع ذلك فلن أتحدث فيه إلا عن شئون العمل والوزارة، فإن اشتغالك بجلسات مجلس الوزراء وبالمقابلات التى كنا نظن أنها ستخف بعد انتهاء الدورة البرلمانية، فإذا هى تزداد كثرة وتعقيدا بأعمال الوزارة التى تختطف ما تستطيع فى النهار، وتفرغ لها حين تستطيع فى الليل.

كل ذلك لم يمكننى من أن أتحدث إليك هادئين فى أشياء لم يكن بد من التحدث إليك فيها. فلتسعد الكتب إذا لم يسعد اللقاء.

ولست أرى بأسا من أن تقرأ هذا الكتاب وعلى وجهك ابتسامة فيها كثير من السخرية ولكن فيها كثير من المودة، وكذلك أقدر ابتساماتك لكل ما يصدر عنى وإن لم أرها. فاقرأ هذا الكتاب فى الوزارة إن شئت ، أوضعه فى الحقيبة لتقرأه فى البيت إن أحببت، فإنه لا يزيد إلا أن تقرأه وكفى:

١)لم أستطع أن اقترح من ينوب عنى أثناء غيبتى لسبب بسيط وهو أنى مستشارك، وما ينبغى أن أفرض عليك أو أن اقترح عليك مستشارا . فستستغنى عن المستشار إذن أثناء غيابى، أو ستستبدل به من شئت. ولكن للمستشار أعمالا إدارية لابد من أن يصرفها مصرف، وكثير منها بسيط لا يبلغ أن يرفع إلى الوزير أو لا ينبغى أن يرفع إليه دون بحث، فيخيل إلىّ أن شفيقا يمكن أن يقوم مقامى فى تصريف هذه الأمور إن شئت. وإلا فالخير ألا تنيب عنى غيره ففى ذلك إيذاء له لسنا فى حاجة إليه.

٢)طلبت وزارة الشئون الاجتماعية الإذن لفرقتها التمثيلية بالعمل فى الأوبرا فى موعد حددته، وللفرقة ملعبها الخاص ، وكنت أريد أن أرفض الأوبرا، ولكن صلاح الدين بك ألح علىّ ، والظاهر أنه كلمك وأنك وعدته دون أن تأخذ رأى مستشارك. ولا عزاء فى هذا فلفظ المستشار يجعل رأيه ثانويا ، ولكن الأوبرا قد ارتبطت مع بعض الفرق الإنجليزية، ولا يمكن نقض هذا الارتباط، ولن تكون الأوبرا حرة قبل ١٥ نوفمبر . وقد اتفقت مع صلاح الدين بك على أن نجتهد فى إخلائها للفرقة ابتداء من يوم ١٢ نوفمبر . وسأترك التعليمات بذلك لسليمان بك نجيب، فأرجو ألا تغير هذا الاتفاق.

٣)وبمناسبة الفرقة التمثيلية علمت أن معاليكم وافقتم على أن الأستاذ محمد حسن مراقب

الفنون الجميلة مديرا للفرقة، ولم أعلم بشئ من هذا إلا مصادفة. ولكن رأيي في هذه المسائل ليس رأى المستشار فحسب. فمراقبة الفنون الجميلة تتبعني. ولو استشرتني لأشرت بغير ما تم الاتفاق عليه. ولكني أقدر أنهم طلبوا إليك ذلك حين كنت في رئاسة مجلس الوزراء يوما من الأيام فأجبت غير مكترث بالفرقة ولا بمديرها.

والأستاذ زكي طليمات مدير فني لهذه الفرقة، فعلى وزارة المعارف إذن وزر هذه الفرقة ليس غير. أليس يمكن أن تنقلهما جميعا إلى وزارة الشئون الاجتماعية لترقى بهما الفرقة التمثيلية إلى عنان السماء، وتدبر وزارة المعارف أمرها على خير مما هو مدبر الآن؟

٤)ومسألة أخرى ليست من شئون وزارة المعارف ولكنها من شئون الرئيس الأعلى للجامعة وقد تعمدت أن أتحدث إليك فيها تليفونيا صباح اليوم وعبد الوهاب عزام إلى جانبي. فالواقع أن في الكلية دعايات سخيفة، وأن شئون العمادة تأخذ دوراً غير مريح. ولست أدرى إلى أى حال تنتهي شئون الكلية. ومن المحقق أن عنايتنا بالإسكندرية لا ينبغي أن تعرض جامعة القاهرة لخطر ما. ولست أشير بشئ ولكني أتمنى لو تأخر الانتخاب إلى ما بعد العيد، ذلك أجدر أن يتيح لنا فرصة للتفكير والاحتياط للعام الدراسي . فلا ينبغي أن يكون العميد في كلية الآداب ضعيفا متهالكا ولا سخيفا مضحكا. وقد كانت هذه الكلية دائما عنوان الجامعة. ويرجى أن تظل كذلك.

وأعود بعد ذلك إلى وزارة المعارف فأذكرك بما تحدثت إليك فيه من أمر مراقبة تعليم البنات . وما أشك في أنك ستجد له دواء رفيقا رشيقا ناجعا وقد تحدث إليّ متحدثون اليوم بالتليفون زعموا أنهم من أساتذة اللغة العربية بوزارة المعارف وأبوا ذكر أسمائهم واتهموا مفتشا يعمل مع الأستاذ جاد المولى بك اسمه حمزة تهما خطيرة ولست أحب الأخذ بالشبهات ولا الاستماع للذين يجبنون فلا يذكرون أسماءهم، ولكن أحب دائما الاحتياط . وأول ما يجب من الاحتياط هو أن أظهرك على ما أعلم وقد فعلت.

أما بعد .. فإني أعلم أنك قد أذنت لي في السفر راضيا كارها معا، فأما رضاك فلأنك تحب لي ولأهلي ما ينبغي لنا من الراحة، وأما كرهك فلأن العمل كان يقتضي بقائي في هذه الأيام. وأقسم لو استطعت لبقيت ، وما أسافر رغبة في الراحة لنفسي. وراحتي آخر شئ أفكر فيه ، ولكن في الحياة أثقالا وواجبات يجب أن تحمل وأن تؤدى. ولسنا سعداء دائما باحتمال الأثقال ولا بتأدية الواجبات.

وأنا شاكر لك على كل حال إذنك لى بالسفر، معتذر إليك من هذا السفر نفسه ، مؤمل أن لا تجد فى العمل مشقة أكثر مما تجد، واثق بأن من الغياب ما قد لا يخلو من خير. ومن يدرى لعل من الخير أن يستريح الوزير من مستشاره أياما. فأرح نفسك من هذا الثقل على الأقل، واحتمل ثقل السيجارة والقهوة والموظفين والمقابلات.

وتقبل أصدق تحيتى وأخلص مودتى.

لا تيأس

ويأسى طه حسين لما آلت إليه الأحوال بعد أن ترك ووزيره الوزارة لينهدم كل ما حاولا بناءه معاً ولكنه مع ذلك يحاول أن يتسلح بالأمل فى مستقبل يراه أفضل ، وهكذا يكتب إلى نجيب باشا الهلالى فيقول:

سيدى صاحب المعالى

أشكر لمعاليك هذين الكتابين الكريمين اللذين تلقيت أحدهما منذ أسابيع وتلقيت ثانيهما اليوم، وإنى لأشعر بشئ كثير من الخجل لهذا الصمت الطويل الذى لزمته وكان من الحق علىّ أن اكتب إلى معاليك وأن أكثر الكتابة . وليس الذى منعنى من ذلك كثرة العمل، فما كان العمل ليمنعنى من أن أؤدى واجبا عزيزا علىّ محببا إلى نفسى ، وهو واجب التحدث إليك ، وإنما منعنى من الكتابة إليك ما نحن فيه من سوء الحال واضطراب الأمر وفساد الجو المعنوى. وأحب أن تفهم هذه الألفاظ على معانيها الحقيقية.

فلو كنت فى مصر لرأيت الناس جميعا وقد سئموا الحياة، وضاقوا بها وغلبت الحدة على أخلاقهم وأمزجتهم، فهم سراع إلى الغضب والشك، يسيئون الظن فى الحق وبالباطل . ولو كنت فى مصر لرأيت ما أبرمناه فى السنة الماضية ينقض فى هذه السنة. فقد تحول معهد الآثار الإسلامية الذى تفضلت بإنشائه فى السنة الماضية إلى وظيفة يكسب منها الكابتن كرسويل، خمسمائة جنيه فى السنة، واستغنى عن "تراس" و"موتى" لأن الدولة فى حاجة إلى الاقتصاد. وعدلت الحكومة أيضا عما تفضلت بتقريره فى السنة الماضية من وجوب العناية باللغات الحية لأن الدولة فى حاجة إلى الاقتصاد ، وأنت تعرف معهد التمثيل وما أصابه، وتعرف أن الوزارة عدلت عما كنت قررته فى السنة الماضية من قبول الفتيات فى معهد التربية . فأما دخائل وزارة المعارف نفسها فلا أذكر لك عنه شيئا لأن حديثه طويل ثقيل،

كما أني لا أذكر شيئا عن فساد الخلق في وزارة المعارف وفي الجامعة نفسها، وتحول الناس إلى نوع من التجسس أقل ما يوصف به أنك لو شهدته لازدريت مواطنيك، ولملأت نفسك لهم احتقارا، واستصغارا لهذا كله لم أكتب إليك لأني أعرف أنك راض عن حياتك في أوربا، ومن القسوة أن أنغص عليك هذا الرضى بأحاديثنا البغيضة وحياتنا المملة الثقيلة. وأنا أعرف أنك تقرأ الصحف وتفهم بين سطورها كثيراً من الأشياء ، ولكن الصحف مهما تكن لا تصور حياتنا كما هي. ولعلي لا أغلو إذا أكدت لك أني لم أر مصر في يوم من الأيام سمجة بغيضة تملأ النفس ثورة وإشفاقا في وقت واحد كما أراها الآن...)

(... ولكن أحب ألا تيأس من أصدقائك ، وأن تعتقد أن ما بدأته في السنة الماضية إن وقف الآن فسيستأنف سيره غدا؟ وإن أصدقاءك الذين وثقت بهم أكثر شجاعة وأعظم قوة من أن ييأسوا أو يضعفوا أو يستكينوا، ولئن كرهنا فإنا لنبتسم للمستقبل ، فكن مثلنا محبا لمصر مشفقا عليها واثقا بسعادتها وبأن مستقبلها سيكون خيرا من حاضرها كما أن حاضرها خير من ماضيها".

بفارغ الصبر

ويكتب الهلالي باشا إلى طه حسين، وهي من المرات القليلة التي يكتب إليه فيها ليخبره بأحواله التي ساءت مع آلام الأسنان وآلام الأصدقاء الذين ظهروا على حقيقتهم، ويشير إلى بعض جهوده لاستخلاص حقوق طه حسين من مجلة الكاتب المصرى ، التي استقال من رئاسة تحريرها بعد اتهامها بأن مموليها صهاينة، وتلك قصة أخرى. يقول الهلالي:

١٦ شارع الماريشال اللنبي بمصطفى باشا بالرمل

أخي وعزيزي طه

وصلني خطابك منذ مدة وقد عاقني عن الرد عليك مرض شديد أصابني في الأسنان منذ شهر، وترتب عليه خراج كبير أتعبني فتحه وما يزال المرض باقيا، وخلع الأسنان مستمراً بعضها في إثر بعض.

وقد تأثرت بخطابك أيما تأثر ولكن أملي في طه أن يصمد للأحزان والمشاق وأن يؤمن بأنه كان وسيكون دائما غرضا لهذا الزمن وأهله.

وإن سألتني عن حالي فاعلم أنه لا يختلف عن حالك ، فإني أجتاز أزمة معنوية شديدة

الأثر فى نفسى، وكم كنت أحب أن تكون بجوارى لتخفف عنى بعض بلواى، ولتعيننى فى أمرى . وإن أخوانك ليطمئنون عليك كلما قرأوا لك فى الأهرام مقالات ممتعة يرقبونها بفارغ الصبر.

وأما من جهة المحامى ليتون. (محامى ريموند هرارى صاحب مجلة - الكاتب المصرى-) فلم يحضر إلىّ للآن خلافا للاتفاق ، وقد كتبت لرؤوف ليمر عليه بمصر ويستوضحه الحال، فإن لم يحضر فى القريب العاجل كتبت إلى الشركة من جديد مسجلا عليها ذلك وموعدا باتخاذ إجراء قضائى.

لعل مدام طه على ما أرجو صحة ومزاجا، كما أرجو أن تبلغها احترامى وتحيتى. بلغ سلامى للسيد مؤنس وزدنى من أخباره كما أرجو أن تبلغ سلامى وتحيتى للأستاذ فريد (سكرتير طه).

ودمت للمخلص

أحمد نجيب الهلالى

المتفيقهون

ويبدو أن ظروف طه حسين والهلالى فى تلك الفترة كانت متشابهة فى السوء ، ويحاول طه أن يلقى فى نفس صديقه روحا من الصبر من نفسه التى احتملت كثيراً من الآلام، مستعينا بآيات قرآنية، وأبيات شعرية، ومواقف تاريخية ، فيقول :

أخى العزيز:

"... وددت لو استطعت أن احتمل عنك ما لقيت وما تلقى من الجهد كله أو بعضه ولكن هيهات، ما أكثر ما نريد وما أقل ما نستطيع. وأنا أتمنى على الله أن تكون قد برئت من علتك وظفرت بحظ وافر من راحة".

"وقد أنبأتنى أنك تلقى أزمة معنوية حادة ، فهون عليك ، فليس فى حياة الناس ما يستحق أن يعرضك لأزمة معنوية عسيرة أو يسيرة.

"واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون، إن الله مع الذين آمنوا والذين هم متقون". ولعلى قد رويت لك الآية على وجهها، والمصحف قريب منك فاقرأ الآية فى آخر سورة النحل إن شاء الله.

أما أنا فقد انتابتني غمرة من غمرات السخط والضيق كدت أفقد لها ما عودت النـاس من صبر واحتمال، وأكبر الظن أن الأعصاب كانت مجهودة مكدودة، فتلقت هذه العـوارض بشئ من الضعف.

وكان قائد من كبار قواد معاوية يرابط بجيشه عند حدود الروم يغير ويغار عليه، وكـان إذا دارت عليه دوائر الحرب أحيانا، لا يضعف ولا يهن، وإنما يقول:
الغمرات ثم ينجلينه.

فقل مثله ولأقل أنا مثله أيضا: الغمرات ثم ينجلينه.

أما زوجي فصامدة للحياة معينة على أحداثها مفرجة بعض كروبها معتدلة المزاج، تـرى ولها الحق كل الحق فيما ترى أن الحياة قد أتاحت لنـا خـيرا كثـيرا وامتحننـا بقليـل مـن شـر، فلنعرف للأيام حسن بلائها عندنا، ولنجاهد حتى نكون أكفاء لما لقينا من الخير ولمـا احتملنـا من الامتحان، والعاقبة للصابرين.

وأمـا مؤنـس فقـد أخطـأه الحـظ كمـا أخطأنـا فـي هـذا العـام فـأخفق فـي مسـابقة الأجريجاسيون، (درجة علمية فرنسية تسبق الدكتوراه) لا فـي اللاتينيـة ولا فـي اليونانيـة ، اللتين كان يخشاهما، ولكن في الفرنسية التي كان يطمئن إليها، ومن مأمنه يؤتى الحذر، كما يقول المثل القديم. ولكنه والحمد لله فتى شجاع لم يضعـف ولم يهـن، وإنمـا قـال كمـا يقـول أبوه: الغمرات ثم ينجلينه..." "... هـذه جملـة أخبارنـا وهـي كمـا تـرى ليسـت مشـرقة ولا متألقة، كما أن أخبارك ليست مشرقة ولا متألقة، وكما أن الدنيـا كلهـا ليسـت مشـرقة ولا متألقة. وقد لقيت كثيرا من الناس تختلـف أجناسـهم وطبقـاتهم وصناعـاتهم فلـم أجـد منهـم رجلا واحدا مشرق النفس متألقها. والناس مع ذلك يمضون كمـا تعـودوا أن يمضـوا سـاهين لاهين. فلنمض معهم كما تعودنا أن نمضي غير ساهين ولا لاهين ، وإنما نعرف الحـق ونحتمـل أثقاله، ونعرف الواجب وننهض بأعبائه ما وجدنا إلى ذلك سبيلا، فأمـا مـا يكـون بعـد ذلـك فعلمه عند الله وأمره إليه. واقرأ معي قول أبي تمام ، ولا تسخر على طريقتك من فعـل جـاء فيه آخره السين بعد الراء المشددة، وتوشـك أنـت فـي بعـض عبثـك أن تجعـل السـين صـادا فتكون الكارثة. أما شعر أبي تمام فهو:

وركب كأطراف الأسنة عرسـوا على مثلها والليل تسطو غياهبه

لأمر عليهم أن تتم صـدوره وليـس عليهم أن تتم عـواقبه

"... وإني لأخشى أن أكون من الذين كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول فيهـم: ألا

أخبركم بأبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجالسا يوم القيامة: الثرثارون المتفيقهون"

وأنا أتمنى أن يجدك كتابى على أحسن ما أتمنى لك من راحة الجسم والقلب والعقل. فأما راحة الضمير فحظك منها موفور.

وأنا أهدى إليك تحيتنا كأصدق ما تكون التحية، ووددت لو أحملها بعض ما يهدى النسيم إلينا من هذا الأريج الذى تستريح إليه الأجسام والنفوس جميعا.

طه حسين

خاص جدا

من سهير القلماوى إلى طه حسين

بدأت علاقة سهير القلماوى بطه حسين بعد أزمة حادة مع العميد الإنجليزى لكلية العلوم فقد حكت لى فى نوفمبر ١٩٨٨ فى حديث لم ينشر بعد ، كيف أن هذا العميد أطاح بأحلامها لدخول كلية الطب حيث كان من الضرورى أن تقضى السنة التمهيدية للطب فى كلية العلوم ولما كانت سهير فتاة والفتيات ممنوعات من دخول الجامعة آنذاك فضلا عن أن شهادتها الثانوية لم تكن مصرية فقد كانت خريجة مدرسة الأمريكان الثانوية للبنات" - كلية رمسيس الآن - ورغم توسيط سهير القلماوى لمدير الجامعة أحمد لطفى السيد الذى وعدها بعرض أمرها على مجلس الجامعة إلا أن عميد كلية العلوم هدد فى اجتماع المجلس بالاستقالة إذا وافقوا على قبولها فى كلية "العلوم" ، ولم ينقذ سهير من اليأس إلا أحد أقاربها الذى ذهب بها إلى طه حسين الذى اصطدم باللائحة التى تقول "يدخل كلية الآداب قسم اللغة العربية الحاصل على البكالوريا أو ما يعادلها" وكان لطه حسين قدرة فائقة على تفسير النصوص واللوائح بمنطق مقبول ومعقول، فالحاصل على البكالوريا يدخل فيها الطالب والطالبة ، و"البكالوريا وما يعادلها" تنطبق على الثانوية التى حصلت عليها سهير من مدرسة أمريكية، وفى الوقت الذى دخلت به سهير من باب اللائحة بتفسير طه حسين فقد دخلت أيضا من باب المغامرة التى أقدم عليها طه بالاتفاق مع مدير الجامعة أحمد لطفى السيد، بالسماح بدخول الفتيات الجامعة من وراء ظهر الحكومة ومن وراء ظهر تقاليد المجتمع التى لا تسمح بذلك ، ليكتشف الجميع الحقيقة بينما فتيات الجامعة على أبواب التخرج، ولم تدخل قسم اللغة العربية فتاة بعد سهير القلماوى إلا بعد حصولها على الليسانس، وأثناء امتحانها فى الليسانس سألها طه حسين عن معنى كلمتى "الويل والثبور" .. فقالت له : إننى أستطيع أن أعرف معنى "الويل" أما كلمة "الثبور" فلا أعرفها. فقال لها ساخراً: لماذا يا هانم لا تعرفينها ألم تقرئى "ألف ليلة وليلة" ؟! وطلب منها قراءتها وقال لها : إنها ستكون موضوع رسالتك للدكتوراة . وقد سافرت إلى فرنسا وانجلترا للبحث والدراسة مع المستشرقين وفى المكتبات لجمع مادتها العلمية عن "ألف ليلة وليلة"، وفى أثناء رحلة البحث لم تنقطع صلتها بطه حسين من خلال الرسائل التى كانت أسلوبا للحوار بين التلميذة وأستاذها من قبل سفرها وأثناء سفرها وبعد

عودتها من السفر .. وقبل الدخول إلى نشر هذه الرسائل ينبغى الإجابة عن سؤال أراه ضروريا وهاما وهو : كيف وصلتنى هذه الرسائل؟

وقد تأخرت الإجابة على هذا السؤال بأكثر مما يجب خاصة بعد الضجة التى أثيرت حول[1] كتابى "أوراق مجهولة للدكتور طه حسين" منذ حوالى سنتين والتى نشرت فيها لأول مرة خطابات متبادلة بين طه حسين والرئيس أنور السادات مما دعا إلى التساؤل : من أين للمؤلف بهذه الخطابات ، ثم تكرر السؤال مع ظهور كتابى "أيام العمر.. رسائل خاصة بين طه حسين وتوفيق الحكيم"، وزادت حدة السؤال بعد نشرى للخطابات الخاصة بين النحاس باشا وطه حسين على صفحات مجلة الإذاعة والتليفزيون ، وترجع قصة حصولى على أوراق طه حسين إلى عدة سنوات مضت عندما تمنيت أن أعيش عصر طه حسين ، ولما كان ذلك مستحيلاً بحكم الواقع فقد رأيته ممكنا بمعايشة تلاميذ طه حسين الذين التقيت بهم ليصوروا لى حياتهم معه، ومنهم "سهير القلماوى، ود. الزيات، وقبل التلاميذ كانت توجد أسرة طه حسين – حفيدتيه سوسن ومنى، وكانت "منى" هى التى تحتفظ بأوراق جدها طه حسين ورحبت بى بعد أن اطلعت على مؤلفاتى لتعهد إلىّ بنشر تراث طه حسين ماعدا ما يسئ إليه وأسرته، ويشمل هذا التراث العام منه والخاص حتى إيصالات الكهرباء ، وإيصالات تبرع طه حسين للجمعيات الخيرية ، والمجهود الحربى، ومعونة الشتاء، وعقود القصص التى تحولت إلى السينما، وكراسة محاضرات أهداها أحد تلامذة طه حسين إليه سجل فيها محاضرات أستاذه، هذا فضلا عن محاضرات أخرى مكملة لما نشر فى "الشعر الجاهلى"، وغيرها من الأوراق التى تصور حياة طه حسين كأدق ما يكون التصوير، ونختار من أوراقه فى ذكراه تحية له ولذكرى تلميذته، خطابات د. سهير القلماوى إليه"، وأهميتها تكمن من أنها تحكى تجربة أول فتاة مصرية تغادر الحدود من أجل بحث علمى، فضلا عن أنها من أولى الفتيات اللاتى دخلن الجامعة، وأول امرأة تحصل على الدكتوراة فى الآداب وأول أستاذة فى قسم اللغة العربية وأول رئيسة لهذا القسم، ليس هذا فقط بل ارتبطت التلميذة بالأستاذ بعلاقة اجتماعية فكان شاهدا على عقد زواجها، ولكن أهمية هذه الرسائل أيضا رغم لغتها العربية غير المحكمة وبساطتها التى لا ترقى إلى مستوى الرسائل الأدبية، تكمن فى أن نشرها الآن حسم جدلا ثار فى وقت قريب حول نوعية العلاقة بين طه حسين وتلميذته وهل تجاوزت تلك العلاقة مجرد كونها خطابات من تلميذة إلى أستاذها؟

سنترك الخطابات لتجيب على كل الأسئلة قطعا للشك باليقين.

---

(١) "المصور" ٢٩ أكتوبر ١٩٩٩.

أقلـــدك

الرسالة الأولى قبل سفر سهير القلماوى وفيها تكشف عن صفة رأت أنها مشتركة بينها وبين أستاذها طه حسين وهى كتابة المحاضرات فى آخر لحظة! ذلك رغم أن د. سهير فـى حديثهـا معى عن طه حسين تشيد بحرصه على مذاكـرة محاضراتـه التى ألقاهـا كثيرا مـن قبـل، وكـان ينصحهـا "بإعادة قراءة المادة التى تحاضر فيها باستمرار على ضوء تغير القيم وما أنتِ فيـه الآن فـلا تدخلى الدرس قبل التحضـير لـه" ولا يمكن لصـاحب هـذه النظـرة أن يكـون مـن أنصـار الذيـن يقومـون بالتحضير لأعمالهم فى اللحظة الأخيرة وإلا ما كان طه حسين هو عميد الأدب العربـى، على أيـة حال لنقرأ الرسالة المكتوبة بتاريخ ٨ سبتمبر ١٩٣٥.

أستاذى العزيز

كنت أحب لك أن نقضى هذا الصيف فى راحة تامة لا يعكر صفوهـا كتـاب تكتبـه أو جواب تقرأه منى، ولكن أردت أن تتقى غضبى فكتبت، وأحببت أن أعلمك أنى لا يمكن أن أغضب من عمل كهذا فأجبت. وكيف أغضب وأنا أشد الناس كسـلاً فـى كتابـة الخطابـات وأنا أشد الناس تقديراً لأيام الراحة تلك التى يختطفها الإنسان خطفاً ويود فيها لو استراح من كل شئ حتى من نفسه إن استطاع.

تسألنى هل شق علىّ الصيف فى مصر وأى شئ لا يشق علىّ فى مصر وخاصة فى هذه الآونة التى تقوم فيها الأمم جميعا وتقعد ونحن وزعماؤنا كأننا فى دنيا أخـرى . كأننا نتحـدى العالم كله بلهونا وطمئنينتنا .

أخاف أن أكتب مثلك فصلاً أدبيا، وأنا أحـب أن أوفـر جهـدى لأكتـب الآن محـاضرة للراديو طال عليها التأخير، فلعل أكـثر مـا أقلـدك فيـه وأتقـن تقليـده هـو كتابـة المحاضرات والفصول فى آخر ميعاد بل فى آخر لحظة.

لنا حديث سيطول بلاشك عن الجامعة والأدب ، أرجئه إلى أن تعود، وأما الآن فـأرجو أن ترفع احترامى وسلامى إلى السيدة الجليلـة وإلى "جيجيـت وكلـود" وأن تقبـل منـى ومـن والدتى وأخى وراجية وخالى سامى أخلص تحية وأصدق احـترام. وإلى اللقـاء القريـب إنشـاء الله.

سهير القلماوى

وحينما تسافر سهير القلماوى إلى باريس يصيبها الضجر وتتعجل العودة، وسوف يتكرر ذلك المعنى فى معظم رسائلها بعد ذلك، رغم أنها كانت تتعجل البعثة وطه حسين يردها عنها بعد حصولها على الليسانس لكى تستكمل أدوات البحث لحين حصولها على الماجستير فى "أدب الخوارج" بتوجيه من طه حسين على وعد منه أن تذهب بعدها إلى فرنسا لمدة أربع سنوات، ولكنها لم تمكث إلا سنتين بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية التى اضطرتها للعودة مما اتفق مع رغبتها فى العودة سريعا، تقول سهير القلماوى من:

باريس فى ٥ إبريل ١٩٣٨

أستاذى الكريم

لنا زمن لم نلتق على صفحات خطاب، فياترى ما هى أخبارك وكيف حالك وحال أسرتك التى أرجولك ولها كل السعادة والصحة.

كنت أعزم كثيراً على أن أكتب إليك ولكنى كنت أقول دائما وأى جديد سأخبره به ؟ وما أحسن أن يسكت المرء عندما يجد أن الكلام سيكون معادا مكررا. كنت أريد على الأقل أن أطمئن على أخبارك ولكن الوسيلة الوحيدة لذلك فيما تعلمت أخيراً أن أسأل الغير عنها فيجيب .

سأسافر غدا صباحا إلى بروكسل ومنها إلى برلين لقضاء عشرة أيام ثم أعود إلى باريس آخر هذا الشهر . وسترى من ذلك مبلغ تقدم تلميذتك فى مسألة الأسفار، فقد كنت أحجم منذ شهور عن السفر إلى بلد أعرف لغته فها أنا ذا أقدم على السفر إلى بلد أجهل لغتها، ولا تصحبنى إلا صديقة لى، بثينة الغمراوى، تعتمد علىّ أكثر مما اعتمد عليها بل الواقع أنها معتمدة علىّ تماما. فما رأيك فى كل هذا التقدم يا ترى وهلا أحسست أثرك فيه فما أنا إلا تلميذتك.

أرجو أن تكون أعمال آخر العام وكثرتها وتنوعها غير مرهقة لك ولا متطلبة كل وقتك. كما أرجو أن تنتهى منها عاجلا حتى تتمكن من المجئ إلى باريس فى أوائل الصيف أو أواخره لست أدرى لأنى أريد أن أراك فى باريس عند وصولك إليها ولست أعرف موعد مجيئك وأكبر ظنى أنك لا تعرف أنت أيضا.

لم أتعود أن أطلب منك شيئا كتابة ولكن ما السبيل وبيننا بحر وسفر أيام. أحب أن أفصل من البعثة فى أوائل يونيو وأن يلتحق نجيب بها من الصيف حتى يتمكن هو من المجئ هنا صيفا فيعتاد الطقس والأهل واللغة ويبدأ عمله أول العام غير محتمل لكل هذه المشاق. فهل لى أن أطمع فى هذا. إذا كان لابد أن أبين الأسباب فهى بكل صراحة أنى لا أريد البقاء هنا أكثر من آخر سبتمبر وليس هناك أى داع أن أظل محسوبة على البعثة صيفا دون أى عمل ما دمت سأعود متى بدأ العمل إلى مصر. أليس هذا عدلا وحقا. فإذا أردت أسبابا أكثر إقناعا إداريا فإن الأستاذ "دى منبين" الذى جئت من أجله أولا مريض قد اعتزل العمل فى السوربون وهو لا يقوى على أى عمل ولا أجرؤ أن أطلب منه أى مساعدة لأنه لا يستطيعها لا لمرضه فحسب بل لبعده عما أنا فيه كما أسلفت لك.

كلى أمل أن أراك فى الصيف فنتحدث طويلا عما أريد حقا أن أكلمك فيه فهل يا ترى ستسمح لنا الظروف بذلك. أرجو ذلك كما أرجوك أن تقبل منى احترامى وإخلاصى وأن تبلغ السيدة الكريمة حبى وودى وأن تبلغ كريميك أطيب تمنياتى لهما أن يهبهما الله السعادة والصحة أولا وأن ينجحا فى امتحاناتهما أشرف نجاح وأحسنه ثانيا.

تلميذتك

سهير القلماوى

التفاهم بلغتين

ومن لندن كتبت إلى طه حسين تتحدث عن الصعوبات التى لاقتها هناك فتقول:

لندن فى ١٨ أغسطس ١٩٣٨

أستاذى الكريم:

وصلت أول أمس إلى اكسفورد بعد أن قضيت بها نحواً من أسبوع أرى كلياتها ومكاتبها وأبحث عن ألف ليلة وليلة فى مكتبة "البودليان" أتريد أن تعرف أثر هذه الرحلة فى نفسى. إذاً (هكذا كتبت كلمة إذن) فاسمع. المكتبة فى منتهى القدم والبلى و... أظن أنى لا أجد الكلمة التى تعبر عما شاهدته بها من عنكبوت ، وغرفة المطالعة توحى الموت أكثر مما توحى أى شئ آخر. على كل حال لم أجد بها أكثر مما كنت أنتظر.

وبدأت أمس المرور على ما فى مكتبة المتحف البريطانى وكان أول وجه مألوف رأيته

هناك وجه الكابتن "كرسويل" وقد جلس أمامى ينظر إلىّ كالأرنبْ الخائف لأنه فيما يظهر قد صور له ذكاؤه أنه رآنى من قبل وإلى الآن لم أجد فى فهارس المتحف من الكتب المطبوعة أكثر مما رأيت فى مكتبة اللغات الشرقية هنا، أما المخطوطات فعبارة عن نسخ حديثة نسبيا من ألف ليلة وليلة . وكفى الله المؤمنين القتال.

كل الذى يعزينى فى أمر هذا البحث أنى أعمل قدر المستطاع واجبا قد ألقى علىّ وقبلته لأسباب أخرى.

ترى إلى أين وصلت أنت فى أبى العلاء وماذا كان من أثره فيك. أرجو ألا يكون قد بلغ بك الإذعان لأمر القدر إلى درجة أنك لا تريد أن ترانى لأنى سأذيع محاضرة يوم الثلاثاء ٢٣ أغسطس ثم أسافر بعدها فى أقرب فرصة إلى باريس لأراك رغم حرصك على أن أمضى عقدى مع محطة الإذاعة.

هل لى أن أطمع فى أنك ترسل لى عنوانك فى باريس فى أقرب فرصة أم أنى إذا سألت عنك فى بنك مصر أصل إليك فى سهولة.

إلى لقاء قريب إنشاء الله وأرجو أن ترفع احترامى وودى إلى السيدة الفاضلة وأن تهدى ولديك أزكى سلامى.

مع أطيب تمنياتى وأخلص ودى

سهير القلماوى

وفى رحلة العودة إلى باريس عن طريق البحر تكتب عن رفقاء الرحلة المزعجين ما بين مستظرف ومستخف لدمه فتكتب:

الاثنين ظهراً ٣٨/١٢/١٢

أستاذى العزيز

أنتهز هذه الفرصة فرصة هدوء البحر قرب برنديزى لأكتب لك فمن يدرى ما الذى ينويه هذا البحر بعد ساعة.

إنه لم يهدأ إلا ساعات محدودات ، وأمس (الأحد) من الساعة الثالثة ظهراً إلى نحو نصف الليل كان فى غاية الفظاعة . كل العزاء أنه لم يبق إلا يوم أو أقل قليلاً وتنتهى رحلة البحر، أما رحلة البر فلست أدرى ماذا تخبئ لى ، على كل حال "ربنا موجود".

سأصل إنشاء (هكذا كتبت: إن شاء) الله إلى فينيسيا غدا ظهراً (الثلاثاء) وسآخذ أول قطار إلى باريس والظاهر أنه سيكون الساعة السابعة والنصف مساء، وعلى ذلك فعندى سبع ساعات أرى فيها فينيسيا وهى أحسن من لا شئ.

المركب أنت أدرى بها . وأما أهلها فهم قلة من مختلف الأصناف. وكانت تجلس معى على مائدة الطعام سيدة أرمنية تعيش فى طهران وهى متزوجة من فرنسا، وهى فى طريقها إلى روما لتشهد حفلات الأعياد فيها، وستسافر إلى باريس فى أواخر يناير.

وقد تواعدنا على اللقاء بها ولست أعرف إن كان البحر يمحو وعود البحر ؟ على أى حال حبذا لو فعل لى ولها . وكان من أيادى هذه السيدة البيضاء علىّ أنها عرفتنى بشاب عراقى يسير فى نفس الطريق الذى سآخذه فقالت ليكون رفيقا لك فى السفر. كدت أقول لها : أن أسافر وحدى خير لى . ولكن الشاب كان واقفا أمامى متظرفا إلى أقصى حد. عسى أن يكون فى فينسيا متسعا للخلاص من رفقاء السفر. أكبر الظن أنه سيكون ميسوراً. وهذا شامى مسافر إلى "ليون" يستخف نفسه ودمه إلى أقصى حد، والظاهر أنه تاجر وقد انضم إلينا لأنه يعرف هذه السيدة الأرمنية من أين لست أدرى.

أهم صديقة لى على ظهر هذه الباخرة هى خادم الغرفة. ألمانية فيهاكثير من غفلة الألمان وبساطتهم. ولما كنت فى فراشى يومين متتالين فقد كانت تأتى لتسأل عنى ولتغرينى بالطعام مدعية أنه أحسن دواء لمرض البحر، وهى تتكلم قليلا من الإنجليزية وأقل من ذلك من الفرنسية، فباللغتين مجتمعتين نتفاهم تفاهما تاماً.

مالك وهذه "الدوشة" ! إن هى إلا نماذج مما يمر علىّ فى حياة البحر لعل فيها شيئا يعجبك، والآن إلى اللقاء فى خطاب طويل من باريس إنشاء الله. أملى أن يصلك هذا وأنت فى أتم صحة وأوفر سعادة وسلامى وتحياتى أرفعها إلى السيدة الكريمة وإلى أمينة وكلود.

سهير القلماوى

لست أفهم الديوانى

وتواصل سهير القلماوى حديثها إلى أستاذها طه حسين عن بعض متاعبها فى البعثة، وتؤكد نظرتها التى لازمتها طوال حياتها عن عدم اعترافها بشئ اسمه المرأة والرجل فالكل سواسية وكلاهما إنسان ، ولذلك تنظر بسخف إلى سخافة كتاب عن "حركة النهضة النسائية" تقول فى خطابها:

الثلاثاء ١٩٣٨/١٢/٢٠

أستاذى الكريم

أكتب لك هذا من تريانون حيث كان ينزل الأستاذ أحمد أمين هذا الصيف. وقد جئت إليه مؤقتا حتى أتفق مع السيدة التى كنت عندها ولكن البرد القاسى منعنى من أن أغادر غرفتى وأخيرا كلمتها اليوم بالتليفون واتفقنا على "العزال" غداً . وفقنا الله .

كان أمس واليوم من أفظع ما رأيت من البرد فالحرارة نحو ١٥ أو ١٨ درجة تحت الصفر والهواء قاس يلفح الوجه ويكاد يدميه حقا لا خيالا كما كان يقول شعراء العرب ، وعلى ذلك قررت عدم الخروج من الغرفة إطلاقا مهما يكن السبب، وكان المسيو مرسييه أعطانى كتابا قال عنه إنه سخيف وهو فعلا سخيف عن "حركة النهضة النسائية" لأستاذ اسمه أو اسمها "أولبزيو" وها أنا قابعة جنب المدفأة أقرأ وأقرأ.

محاضرات المسيو مرسييه (وقد حضرت منها أربعا إلى الآن) عبارة عن تابلوهات صور للمرأة فى ألف ليلة ، فصورة للعجوز فى "ألف ليلة" وأخرى للفتاة فيها وثالثة للأم وهكذا ، وهو يستعين بالنصوص كثيراً لرسم هذه الصور بالطبع. لا أستطيع أن أحكم إلى الآن ولكن الظاهر أنها ستكون مسلية إن لم تكن مفيدة. وقد كلفنى أن ألقى درساً عن الأخت فى ألف ليلة محتجا بأنى قرأت فى الموضوع أكثر منه، وبعد أخذ ورد لأنى كنت أوثر أن أوفر هذا الوقت لبحثى الشخصى قبلت هذا العرض على أن يكون بعد العيد على الأقل إن لم يكن بعد ذلك أيضا.

أما محاضرات الأدب المقارن فقد شاء الحظ السعيد أن يظهر فى صدرها متجليا كعادته فإذا المسيو "كاريه" مريض لست أدرى بأى شئ ، والذى يدرس مكان أستاذ (.........) أهيب بحظى السعيد أن ينزوى قليلاً فى هذا الموضوع عسى أن يكون الأستاذ عظيما.

لم أعمل أكثر من أن حضرت دروس المسيو مرسييه يومى الجمعة والسبت. وقد ذهبت أمس صباحا إلى الديوانى بك لأسلم عليه ولأعطيه شهادتى: الماجستير التائهة بعد أن أحضرتها معى من مصر كى يرسلها إلحاقا بطلب كنت قدمته إلى السوربون أن يسمحوا لى بتقديم الدكتوراه دون الحصول على شهادات فرنسية. والطلب قدم فى مارس الماضى والرد إلى الآن لا أعرف أين هو ولا ما هو . لقد وعدنى الديوانى بك خيراً فى صدده وهو إن يكن غير مهم إطلاقا إلا أنه شكل لابد أن يستكمل ، وكنت أحب أن أفرغ منه.

وكان الديوانى بك معى فى منتهى الظرف إلا أنه استاء فجأة لما علم أنى لم أمر على

إدارة البعثات ..." ولو مرة واحدة . ولما قلت له أنه ليس لى أى عمل هناك قال لا. كان يجب على الأقل أن نسوى حسابك معهم قبل مجيئك فقلت له إن الحساب يسوى فى أى وقت . وعلى أى حال فقال : وماذا قال الدكتور طه ؟ فقلت: وما شأن الدكتور طه فى الموضوع. إن كان هناك خطأ فأنا التى أخطأت وأنا مستعدة لتحمل مسئولية هذا الخطأ مهما تكن . فإذا هو فجأة أمام حماستى التى لا أرى الآن لها أى سبب ، فإذا هو يتفجر ظرفا قائلاً : لا لا المسألة أبسط من هذا. كدت أقول ولما هى أبسط من هذا ففيم إذن كان كل هذا الاستياء. على كل حال لست أفهم الدكتور الديوانى إلى الآن وأكبر ظنى أنى لن أفهمه. وهذه المسألة فى نظرى أنا أيضا أبسط من كل هذا!.

عسى ألا تكون مرهقا وأن تكون صحتك وأخبارك كلها فرح وسعادة. سلامى إلى أسرتك الكريمة.

سهـــير

فلتغـــفر لى

وتتحدث سهير القلماوى عن متاعبها فى المسكن وتراها "تجربـة مضحكـة"، وتتناول رحلتها مع أساتذتها الفرنسيين وتشير إلى كتاب بالفرنسية أراد طه حسين أن يكتب مثله عنه أو عن أسرته باللغة العربية، والتفاصيل فى رسالتها التى كتبتها من باريس فى :

٣١ يناير ١٩٣٩

أستاذى الكريم

أبدأ بتهنئتك بالعيد . فهذا أول يوم له عندنا ولست أعرف ماذا يكون عندكم لأن أهلى كتبوا إلىّ أنه أمس. على أية حال هذا لا يخفف شيئا من حرارة التهنئة والدعوات لك بما أنت به أعرف.

أما بعد .. فلك أن تضحك منى ما شئت فى هذا الخطاب لأنى مررت الأسبوع الماضى بتجربة مضحكة أغاظتنى فى أول الأمر وأضحكتنى آخره. فقد طفت الحى اللاتينى وما حوله من أحياء أربعة بحثا عن أسرة تأوى الذين لا مأوى لهم فى باريس، وبعد بحث أسبوع وتحريات وأسئلة وفقت إلى أسرة كل ظاهرها مغر جميل، وحزمت المتاع ونزلت فى الأسرة العزيزة، وإذا أنا لا أطيقها أكثر من أسبوع وإذا أنا أحزم أمتعتى من جديد وإلى الفندق ثانية . وكانت غرفتى أجرت بالطبع أثناء الرحلة السعيدة، وها أنا ذى فى غرفة مؤقتة من هذا

الجناح حتى تفرغ إلىّ غرفة من الجناح الآخر حيث الهدوء والاستقرار . لست أقص عليك شيئا من ضوضاء الأسرة واقتصادها الشديد فى التدفئة والأكل وحتى الماء. ولكن يكفى أن تعرف أنى أثناء "المعاينة" وجدت ساحة واسعة تحت نافذتى أو شرفتى ففرحت بها لأنها تنير الغرفة بينما هى بعيدة عن ضوضاء الشارع . أتعرف ماذا انتهت إليه هذه الساحة – هى لأربع مدارس مقسمة أربعة أقسام، و"الفسح" بين الدروس فيها لا تنقضى من الثامنة صباحا إلى الرابعة بعد الظهر.

وفى حماس "القرف" ذهبت إلى الديوانى بك ورجوته أن يجد لى حلاً فى مسألة السكن، فوعد أن يعلن فى الجرائد عن هذا . فطبعا لم أستطع إلا أن استبشر خيراً وأشكره.

ولقد حبب إلىّ الديوانى بك سكن الجناح الثانى من "تريانون" فهو كبنسيون تماما لأن الأكل فى مطعم الفندق، ولأن الغرف فيه معدة حقا للتلمذة والكتب والقراءة ، ولكن لازلت أفضل الأسرة ولازلت مصممة على البحث وإن يكن فى شئ من الهدوء بعد خيبة الأمل هذه وخوفا من ضياع وقتى لأنى سأعود إنشاء الله وشئت أنت فى يونيو إلى مصر.

ذهبت لزيارة الأستاذ دى مونبيين فى منزله لأجده اعتزل العمل فى السوربون وهو فى "المعاش" الآن، وحصل أن تم التفاهم المدهش بيننا وتبادل الإعجاب بالطبع، وحصل أن تنازل وأمضى لى الموافقة على موضوعى الرسالة، وهو سعيد جداً بمعاونتى وبأن تكون مكتبته تحت تصرفى إلخ.

(...) أما الموضوع الأول فهو موضوعات ألف ليلة وليلة ، وأما الثانى فهو مخطوط "جاتلا نوفر" ، والرائع حقا أنه كالمرة السابقة لا يفهم ماذا أريد بالموضوع الثانى ولكن أمضى الموافقة "لأنه تعود أن يفهم منى مالا يبدو للعين ظاهراً من أول مرة" أليس هذا فضل من الله كما قلت لك . وعلى ذلك أصبح عندنا الإذن الذى يسجل أنى جئت إلى فرنسا واشتغلت.

أما محاضرة الأستاذ "مرسييه" فقد ألقيتها بالفرنسية إكراما لك أنت لأنك قلت لى على لسان "راجية" فى المرة السابقة لما ألقيت درساً عند الأستاذ "ماسينيون" إنك كنت تود أن يكون بالفرنسية . ولست أذكر لك المدح الذى كان، فقد كان أكثره تورطا وذوقا. تصور أنه يمتدح فرنسيتى ثم حاول بعدها أن يقنعنى بشئ مما قاله عن البحث نفسه.

أقرأ الآن كتابا اسمه "منزل" Une maison لمؤلفته M. vivan "فيفان" فهل هذا هو الكتاب الذى كنت أشرت إليه مرة أثناء حديث لنا فى باريس. إن لم يكن هو فهل لى أن أطلب إليك أن تذكر لى اسم هذا الكتاب الذى وصفت فيه مؤلفته أسرة تريد أن يكتب

عنك أو عن أسرتك مثله، لست أستطيع تحديداً أكثر من هذا لأن هـذا هـو كـل الـذى قلته عنه، ولى طلب آخر عندك فأنت تعرف أنك أنت الذى تطمعنى فى كل ما أثقل فيـه عليـك. وذلك أن مختار الغمراوى الشاب المتخرج من القسم الفرنسى عندنا من كلية الآداب والذى حدثتك عنه مرة أنه يريد أن يعمل الماجستير ويريد أن يكـون أقـرب مـا يكـون إلى الكليـة ، والذى قلت لى فيما أذكر أنك تفضل أن تسعى له فى بعثة فرنسية فى باريس، من الـوزارة ، لقد كتب إلىّ يرجونى أن أذكرك به، وأن هناك فى المكتبة فيما يقول وظيفة خاليـة يرجـو أن ينقل إليها حتى يتمكن من الاتصال بالأساتذة والكتب لعمل رسالته.

أردت بكل حديثى السابق أن أبعدك عن كلية الآداب فقد عرفت من أخبار إضرابها ما ضايقنى من أجلك وها أنا ذى أتورط فى الكلام عنها فأرجو أن تنسى مـا قلـت إن ضـايقك منه شئ.

وصلنى اليوم العدد الثالث والرابع من مجلة "الثقافـة" فلـم أجـد لـك فـى الرابـع مقـالاً فعسى أن يكون المانع "كالمعتاد" انشغالا عن الأهم بالمهم".

(وبعد أن تذكر د. سهير القلماوى عدداً من الأساتذة الذين يدرسون لها، تلفـت نظرنـا إلى أنه ليس كل ما هو أجنبى مفيد وليس كل أستاذ "خواجه" ينبغى أن نتعلم منـه فتذكـر أن الأستاذ "هنرى هيان" هو الوحيد الذى يفيد فى درسه أما الأستاذ "فان تويكان" فهو ملخص لما فى الكتب لا أكثر ولا أقـل ، فـالأفضل أن أقرأ نفس هـذه الكتـب فـى الأدب الإيطـالى والأسبانى وآثارهما "فيما أظن"، المعروفة فى فرنسا أو التى عرفت على الأصح".

وتختم رسالتها إلى طه حسين "لقد صدعـت رأسـك فيمـا أرى إذ وجدتنـى فرغـت مـن أربع صفحات فلتغفر لى هذا، ولأختم ختاما بُدء الساعة الحادية عشرة مساء. لـك إخلاصـى وتحياتى وسلامى إلى ابنيك واحترامى إلى السيدة الكريمة

سهير القلماوى

أقاوم بينـى وبين نفسـى

وفى خطابها القادم يبدو تململ سهير القلماوى من بعثتها، واضحا، بينما هى تحاول التخفيف عن زميلتها فى البعثة ، فى الوقت الذى تكتم فيه آلامها ، فهى تنصح زميلتهـا وهـى أولى بـالنصح بالصبر والاحتمال، تقول فى خطاب ٢٧ فبراير ١٩٣٩:

أستاذى العزيز

لست أعرف ما للشياطين ومالنا فهى ساعة تخطف خطاباتك إلىّ ، وأخرى تخطف خطاباتى إليك. ولعل فى الأمر شيئا أجل مما كنت أقدر، لقد كنت أقرأ فى كتاب عن "الفوكلور فى الإنجيل" (لعلها تقصد الفولكلور) وكنت وصلت إلى نقطةممتعة وهى البحث عن الشجرة التى أكل منها آدم أكانت شجرة الخلد أم شجرة الحكمة، والحية التى أخرجت آدم من الجنة ماذا كانت مهمتها وكيف تظهر فى الفوكلور عند بعض القبائل على أنها كانت مكلفة بتبليغ آدم سر الخلود وكيف احتفظت به لنفسها . بينما كنت غارقة فى هذا إذا بخطاب من الست راجية تقول فيه أثناء الثرثرة التى لا يباريها فيها أحد والتى تسمح لها بكتابة صفحات عن أتفه شئ ثم تنسى أهم شئ وهو إخبارى عن صحة والدتى إذا بى أجد وسط هذه الثرثرة خبرا هاما وهو أنى لم أكتب إليك أشكرك على كتابك الذى أرسلته إلىّ فتعجبت ثم شككت وأخيراً تأكدت من أنى كتبت لك ساعة استلامى الكتاب أشكرك وأخبرك أنى سأبعث إليك بنقد طويل، وكان هذا بالطبع قبل أن أقرأه، وأذكر أنى شكرتك فى نفس الخطاب على خطابك الوحيد (إلى الآن) الذى وصلنى. ثم كتبت إليك بعد ذلك خطابا آخر على الأقل إن لم يكن خطابين. فهل فى مصالح البريد حيات كحية آدم لا يحتفظن بسر الخلود وإنما بعد مضى هذه القرون أصبحن يقنعن بحفظ خطاباتى لأنفسهن؟

ومع ذلك فلأسجل لك شكرى مضاعفا لا على إرسال الكتاب فحسب ولكن على ما جنيت من ساعات أنفقتها فى قرائته. ولعل حيات البريد تقنع بخطابى الأول وتعف عن هذا حتى يصل إليك.

لعلك قد أخذت فكرة ما عما أنا غارقة فيه هذه الأيام. بحار واسعة لا نهاية لها عن تافهات لذيذة إلى حد بعيد ولو أنى لا أريد أن أضيع فيها. وأمامى الآن بحث فى المجلة الأسيوية أعطاه لى الأستاذ مرسييه لأقرأه وعنوانه "هل الواك. الواك هى اليابان؟" ، والأستاذ مرسييه يورطنى لا فى القراءة فقط ولكن فى استجداء الكتب أو التقارير الصغيرة من أصحابها، فقد حرضنى أن أكتب للأستاذ "كانار" الأستاذ بجامعة المغرب لأطلب منه بعض مقالات نشرت له على حدة، وأصبح من المتعذر أن أجدها فى المكاتب لأنها نشرت فى تقارير مؤتمرات ومجلات محلية" (وبعد أن تتحدث سهير القلماوى عن بعض المبعوثين وأحوالهم فى عجالة تتوقف عند ابنة أحمد أمين المفكر والمؤرخ الإسلامى المعروف صاحب موسوعة "فجر الإسلام"). تقول سهير القلماوى "وأما ابنة الأستاذ أحمد فهى مشكلة أيضا لأن كل شئ قد حللته لها إلا السكن وهو الأهم فقد مكثت عند أسرة وجدناها خير ما عندنا

بعد البحث ولكنها بعد يومين عادت لنا وطلبت أن ننقل لها "عزالهـا" . وكـم مـن مـرة تثـور العاصفة للرجوع إلى مصر ثم يهدأ البحر فى سينما أو متجر أو حتى فى الهواء الطلق. والآن فقط عدت من إحدى هذه الفورات .

ولكن فيها من الأستاذ أحمد أمـين الشـئ الكثـير، ولذلـك أحببتهـا وعملـت وأرجـو أن أستمر أعمل وأن أنجح فى أن أحبب إليها الإقامة فـى أسـرع وقـت فـى الأسـبوع القـادم أو الذى يليه لأن ثورات العودة إلى مصر خفت كثيرا جدا فى الكم والكيف كما يقول والدها.

كانت صديقتى بثينة الغمراوى فى حالة نفسية عسيرة من يومين وذلك لتقريـر الأطبـاء بأنها لابد أن تعمل "ابنديسيت" (الزائدة الدودية) فرأيت أن أرفه عنها بـأن ذهبـت معهـا إلى "باليه روايال" ورأينا معا رواية ظريفة جدا فلحـت فـى أن ترفـه عنهـا كثـيراً. واسـم الروايـة "أدركينى" ، وأنت أدرى بكل ما يضحك هناك وبنوع هذه الروايات.

وأما أنا فقد أكون أحوج الجميع إلى من يرفه عنى فى هذه الحياة الجـامدة البـاردة التـى أحياها ، ولكن لعل الألم النفسانى إذا ازداد كبت بعضه بعضا وإنى لأضحك من نفسى كثيرا أثناء إلقاء المحاضرات لفاطمة أمين عن الحياة وكيف يجب أن نلقاها وعن طفولـة التفكـير فـى العودة إلى مصر ، بينما أقاوم بينى وبين نفسى هذا الإحساس وهذه الرغبـة عشـرات المـرات كل يوم، ولعلها تجد فى العودة إلى مصـر فرجـا ولكنـى لا أرى فيهـا إلا تغيـيراً لظـاهر أمـور الحياة ، وأما الحقيقة فليس الخلاص منها فى أى مكـان . لسـت أحـب أن أسـترسـل فـى هـذا الكلام بالفرار من الكلام عن نفسى. فلأختم خطابى إليك كما ختمته مرات من قبل لأبعـث إليك بأشواقى وإخلاصى.

سهير القلماوى

كـــرت أجـــن

وبعد شكوى سهير القلماوى من ضياع بعض خطاباتها إلى طه حسين متهمـة الشـياطين تـارة بخطفها، ومتهمة حية آدم بخطفها مرة أخرى تعود فى الرسالة التالية لترسـم فـى صدرهـا مربعـا بـه أرقام لا معنى لها أسمتها الطلسم الذى تُؤَمن به وصول رسـائلها إلى طـه حسـين ، ثـم تتحـدث عـن أحوال بعض تلاميذ طه حسين وكيف يواجهون الأنباء التى تنذر باندلاع الحرب.

فتكتب من : باريس ٢٦ إبريل ١٩٣٩.

وهكذا يزين الطلسم خطاباتنا كما تزين خطابات الملوك شاراتهم فتصبح مراسلتنا فى مأمن من الشياطين.

لى شهران تقريبا لم أكتب لك فيهما مع أنى انتويت الكتابة مرات فى مناسبات عدة ولكن كنت أشفق عليك مما أنت فيه من مشاغل وأقول لنفسى ماذا عندك من جديد تقولينه فلا أجد شيئا فاتشجع بذلك على الصمت.

انتهت دروس الأستاذ مرسييه منذ أوائل هذا الشهر وقد ذهب إلى جنوب فرنسا ولن يعود قبل منتصف يونيه فيمكث نحواً من عشرين يوما فى باريس قبل أن يسافر فى أجازته. ولذلك ربما قابلته فى يونيه قبل عودتى إلى مصر وربما عرضت عليه مشروع رسالتى أو مواضيع رسالتى على الأصح لعل له فيها رأيا وإن كنت إلى الآن لا أعرف من أمر هذا المشروع شيئا.

لقد قلت لك عن الموضوع الذى اتفقت عليه مع الأستاذ دى منبين وفى ظل هذا الموضوع العام سأضع مشروع المواضيع التفصيلية . هذا طبعا لا شأن له جديا فيما أعمل معك فى مصر لأن الموضوع الذى أخرته مع الأستاذ دى منبين وما سأعرضه على الأستاذ مرسييه ليسا إلا ناحية من الموضوع العام قد أعمل فيها فى المستقبل إذ لا قدر الله واضطررت أن أتقدم هنا لشهادة وهذا ما أستبعده ولكنى أعمل هذا لأنه لا يمكننى أن أشتغل مع هؤلاء الأساتذة إلا على أساس هذه الفكرة. فلأسر فيها إلى أن يمن الله علينا بالفرج. وليس هذا السير ضاراً فى شئ بل هو نفع كله إنشاء الله.

ماذا تركت عندك أنباء الحرب من آثار؟

كم كنت أود أن تكون هنا لترى عجبا فى شخصيات تلاميذك من جراء إشاعات الحرب. كم هم مضحكون حقا فيما يفكرون فيه وفيما يضطربون من أجله . على أية حال لقد هدأ الموقف قليلا وأظن أنك مقدم على السفر إلى فرنسا كعادتك هذا العام أيضا. أما أنا فمن يدرى أين أكون إذ ذاك.

من أخبارى الهامة هذه الأيام مشكلة ضرس العقل وما يستتبعه من حالات . فقد كدت أجن منه نحوا من شهر، وأخيراً ثارت الشجاعة التركية الكمينة فىّ و"قلعته" من أسبوع. ولست أحدثك عن الآلام بعد هذه العملية الجراحية الخطيرة وإنما يكفى أن أخبرك أنها ألزمتنى الفراش أسبوعا ولا ينتظر أن أكون فى حالة جيدة قبل أسبوع آخر أو أقل قليلا.

وأما المزاج الشريف فقد لطف الله بمن حولى وأنزل عليهم من العطف والحب كمية وفيرة جعلتهم يحتملون هياجى وتوتر أعصابى.

وصلتنى من جمعية "الفوكلور" فى إنجلترا نشرة عما ينشرون من "مجلات" وكتب ، ومن هذه الكتب ما هو طريف ففكرت أن أطلب منك أن تفكر فى أن تشترى مكتبة الجامعة شيئا من هذه المؤلفات وأن تشترك فى مجلة الجمعية . لأنى لن أستطيع أنا إلا الاشتراك فقط وهذا بالطبع ما يسمح به الجيب المتواضع الذى تأثر أيما تأثر بنصائحك الكريمة للست الوالدة فى العام الماضى. ولكن لا تخشى شيئا فإننا لم نفقد إلا اليسير من الأثر، وستشتغل الأساليب "إياها" منذ الشهر القادم إنشاء الله.

وصلتنى أخبار أن أمينة ستقوم بتمثيل رواية فى الأوبرا فى حفلة الكلية فإن تكن الأخبار صحيحة، فماذا كانت يا ترى؟

كم آسف أنى لم تتح لى فرصة رؤيتها . أرجو أن تكون راضية عن نفسها بعد التمثيل وأرجو أن تكون أنت راضيا أيضا وإن كان هذا الرجاء الأخير أصعب.

أظن أنه قد آن لى أن أقدر ما أنت فيه من عمل وأختم خطابى برجائى أن ترفع إلى السيدة الكريمة تحيتى وسلامى وأن تقبل منى إخلاصى وحبى، ودعواتى أن تكون أمينة وأن يكون كلود فى أتم صحة. وأوفر هناء.

سهير القلماوى

مضحكات مؤلمة

ولا تزال سهير القلماوى طالبة البعثة تردد رغبتها فى العودة إلى مصر لا فى أجازة بل العودة الدائمة، وكيف أن رسالة الدكتوراة بالنسبة لها كانت فى البداية تسلية، ثم صارت واجبا، فتكتب من باريس فى ٧ مايو ١٩٣٩:

أستاذى الكريم

لست أعرف فيم أنت غارق هذه الأيام ولكنى أعرف أن خطابى سيكون على أية حال نغما غير الذى تسمعه حولك وسيكون نوعا من التغيير.

كانت ظروفى فى العمل هذا العام على غير ما كنت أتمنى فقد شغلنى الأستاذ مرسييه أكثر مما قدرت وشغلت شواغل أخرى أنت أعلم بها، وأعلم بأنى لا أحب أن أذكرها ، ثم

جاء ضرس العقل فكان مسك الختام كما يقال فى ألف ليلة، ولذلك تجدنى هذه الأيام أحاول تعويض ما فات بكل ما أستطيع لعلى أظفر بشئ لا يغضبك حين أعرض عليك ما طلبت منى وما أنجزت من هذا المطلوب.

أشار علىّ الدكتور الديوانى بك من يومين كما أشار على كل أعضاء البعثة أن نرسل إليه طلبا أن تسمح لنا الوزارة بقضاء جزء من أجازة الصيف بمصر ولما أخبرته بأن ظروفى غير هذه وإنى أريد أن أرجع لا فى أجازة ولكن على ألا أعود . قال لى : إن هذا لا يمنع وأن وجود الإذن معى يكون آمن فإذ لا قدر الله وقامت حرب أو اضطررنا إلى السفر السريع فإن الإذن يكون معنا دائما . ولم أجد فى كلامه إلا المعقول، فكتبت هذا الطلب، وكنت أحب أن استشيرك قبل كتابته لولا أن وجدته أتفه من كل هذا.

ترى ما ذا أعددت لى من مشاريع ومتى ستأذن لى بالرجوع إلى مصر. أنا لا أطلب شيئا وأنا أترك كل هذا لتقديرك لأنك عالم بكل ظروفى.

أليس عجيبا أن أبدأ العمل فى الدكتوراه لمجرد التسلية فإذا بى الآن لا أقدر أن أفكر فى عمله إلا وقلت لما أنتهى منها أعمل كذا وكذا كأنما قد أصبحت شيئا لابد من أدائه أولا، والفضل فى هذا يرجع إليك بالطبع وإن كانت هناك أفضال أكثر من هذا.

لست أكتب إليك بها، وإنما سوف أحدثك عنها فى أول فرصة نلتقى . أين سيكون هذا؟ لست أدرى وأظنك أنت ستقول ولا أنا .

وأخيرا استقرت إبنة أستاذى أحمد أمين ، فإن لها فى هذا البيت الذى هى فيه شهراً وهذه أقصى مدة أقامتها فى مكان واحد. فلم يكن لها خمسون يوما يوم أحصيت لها عدد الأمكنة التى سكنتها فإذا هى تفوق الخمسة . ولولا أن والدها أرسل إليها أن تمكث حيث هى لكانت الآن فى مكان سابع أو ثامن لست أدرى لأنها فعلا كانت متفقة (بل قد اتفق لها الديوانى بك على هذا المكان) فإذا خطاب والدها يضع حداً لهذا التجول والتقلقل.

أظنك الآن لا تخاف الحرب مثلى فقد هدأت الحال ولاشك وأصبح الأمل فى السلم قويا.

ماذا يفعل السيد كلود، إنى أتمنى له أبهر نجاح. كما أتمنى أن يسهل الله له كل أمر بعد فى سبيل إعداد مستقبله المجيد إنشاء الله. وأمينة ماذا هى فاعلة فى امتحانها ؟ إنى أتمنى لها أطيب التمنيات.

لقد ضقت ذرعا بهذه "اللوكاندة" وأصبحت لا أطيق السكن بها، وليس عندى وقت للبحث فربما أذهب إلى مصيفى كما يدعونها أى "اللوكاندة" التى كنت بها فى سبتمبر

الماضى. وقد تكون "اللوكاندة" مظلومة فيما أحسه الآن نحوها ولكن ما العمل.

ترى ماذا فى جو مصر السياسى من مضحكات مؤلمة. إن الأخبار تصلنا مشوهة إلى حد ما لأن الجرائد المصرية وخصوصا الأهرام وهو أكثر ما نقرأ هنا لم تصل بعد إلى التجرد من كل أثر ضار بالمصلحة العامة.

أخاف أن أبدأ أحدثك فيما لا تحب أن تسمع"

ولا تصرح سهير القلماوى بمقاصدها إلا أن تحدث طه حسين بأحوال تلاميذه المضحكة كما ذكرت من قبل وهو لا يريد أن يسمع عن تلاميذه ما يسوؤهم.

البلغيشى

وتواصل سهير القلماوى تسجيلها لمشاعرها بين اليأس والأمل فى الوقت الذى تحاول فيه التسرية عن غيرها كعادتها، وغيرها هنا هو د. طه حسين نفسه الذى كان قد أعيد انتخابه عميدا لكلية الآداب فى مايو ١٩٣٩ غير أن حكومة محمد محمود باشا وقفت دون إعادة تعيينه مما اضطره للاستقاله ليتفرغ للعمل كأستاذ ، وهو ما تراه تلميذته خيراً بل وتهنئه عليه ، ولها أسبابها فى ذلك ، فتكتب إليه من باريس ١٧ مايو ١٩٣٩:

أستاذى الكريم

لأول مرة أكتب لك خطابا ولست أعرف لماذا أكتبه . ليس عندى شيئا معينا أقوله لأن الأقوال والأفكار مزدحمة مختلطة فى نفسى.

عرفت اليوم أخبار كلية الآداب الأخيرة. فأود أول قبل كل شئ أن أهنئك من أعماق قلبى لأنك ستوفق (إنشاء الله) إلى حد بعيد فى أن تظفر لنفسك ولما هو أهم بالوقت الذى كان يضيع منك فى أشياء أقل ما يقال فيها أنها لم تكن تستحق ما كنت تبذله فيها. ثم أردت أن أعبر لك عن فرحى بأنه ستتاح لك فرصة (إنشاء الله) تعوض فيها شيئا مما جنته هذه السنوات الأخيرة على صحتك . ولكن ولست أدارى ، ولا أكتمك شيئا، كم كنت أود أن تصل إلى هذه النتائج بطريق أحسن من هذه، طريق كلها فرح وبشر وليس فيها هذه الابتسامة الساخرة التى أكاد أراها مرسومة على وجهك والتى تريد بها التعبير عن شعورك نحو أمر لا يستحق منك أكثر من الاستخفاف ولكنه مكدر لاستحقاقه هذا الازدراء.

ويمتد بنا التفكير من المسائل الشخصية إلى العامة، ويرجع بنا التفكير حيث بدأنا ـ

وماذا بعد كل هذا ؟ سنعود على مصر . وأكاد أغرق من تفكيرى فى بحار من ظلام اليأس ولكنى أحس آخر الأمر إحساسا حقا أن هذا كله سطحى، وأنه فى أعماق نفوسنا لا يزال وتر الأمل ينبض قويا نشطاً.

إن الحياة لا يمكن أن تكون أملا حلواً كلها بل إن الأمل لا يحلو إلا بجانب هذه الظلمات من اليأس.

أراك تبسم من هذه الفلسفة الساذجة التى نعرفها كلنا ولكنها تغيب عنا أحيانا. بل أراك تكاد تنطق "ماذا تحاول أن تقول آخر الأمر. ألم أقل لك فى بدء الحديث بيننا أنى لا أريد أن أقول قولا معينا وإنى أحس إحساسات غامضة مضطربة تدفعنى إلى الكتابة إليك، وتقف عند هذا الحد فلا تبين لى ماذا أكتب.

دعنا من هذا كله ولنتحدث فى الأهم: ماذا انتويت لهذا الصيف وأى مشروع أعددت للمؤلف المجيد الذى سيخرج فى أكتوبر القادم إنشاء الله. أظنك لم تفكر بعد حتى فى عنوانه.

أما أنا فغارقة فى ألف ليلة أحاول أن أعوض ما قد فات ولعلى أوفق آخرا إلى أن ترضى عن مجهودى حينما أعرضه عليك.

أكاد لا أحضر شيئا من الدروس الآن إلا للأستاذ ما سينيون الذى يصمم على إلقاء دروس إلى الآن ولست أصف لك ما أعانى من سماع هذه الدروس ، فلعلك تقدر شيئا منه عندما تعلم أنه يلقى درسين من خمسة عن مؤلف مراكشى فيما أظن أو مغربى فى أدب التلميذ، تأليف تعس، يدعى "البلغيثى" ، وهو لا يعمل فى درسه أكثر من أن يختصر فصول الكتاب فصلا فصلا وكثيرا ما تكون محاولة الاختصار أثناء الدرس نفسه، هل أصدعك بشئ مما فى الكتاب أم أبق هذا مع كثير أريد أن أطيل الحديث معك فيه عندما نلتقى.

لست أعرف إلى الآن شيئا عن هذا اللقاء، وأظنك أيضا لا تعرف . ولكن هل لى أن أطمع فى أن تخبرنى متى عرفت ؟ وهل أبالغ فى الطمع فأطلب أن أعرف متى تريدنى أن أعود إلى مصر.

وأخيراً أصطنع الذوق فأختم خطابى. ولكن بعد أن أبعث إليك بآحر تمنياتى وأخلص دعواتى أن يجدك هذا الخطاب فى أتم صحة وأوفر هناء. أرفع تحياتى الصادقة إلى السيدة الكريمة، وأبعث تمنياتى بنجاح باهر لكل من أمينة وكلود، ولك منى أصفى ود وأوفى حب.

تلميذتك

سهير القلماوى

وتعود سهير القلماوى لتوافى أستاذها بأولى خطاباتها من القاهرة بينما هو يقضى مصيفه فى الخارج، لنتعرف على الفرق بين حالها هنا وحالها فى الخارج ، فتكتب فى ١٢ اغسطس ١٩٣٩:

أستاذى الكريم

كان لهذا الخطاب أن يكتب من زمن بعيد ولكن شاءت الظروف ألا أكتب وذلك خوف أن أعكر عليك صفاء راحتك بما كنت فيه. تصور أنى قضيت فى باريس نحو شهر بعد آخر لقاء لنا. وأن هذا الشهر كان أكثره فى الفراش . وما كدت أحس شيئا من الصحة حتى بادرت بالسفر وها أنا ذى فى القاهرة لى أربعة أيام والحر لا يمكن أن يطاق. كم أود أنى كنت معك فى الجبل".

وتضيف "ولقد أصبحت الآن لا أطيق الوحدة التى كنت أستطيبها ، وليس لى صبر على قراءة شئ حتى القصص، أربعة صفحات من أى كتاب كافية أن تضايقنى.

ليس عندى أى أخبار فقد عدت إلى أهلى فوجدتهم بحمد الله فى صحة جيدة وإلى الآن لم أخرج من منزلى قط".

ومن المصيف تكتب سهير القلماوى إلى طه حسين فى المصيف أيضا، فى ٢٩ أغسطس ١٩٤٠ لنواصل التعرف على حالها بعد حوالى سنة من عودتها فتقول :

أستاذى الكريم

تحية واحتراما . من أسبوع وأنا أريد أن أكتب إليك فى كل يوم ، وفى كل يوم يتغلب علىّ الكسل العظيم الذى يأبى إلا أن آكل وأنام، فقد كنت صممت على ألا أبرح القاهرة ولكن شاءت ظروف الأسرة أن أبرحها فى ظرف ساعات لأمكث هنا إلى أن يشاء زوج أختى أن ينهى أعماله ويعود إلى رأس البر . ولى اليوم ثمانية أيام ولست أدرى متى سأعود ولكن الذى أدريه بعد أن أنذرتُ إنذارا نهائيا أن موعد هذه العودة لن يتأخر عن أوائل الأسبوع القادم.

آمل بعد عودتى أن ينجلى هذا الكسل عن نشاط عظيم أنا واثقة من أنك ستتعب فى تنظيمه ولكنى واثقة أيضا من أنه سيخرج شيئا ما على كل حال.

سألت عن الأستاذ أحمد أمين وأسرته فعلمت أنه عاد نهائيا إلى القاهرة.

أكاد لا أبرح العشة وأخاف أن أقول إنى أكاد لا أبرح السرير كسلاً أو تقديراً لمباهج رأس البر. ولولا أطفال أختى وضجتهم لكنا إلى الأموات أقرب.

ترى ما وقع الأخبار الدولية عليك وماذا ترى فيها، أما أنا فإنى أنتظر خير النتائج أو شرها لا فى خوف ولا فى اطمئنان وإنما فى شعور هو إلى حب الاستطلاع أقرب" .

ثم تنهى خطابها بالتحية والسلام كالمعتاد .

وسنخرج من هذه الرسائل متألمين لسهير القلماوى التى لم يكن يرد عليها طه حسين إلا قليلا ولعله قصد أن تخوض تلميذته التجربة لتعلمها الحياة بأكثر مما تتعلمها فى الكتب.





جامعة

طه حسين

أحمد أمين
صاحب موسوعة فجر الإسلام

سندخل الآن مع طه حسين إلى الجامعة لنراه ونرى زملاء له وتلاميذ تجاوزت شهرتهم أسوار الجامعة وسيكون لنا معهم شأن خاصة فى حياتهم الجامعية واتصالهم بطه حسين داخلها وخارجها، وهذه العلاقة تمثل جزءا من تاريخ الجامعة المصرية العريقة فى طورها الأول حين كان مجلس الكلية ومجلس الجامعة يضم أساتذة مصريين وإنجليز وجنسيات أخرى كأنه عصبة أمم كما يقول أحمد أمين، وما تزال تمصر شيئا فشيئا حتى صارت الأغلبية للمصريين، وسنبدأ بالحديث عن المثلث الذهبى بالجامعة المصرية: طه حسين، وأحمد أمين، وعبد الحميد العبادى الذين اتفقوا على كتابة تاريخ الإسلام: عقليا، وسياسيا، وأدبيا، فقاموا بما لم تقم به وزارات بأكملها بعد ذلك.

يحدثنا عميد الأدب العربى طه حسين عن أحمد أمين فيقول : "كان المرحوم الدكتور أحمد أمين يعمل بالقضاء الشرعى، وكان يضيق من هذا العمل، لأنه كان يضطر إلى الذهاب إلى بعض المناطق النائية، وقد سعيت لنقله إلى كلية الآداب" يستكمل أحمد أمين الصورة من جانبه عن أحداث تلك الفترة التى صار فيها عضوا من أعضاء هيئة التدريس الذين عمل طه حسين على أن يقوى بهم الجامعة ، فيقول(*):

أذكر أنه قد دق جرس التليفون يوما، وإذا المتحدث الدكتور طه حسين بك يعرض علىّ أن أكون مدرسا فى الجامعة المصرية وكنت قاضى محكمة الأزبكية الشرعية، فاستأذنته أن أفكر ، وذرعت الشارع الذى أسكن فيه ذهابا وجيئة مرارا أفكر: هل أقبل أو أرفض وأخيرا قبلت.

كان ذلك فى سنة ١٩٢٦ ، وكلية الآداب إذ ذاك فى قصر الزعفران بالعباسية، وكان عدد طلبتها كبيرا، إذ كانت تضم أيضا فوق طلبة كلية الآداب، السنة الأولى من كلية

(*) الهلال يناير ٥١.

الحقوق.

وعهد إلىّ أن أدرس للسنة الأولى، وقد تعبت جدا إذ كانت المحاضرة تلقى على عدد كبير، وأضطر فى ذلك إلى رفع الصوت ما أمكن وإلى مجهود كبير فى ضبط الفصل ما أمكن، وقد درست لهم درسين، درسا فى البلاغة اعتمدت فيه على كتب البلاغة الإنجليزية ، وكتب البلاغة العربية ، والتوفيق بينهما ، ودرسا فى الكامل للمبرد. وكانت الكلية كالأزهر فى عدم الصلة الكبرى بين الأساتذة والطلبة، وعدم التوفيق فى الحضور والغياب، فمن شاء حضر ومن لم يشأ لم يحضر، ولم أكن ألمح فى هذا العدد العديد أى فتاة مصرية إلا بنات المرحوم الدكتور على إبراهيم رامز، فإنهن كن من أم ألمانية ، فكن بذلك نصف مصريات.. وكن يحضرن مع النساء والفتيات الأجانب دروس الأدب الفرنسى فى الجامعة.

ويضيف أحمد أمين متحدثا عن هذه الفترة المجهولة فى حياة الجامعة المصرية:

ولم أكن بحكم منصبى عضوا فى مجلس كلية الآداب إذ كنت مدرسا، والمجلس قاصر على الأساتذة المساعدين ، والأساتذة من الأجانب والمصريين، وبعد ذلك رقيت إلى أستاذ مساعدفأستاذ فعميد فأمكننى الاتصال بالمجلس.

وكان المجلس كأنه عصبة أمم فيه الألمانى والفرنسى والبلجيكى والإنجليزى والمصرى، وكان العميد الأستاذ "كويجوار" البلجيكى.. وكانت المسائل المهمة التى تعرض تترجم عادة من الإنجليزية إلى الفرنسية والعربية، ومن الفرنسية إلى الإنجليزية والعربية ، ومن العربية إليهما، وما تزال تمصر شيئا فشيئا حتى كانت الأغلبية من المصريين.

وكان يتقاسم الرئاسة فى أقسام الكلية جنسيات مختلفة ، فقسم الفلسفة مثلا وقسم اللاتينى، يتزعمه الفرنسيون ، وقسم اللغة الإنجليزية يتزعمه الإنجليز وقسم التاريخ يتزعمه البلجيكيون ، وقسم اللغة العربية يتزعمه المصريون ، وهكذا.

وكانت الكلية مفككة الروابط بهذا التقسيم من جهة، وباشتمالها على طلبة الحقوق وطلبة الآداب وعلى المدرسين من كل صنف ولون.

وقد حررت فيما بعد من التدريس لطلبة الحقوق، واقتصرت على طلبة قسم اللغة العربية، ودرست أيضا درسين: درسا فى البلاغة ودرسا فى المعاجم العربية، ثم تخصصت فى الإسلاميات ، وكان من نتيجة ذلك فجر الإسلام، وضحى الإسلام.

ويتذكر طه حسين كيف "توثقت علاقتنا فى الجامعة ، وكان بيننا تعاون علمى، وأذكر أنى كتبت مقدمة لكتابه الأول فى موسوعته عن فجر الإسلام وضحاه وظهره".

وقد أثنى طه حسين ثناء عطرا على فجر الإسلام. لأحمد أمين الذى يرى أنه أخذ

"يحلل هذه الحياة العقلية العربية تحليلا ليس أدق دقة واستقصاء من تحليل صاحب الكيمياء فى معمله" فقد "نهض بهذا العبء من درس الحياة العقلية العربية كأحسن ما ينهض الرجل ذو الضمير العلمى الحى بعبء من الأعباء". "فقد كنا نعرف له كفايته ومقدرته كعالم وأديب، جد حتى تثقف بالثقافة الأجنبية الأوروبية، ولكنا لم نكن نقدر أن يكون قد أخذ من هذه الثقافة بأدق حظ وأقربه إلى الإتقان والكمال "ولست أخفى أنى لم أكن أعرف حدا لهذا الدهش الذى كنت أجده حين أرى "أحمد أمين" يتصرف فى المسائل الأدبية والفلسفية واللغوية بقدم ثابتة ويد صناع وعقل يعرف كيف يفكر" ويمضى طه حسين فى ثنائه "ومهما أفعل من ذلك فلن يكون ثنائى شيئا إلى جانب هذا الأثر الذى سيتركه فى نفوس الناس بحثه الذى أقدمه إلى الجمهور سعيدا مغتبطا بأنه أول ما يقع فى أيدى الناس من كتاب "فجر الإسلام".

الصغائر

وتتصل العلاقة بين طه حسين وأحمد أمين حين يسافر أحدهما للخارج فيتراسلان ، وبين أيدينا مراسلات أحمد أمين لطه حسين التى تكشف عن جانب من جوانب الحياة العلمية فى تلك الفترة المجهولة من الحياة الجامعية، فنقرأ فى الرسالة التالية بعض ما يخص أحمد أمين والجامعة ، ومصر، فكتب من :

مصر فى ٢٦ يونيه ١٩٣٠

أخى الدكتور طه

عليكم السلام ورحمة الله

هنيئا لك بفيينا وجمالها، وباريس ومناظرها ، والجبال وهوائها - أما أنا فأقعدنى عن السفر مرض والدتى ثم مرض ابنى الكبير بحمى انتابته، وقد بدأ يتحسن ، فإذا تغلبت على

هذه الصعاب سافرت إلى رأس البر، إما وحدى أو مع العائلة ، فقد سئمت جـدا مـن حيـاتى المتكررة التى كأنها يوم واحد.

والآن أقص عليك مسألة بسيطة.

ذلك أن الأستاذ أحمد إبراهيم عرض عليّ أن أكون أستاذا مسـاعدا للشـريعة فـى كليـة الحقوق في الدرجة الثالثة، فقلت له: إذا أردتم الإعلان عن الوظيفة لأكون أحد المتقدمين لها، لا أستطيع ذلك، أما إذا حصرت الاختيار فيّ فهنا أبـدى رأيي ، فقبـل ذلـك وأخـبرنى أنـى المرشـح الوحيـد،تـرددت أولا واستشـرت كثـيرا مـن إخوانـى فمنهـم الـذى استحســنها لى كالدكتور منصور والأستاذ الخولى ، وغيرهما ، ومنهم من لم يوافق كالأسـتاذ عـزام، وأخـيرا لاعتبارات مختلفة ملت إلى قبولها، وانتظرت أخذ رأيكم مع رجائى لك فى الموافقـة ، فلسـت أحب أن أخرج وأنت غاضب.

أظن أنه قد بلغك استقالة كوبلاند وشين وبذلك أصبح التاريخ المتوسط بـلا أسـتاذ ولا مدرس له ويجب تدبير هذه المسائل من الآن حتى لا تفتح الدراسـة والكليـة خاليـة ممـن يقـوم بتدريس هذا الفرع".

"أما مسألة الأساتذة الزائرين فقد كان الأستاذ بهـى الديـن بـك رفـض الموافقـة عليهـم ويحتاج لتنفيذها لعرض المسألة من جديد على الوزير الحالى - لذلك يحسن ألا تتفق مـع أحـد نهائيا حتى ينجلى الموقف".

"أظن أنه قد بلغك الانقلاب الخطير الذى حصل فى مصر، والناس هنا يوجسون خيفـة من تغيير الدستور ويتوقعون حوادث خطيرة فى الأشهر المقبلة، ولا أدرى متى ترتـاح مصـر البائسة التعسة من هذه النكبات.

عبد الحميد العبادى قد مات والده وسافر إلى الإسكندرية لقضاء أيام ثم يعود ليستأنف العمل فى فجر الإسلام (رغم أنه من عمل أحمد أمين إلا أنه والعبادى وطه حسين اعتـبروا أن كل عمل يقوم به أحدهم كأنه عملهم جميعـا لأنهـم كـانوا يراجعـون مادتـه ويقرأونهـا أيضـا جميعا) ولعل حظه هذه الأجازة يكون خيرا من حظه فى الأجازة الماضيـة أمـا أنـا فـأحببت أن أكتب بابا فى الحياة الاجتماعية فى العصر العباسى الأول، ورأيت الأغانى (للاصفهانى) خير ما يعين على ذلك ، فبدأت بقرائته من أوائل مـايو، والآن وصلـت إلى الجـزء السـابع عشـر، فإذا أتممته بدأت فى كتابة هذا الباب".

السنهوري ورائي بالكرباج!

ومن لندن في ٢٩ يوليو (بدون سنة) يكتب أحمد أمين

أخي العزيز

سلام عليكم ورحمة الله

سررت مما استفدت من لندن، سهل لي إخواني هنا سبل الإقامة - جزاهم الله عني خيرا - ولكن لم أحقق كل غرضي فلم يتيسر لي الإقامة في عائلة إنجليزية لقصر المدة التي أقضيها هنا ، ولأن العائلة التي كانت أعدت لي قررت قبيل مجيئي أن تسافر إلى شاطئ البحر".

"كتاب المختارات وضع في جزءين لا في ثلاثة ، واحد للسنة الثالثة وآخر للرابعة والخامسة معا ، وقد اخترنا ما اختاره الأعضاء للسنة الثالثة. وتركنا الباقي للسنتين الأخيرتين، وأنا موافق على المعاني التي ذكرتها في خطابك لتكون مقدمة للكتاب ، ولكن أرجو الإسراع في إرسالها إلى الشايب. مع خطاب الوزارة ولك الشكر .

أحس في كتبك بشئ من الضجر والقلق فأرجو أن تكون فوق الحوادث كما عهدتك، وأن تنظر إليها نظرة الرائي لرواية، ومثلك خير من يستخرج من الفلسفة ما يجعله يستهين بهذه الصغائر".

ومن القاهرة في ١١ سبتمبر ١٩٣٠ يكتب أحمد أمين إلى طه حسين:

يحزنني أن تكون خطاباتك الأخيرة كلها مملوءة بالأسف والحزن، وكان بودي أن تكون كلها نغمة سرور وفرح حتى يعوضك عما لقيت من نصب في السنة الماضية، ولكن شاء القدر أن تخرج من فصل محزن إلا لتستقبل فصلا آخر يتصل به ، على أني أرجو أن يتم شفاء السيدة وأن تستقبل رواية من نوع الكوميديا تمحو بها كل أثر للتراجيديا السابقة".

"اجتمع مجلس الجامعة في الأسبوع الماضي وكان يدور كله حول مقترحات كلية الحقوق، وأهم ما يخصنا المصادقة على ضم القسم الإعدادي إلى كلية الحقوق.

وبهذه المناسبة يريد كامل بك أن يختار مدرسين من قسم اللغة العربية لنقلهما إلى الحقوق ، وقد وقع اختياره شفويا على أمين الخولي وأحمد الشايب، ولا أدري من أين استقى معلوماته، ولكني أرى الاحتفاظ بهما ، وأن نرشح له عبد الوهاب حمودة، وطه إبراهيم. فما

رأيك - سأقابل لطفى بك لأكلمه فى وقف النقل حتى أعرف رأيك - أما مسألة العميد والانتخابات وما إلى ذلك فأظن أن الكلام فيه قبل أوانه لأن شيئا فى هذه الموضوعات لم يتم.

سلامى عليك وأتمنى لك راحة الضمير

ويذكر أحمد أمين أن كلية الآداب كانت "تقوم كل سنة برحلات فى أجازة نصف السنة، فاستفدت من هذه الرحلات ورحلت إلى الشرق والغرب، ومرة رحلنا إلى الشام وأخرى إلى العراق وثالثة إلى الحجاز، ومرة إلى هولندا وإنجلترا وبروكسل، وكانت هذه الرحلات موضعا للاستفادة منها حيثما رحلنا".

ويكتب أحمد أمين عن إحدى تلك الرحلات وكانت رحلة صعبة فيقول من:

دمشق فى يوم ٥ فبراير ١٩٣١

أخى العزيز الدكتور طه

سلام عليكم ورحمة الله

وصلنا بحمد الله إلى دمشق وقد كان فى طريقنا من طبرية إلى دمشق بعض الصعوبات لأن المطر انهمر علينا وكثر الضباب حتى لم يستطع الرائى أن يرى على بعد متر، وأمسى علينا المساء ونحن فى منتصف الطريق، وبينما نحن سائرون ارتطمت سيارة فى أحجار وتهشمت وجرح ثلاثة من ركابها، ففزعنا جميعا إذ ظننا أنها إحدى سياراتنا خصوصا وقد جاءنا الخبر أولا بأنها كذلك، ثم حمدنا الله كثيرا على أنها لم تكن لنا، وأنها لجماعة من دمشق فخف علينا بعض الشئ وقع المصاب، ونقلنا المصابين معنا إلى المستشفى فكان فصلا مؤثرا أثر فى بعضنا الخوف وفى بعضنا الحذر وفى بعضنا الاتكال على الله - سنقوم غدا إن شاء الله إلى بغداد وسنقطع ٩١٥ كيلو مترا من دمشق إلى بغداد. وكل أعضاء الرحلة يشكرون لك - أولا تمهيدك السبيل للرحلة والسعى فى إتمامها - وثانيا توديعك لنا على المحطة ، ويحيونك ويتمنون لك أجازة طيبة.

والسلام

أحمد أمين

وكانت الرحلة التالية إلى فرنسا أكثر استمتاعا وكان بصحبة أحمد أمين، د. عبد الرازق السنهورى الذى كان محافظا على تنفيذ برنامج الرحلة كحفظه للقانون فلم يترك فرصة لصديقه لالتقاط أنفاسه . يقول أمين لطه حسين:

قضيت خمسة عشر يوما فى فرنسا رأيت بعض متاحفها وملاعبها، وحضرت أول أمس رواية عايدة فى الأوبرا، وعملت رحلات فى ضواحيها وشهدت كثيرا من مظاهر جوها وهواها، وقضينا أمس فى فرساى فأعجبتنى، ودعينا ونحن فى ليون لرحلة تبعد نحو ١٥٠ كيلو فقضينا يوما جميلا شهدت فيه جبال فرنسا وكثيرا من مناظرها الطبيعية، وبالاختصار أصبحت عندى صورة لا بأس بها، ولكنى لم أرتح مطلقا فالدكتور السنهورى كان ورائى بالكرباج من الأوتيل حوالى الساعة العاشرة صباحا فلا نعود إلا الساعة الواحدة - لهذا لم يكن عندى زمن لأهضم ما أرى. فوطنت نفسى على أن أكون كالجمل المجتر يأكل بسرعة ثم يجتر فى الوقت المناسب ما يأكل، وأنا متوقع أن يكون هذا حالى فى لندن - لذلك سأضطر سريعا إلى الهرب إليك بعد نحو عشرين يوما لأقضى أياما أستريح فيها.

استحضرت معى من مصر ردنجوت وسموكنج فلم أحتج إلى الالتجاء إلى خياطى باريس، وقد رأيت عنك أثمانها وأنا متأكد أن القماش لابد أن يكون ردينا حتى يفصلها بخمسة جنيهات قياسا على ما سمعت لى ورأيت.

هذه الشلل

ويكتب أحمد أمين فى ٢٥ أغسطس (بدون سنة)

وقد سررت جدا من رأى الأستاذ مرسيه فى "فجر الإسلام" وشجعنى على المضى فى "ضحى الإسلام" وقد كدت أنتهى من قراءة ما أحببت قراءته لتحضيره ووزعت المذكرات التى أخذتها على الدوسيهات ، ولم يبق إلا الكتابة، وأرجو أن تعود إلينا بجزء صالح من كتابك فإنى أشك كثيرا أن ينتهى قسم العبادى هذا العام.

بعثت إلى العبادى أول أمس خطابا أعتذر فيه عن قبولى لعمودية الكلية فى شهر سبتمبر واقترحت عليه أن يكلها إلى الأستاذ شفيق غربال أو حسن إبراهيم لأنى رأيت أنها ستشغلنى فى أمور تافهة لا تقدم الكلية ولا تؤخرها، وأفضل أن أسافر أو أكتب جزءا من ضحى الإسلام.

"اهتم المدير فى هذه الأيام بإصلاح كلية الحقوق وقد تم فعلا إخراج (.......) وانتداب نجيب بك الهلالى ورأفت العشماوى للتدريس مع بقائهم فى وظائفهم، وعين سيد مصطفى .. إلخ.

وقد أخبرنى المدير أنه سيتفرغ لكلية الآداب بعد . لعلك تستطيع أن تحضر قبل انتهاء الأجازة لتشترك فى الإصلاح المنوى إن كان.

أزمة الثقافة

ويتذكر طه حسين "لما أنشأ الدكتور أحمد أمين مجلة الثقافة كنت أكتب فيها بدون أجر". وفى خطاب أحمد أمين ، التالى حديث حول أزمة تواجهها مجلة الثقافة، وفيها يعتب على طه الذى "نسيها" ويكتب عن مواقف بقية الكتاب منها، فيقول :

أخى الدكتور طه

سلام عليك ورحمة الله

وصلنى خطابك وألمت لوصفك لنفسك ولكن خفف ألمى علمى أن الأديب فى كل عصر لا ينتج إنتاجا قيما إلا إذا احترق ورحم الله أبا الطيب الذى اكتشف أن كل بعيد الهم فيها معذب.

أما أنا فقد سافرت إلى الإسكندرية فى حالة إعياء شديد وصحة متدهورة، فلم أكد أستريح بعض الشئ حتى واجهت حالة الثقافة المتعبة، فقد نسيها طه حسين وأخلى بنا عوض وقد وعد أن يتابع الكتابة حتى وهو على ظهر المركب فلم أسمع منه الآن ولا كلمة، وكذلك قبل توفيق الحكيم وقد وعد أن يكتب فى رحلته إلى سويسرا فلم يصلنى منه إلى اليوم شئ. وكذلك فعل بعض أعضاء اللجنة (لجنة التأليف والترجمة والنشر) ولست أقدر على مواجهة الجمهور بالخيبة ، فاضطررت أن أحول بريد الثقافة إلىّ بالإسكندرية وأختار ما يمكن نشره وأكتب فى كل عدد طوعا أو كرها ، ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما رضيت بإخراج الثقافة ولكن كيف الهرب.

ومع ذلك انتهزت فرصة وجودى فى الإسكندرية فأرحت نفسى من مقابلة فلان وفلان وأرحت سمعى من الحديث عن الجامعة وكلية الآداب . وكلفت أن أعمل كتابا لمطالعة السنة التوجيهية فرفضت واسترحت، ومكنتنى فرصة الوحدة من أن أستعيد الماضى القريب فى الجامعة فوصلت إلى نتيجة تشبه تلك التى وصل إليها أبو العلاء حين عودته من بغداد وهممت أن أكتب منشورا كذلك المنشور الذى كتبه إلى أهل المعرة ولكنى اكتفيت بنية التنفيذ ، فاعتزمت أن أترك مجلس الجامعة وأترك مجلس الكلية إلا عند نظره فى مسائل

تعليمية مهمة، وأن أنفض يدى إلا من تحضير درس وإلقائه، ولو كانت ظروفى كظروف أبى العلاء فى جناية أبيه وعدم جنايته على أحد لتركت الوظيفة أيضا، لقد ظفرت أنت فى أجازتك بالجزء الثانى من الأيام أما أنا فلم أظفر إلا بتسيير الثقافة سيرا أعرج، وتفكير بسيط فى الأدب العربى المصرى.

والآن قد تشبع جسمى من جو الإسكندرية فتضايقت منه وكرهت منظر البحر من أجله واعتزمت العودة إلى القاهرة يوم ٢٠ أغسطس، فاحتمال الحر مع الجفاف أهون من هذه الرطوبة المتعفنة ، ولولا الإشفاق على الأولاد لعدت من زمان أو لتركتهم وسافرت إلى لبنان.

وأكتب إليك والجو السياسى مضطرب أشد الاضطراب فلابد أن قرأت استقالة محمد محمود باشا وشائعة إسنادها إلى على ماهر باشا وعزمه على الاستناد إلى حزبى السعديين والأحرار الدستوريين، وتمسك هؤلاء بأن يمثل كل حزب منهم خمسة أعضاء، وعدم موافقة ماهر باشا على هذا ، وقد يصلك خطابى هذا وقد انجلت الغيوم ولو إلى حين.

وبالأمس كنت أجلس فى "تريانون" فهذا هو عوض إبراهيم فى شلة من الموظفين ونجيب الهلالى فى شلة أخرى والقهوة مزدحمة بهذه الشلل، و"الشيخ روتر" يذهب ويجئ من وندسور إلى تريانون ومن تريانون إلى وندسور ، والمسرح مزدحم بالمناظر وأهم منها ما وراء الستار.

ولا أطيل فسلامى عليك ورحمة الله

أحمد أمين

المؤامرة

وكما لاحظنا فقد ضاق أحمد أمين ذرعا بمجلس الجامعة ومجلس الكلية فقرر عدم المشاركة فيهما إلا للضرورة العلمية القصوى ، ويحدثنا عن خلاصة تجربته فى مجلس الجامعة ، فيقول:

"وكان المجلس يضم إنجليز ومصريين ، وأحيانا يكون الجدل والمناقشة بالإنجليزية وأحيانا بالعربية . ومن أغرب ما لاحظت أنه إذا كانت المناقشة بالإنجليزية قل الاستطراد وتحدد الغرض ودلت الألفاظ على معانيها بدقة، ولم يعرض المجادل أو المناقش لرأى سبقه به أحد إلا إذا كان جديدا، وعلى عكس ذلك كله إذا كانت المناقشة باللغة العربية.

وقد تعلمت من هذا المجلس أنى رأيت الكبراء والعظماء يفكرون كما يفكر الناس، ويخطئون فى التفكير كما يفكر الناس، ولهم شهوات وأغراض كما لسائر الناس، وكان قد وقر فى ذهنى أنهم من طينة أخرى ولا يعملون إلا للحق والمصلحة العامة.

وتعلمت أن الناس ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: متكلمون بالحق، ومجرمون لا يعنيهم الحق فى قليل أو كثير، وهؤلاء، وهؤلاء أقلية، وأكثر الناس جبناء تنقصهم الشجاعة، فإذا نطق بالحق أحد تبعوه ونصفوه، وإذا لم يتكلم به أحد ضاع الحق وفسد الميزان.

وإذا كانت العلاقة بين طه حسين وأحمد أمين قد توثقت بينهما حينما أتى الأول بالآخر إلى الجامعة وتعاونا فى المسائل العلمية وكتابة تاريخ الإسلام ، كما تعاونا فى أمور "الثقافة" واشترك طه معه فى لجنة "التأليف والترجمة والنشر". فإن العلاقة قد امتدت بين الصديقين إلى ما هو أبعد إنسانيا، كما يتذكر طه حسين "وكان الدكتور أحمد يلجأ إلىّ فى علاج مشكلات أبنائه فى التعليم . وكنت أعاونه ما استطعت وأذكر أنى يسرت لبعض هؤلاء الأبناء فرصة السفر إلى الخارج للدراسة على حساب الدولة، غير أن الدكتور أحمد أمين مع هذا تنكر لى وانضم إلى الدكتور السنهورى فى التآمر ضدى"[1]!

ولم نعثر بعد على أثر لتلك المؤامرة إلا فى هواجس وشكوك طه حسين الذى سحب تلك الشكوك التى استخدمها فى منهجه العلمى، على أصدقائه حيث أن سوء الفهم كان يصور له أحيانا أشياء لم تحدث، وربما لعبت بعض الوشايات دورها فى الإيقاع بينه وبين أصدقائه، ولم يكن طه حسين من ذلك النوع الذى يكاشف أصدقاءه ويواجههم بل كان يكتم شكوكه وهواجسه فى نفسه ولا يصارح بها أحداً إلا فى حديث عابر كتلك الأحاديث التى دارت بينه وبين سكرتيره ، بينما تكون الحقيقة شيئا آخر غير تلك التى تخيلها فى نفسه، وسنكتفى بواقعة واحدة وإن لم تكن الوحيدة فى التدليل على صحة ما ذهبنا إليه فى تفسير تلك المؤامرة التى لم تقم سوى فى خيال الدكتور طه حسين، وهذه الواقعة يذكرها سكرتيره. فيقول "أما عن فتور العلاقة بين العميد والزيات فإن العميد كان لايجد لها سببا، وكان يقول لى : إن الأستاذ الزيات لم يعد يزورنى أو يتصل بى كما كان الحال بيننا من قبل، وكان إذا لقينى فى المجمع اكتفى بتحيتى قائلا: إزيك يا باشا.

وسألت المرحوم الأستاذ الزيات – وكنت أعمل معه فى لجنة المعجم الوسيط بالمجمع اللغوى – لماذا فترت العلاقة بينك وبين العميد أخيرا؟ وكان جواب الأستاذ الزيات : إن

(١) طه حسين يتحدث – السابق.

العلاقة لم تفتر ، ولكن زوجة الدكتور هى المسئولة عن ابتعاد أصدقاء الدكتور عنه، وأنت تعلم أنه لا يستطيع إغضابها، فقلت كيف تكون زوجة الدكتور مسئولة؟ قال: كانت تحول بينه وبين لقاء من يود، وكنا إذا ذهبنا إليه ورغبنا فى اصطحابه معنا، فإنها كانت لا تمكنه من ذلك بحجة أن صحته لا تساعده على الخروج، ولهذا ابتعد أصدقاء الدكتور عنه شيئا ، فشيئا حتى انقطعت صلته بهم تقريبا.

وهكذا يلعب سوء الفهم وغياب المعلومات الصحيحة دورا فى تنمية شكوك طه حسين وهواجسه، وإن كان ذلك عيبا فى شخصيته إلا أنها أبدا لن تنسينا بقية جوانب العظمة فى تلك الشخصية الفريدة التى دارت حولها كل الشخصيات العظيمة فى القرن العشرين.

عبد الحميد العبادى

مؤسس المدرسة العلمية فى التاريخ الإسلامى

كان د. عبد الحميد العبادى أحد الذين استعان بهم د. طه حسين لتقوية الجامعة الوليدة وتغذيتها بالعناصر المصرية أمام الكثرة الغالبة من العناصر الأجنبية والتى لم يكن لها بديل آنذاك حتى استطاع طه حسين بالتعاون مع لطفى السيد أن يمصر الجامعة بتلك البعثات المنتجة للأساتذة الجامعيين فى جميع التخصصات، وحتى يحدث ذلك كان على تلك القلة من العناصر المصرية أن تقوم بالعبء الأكبر ليس فقط بالتدريس للطلبة المصريين بل لتأسيس مناهج علمية جديدة تقوم عليها النهضة الجامعية والثقافية المصرية الحديثة، وكان من هؤلاء المؤسسين د. عبد الحميد العبادى الذى اشترك مع طه حسين وأحمد أمين فى مشروع اتفقوا عليه لإعادة كتابة العصر الإسلامى برؤية عصرية جديدة، فتناول طه حسين الجانب الأدبى، وعهد إلى أحمد أمين بالجانب العقلى والاجتماعى، وتحمل د. العبادى عبء كتابة التاريخ الإسلامى برؤية علمية كان هو مؤسسها الأول والذى سار على نهجه كل مؤرخى التاريخ الإسلامى حتى اليوم.

ود. العبادى أحد أضلاع مثلثنا الذهبى فى الجامعة المصرية، ومراسلاته لطه حسين مهمة لأنها تؤرخ لحقبة مبكرة من تاريخ هذه الجامعة بما اعترضها من مشكلات وصعوبات.

نصف الممات

ومصدرنا فى المعلومات المتاحة عن العبادى هو تلاميذه: عبد الوهاب عزام ، د. جمال الدين الشيال، ومحمد عبد الهادى شعيرة.

ولد د. عبد الحميد العبادى بحى الأنفوشى سنة ١٨٩٢ لأسرة سكندرية عريقة تنتمى لأصل مغربى، تخرج فى مدرسة المعلمين العليا ١٩١٤، وعمل مدرسا بالجمعية الخيرية الإسلامية، ثم أستاذا للتاريخ بمدرسة القضاء الشرعى التى شاركه العمل فيها أحمد أمين - الذى اشترك معه فى دراسة المخطوطات العربية باستانبول - عاطف بركات ، الشيخ محمد الخضرى، ومن تلاميذ العبادى بتلك المدرسة: أمين الخولى وعبد الوهاب عزام، وحين افتتاح الجامعة المصرية ١٩٢٥

اختير أستاذا للتاريخ الإسلامى. وانتدب للتدريس فى مدرسة دار العلوم، والجامعة الأزهرية ودار المعلمين العالية ببغداد، ثم صار عميدا لكلية الآداب بجامعة الإسكندرية ١٩، وعضوا بمجمع اللغة العربية بمصر، وعضو المجمع العلمى بدمشق ، وعضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، وكان له اهتمام بالأدب والشعر، فجمعت المنتديات الأدبية بالإسكندرية، بينه وبين أصدقائه من أدباء الثغر أمثال عبد الرحمن شكرى وإبراهيم مصطفى وعبد اللطيف النشار. ولذلك كان "أستاذا موهوبا، وفنانا فذا جمع بين الأدب والتاريخ فى آن واحد، فله من الأدب جمال الصورة ، وروعة الأسلوب، وله من التاريخ منهجه العلمى الدقيق"، ولذلك لم نعجب إذا علمنا أنه فى الجامعة المصرية القديمة "كان يشارك فى اللجان العلمية لمناقشة الكثير من رسائل الدكتوراة والماجستير فى الأدب العربى" بل إن كتاب "نقد النثر" لابن قدامة، اشترك العبادى فى نشره والتقديم له والتعليق عليه مع طه حسين. والعبادى واحد من طلائع النهضة العلمية الثقافية الحديثة حيث اتفق مع مجموعة من الزملاء النوابغ فى جيله أمثال : محمد حسن الزيات، أحمد زكى ، عبد الوهاب عزام، أحمد أمين، على إنشاء لجنة لوضع كتب علمية حديثة يساهمون بها فى إرساء النهضة الثقافية المصرية على قواعد سليمة، وتأسست اللجنة ١٩١٤ وصار اسمها "لجنة التأليف والترجمة والنشر".

وكانت الاجتماعات الأولى التى تمخض عنها مولد هذه اللجنة تعقد فى منزل عبد الحميد العبادى الطالب بمدرسة المعلمين العليا، وكان أحد المؤسسين لهذه اللجنة، التى امتد نشاطها من مصر إلى العالمين العربى والإسلامى لنشر الفكر والثقافة.

وعندما عين العبادى مدرسا بقسم اللغة العربية بكلية الآداب كان له الفضل الأول مع طه حسين فى إنشاء هذا القسم، وتثبيت دعائمه، وتخصص فى التاريخ الإسلامى. وكان أول من أدخل دراسة تاريخ المغرب والأندلس فى مناهج الجامعة، فكان أستاذا جليلا ومؤرخا محققا من الطلائع الذين أقاموا الجامعة والحياة الجامعية فى مصر على أسس قوية ، كما يقول تلميذه جمال الدين الشيال أستاذ التاريخ الإسلامى والذى يؤكد أن التاريخ الإسلامى كان "قبله رواية تروى، أو قصة تحكى، أو نكتة تقال ، أو بيتا من شعر ينشد، وكان العبادى أول من ارتفع به إلى مرتبة العلم فجعله فكرة تمحص ، وتحليلا ونقدا ومقارنة ودراسة دقيقة على أسس ومناهج علمية ثابتة، فإذا كان فى مصر اليوم من يفهم التاريخ الإسلامى حق فهمه، ومن يجيد بحثه ودراسته، فإن الفضل الأكبر فى هذا إنما يرجع إلى العبادى وطريقته وجهوده".

ويضيف تلميذه د. محمد عبد الهادى شعيرة "والعبادى من غير شك صاحب مدرسة جديدة فى التاريخ الإسلامى فعالجه على نحو خرج به عن نطاق السطحية والسرد والأساليب الخطابية الجوفاء إلى الدراسة المنهجية والتعمق فى سبر أغوار الحوادث والوصول إلى أصولها واستنباط

نتائجها مع تصوير أجوائها تصويرا يعين على فهمها وتمثلها".

وقد نعاه صديقه عبد الوهاب عزام عندما سمع بنبأ وفاته وهو بعيد خارج مصر يعمل دبلوماسيا في سفاراتنا هناك، أنشد قول الشاعر:

راعني في البعاد نعي صديق   كان في غمرة الحياة شقيقي

علمتني مصيبة الموت فيه   أن نصف الممات موت صديق

* * *

حالة حضرة صاحب العزة

نصل الآن إلى مجموعة الرسائل التي كان يرسلها العبادي لطه حسين أثناء سفر الأخير في أجازته السنوية، وكان العبادي يقوم مقامه كعميد لكلية الآداب أثناء غيابه، وذلك بالتبادل مع بقية الأساتذة، فيبعث من القاهرة في ٣ أغسطس ١٩٣٠م. متحدثا عن مشكلة خلو مكان الأساتذة الأجانب بعد انتهاء مدة انتدابهم ، واعتذار بعضهم عن تجديد الانتداب، والعبادي في رسالته يحاول بالتفكير مع طه حسين البحث عن بدائل قبل بداية العام الجامعي الجديد لحل هذه الأزمة نظرا لنقص الكوادر المصرية فيقول:

صديقي المفضال

اليوم فقط أستطيع أن أتحدث إليك في شئون الكلية، وأما قبل اليوم فلم يكن ذلك مستطاعا لأن كل أمور الكلية تقريبا كانت معلقة لا يمكن لإنسان أن ينتهي فيها إلى نهاية واضحة .. ولاشك أنك عارف بما في ذلك التعليق وسببه .

وصلني منك خطاب تكلمت فيه عن مسألتين:

الأولى: مسألة الأستاذ برجستراسر

الثانية: مسألة عبد الهادي شعيرة

وبمجرد وصول هذا الخطاب ذهبت إلى الإدارة ولبثت أتردد عليها أياما متوالية أحاول إنهاء هاتين المسألتين كما طلبت ، أو على الأقل الوصول فيهما إلى غاية ما فلم أفلح، وأخيرا انفرجت الأزمة أو قل أخذت تنفرج، فقد جاءنا لطفي بك السيد مديرا للجامعة وقد قابلته

اليوم وكلمته في هاتين المسألتين، فأما مسألة الأستاذ برجستراسر فقد وعد أن يسلك في حلها الطرق السياسية التي اقترحها الأستاذ واقترحتها أنت. وهو مسافر غدا إلى الإسكندرية وسيقابل الوزير الألماني وسيكلمه في ذلك. كما أنني أنا من ناحيتي سأقدم مذكرة إلى الإدارة أطلب فيها ندب الأستاذ برجستراسر للتدريس بالكلية في فصلي الدراسة القادمين (اكتوبر إلى مايو) نظير مكافأة قدرها ١٠٠٠ جنيه من ضمنها مصروفات السفر.

وكانت الإدارة من قبل ترى أن تكون المكافأة ٩٠٠ جنيه فقط بناء على طريقة اتبعتها في الحساب أصرح لك أني لم أدركها بسهولة. على أن لطفي بك وافق على التقدير الذي قدرته.

وأما مسألة شعيرة فقد رأى لطفي بك وجوب استصدار قرار من مجلس الجامعة بنقله إلى السوربون ، وقد قدمت مذكرة بذلك سيطاف بها على أعضاء المجلس ليوقعوا عليها، وأظن أن الأمر سينتهي إلى ما تريد.

هناك مسائل أخرى خلفها لي العميدان السابقان وأنا ذاكرها لك وذاكر ما اتخذته فيها من الإجراءات لعلك تمدني برأيك فيها.

أولا: مسألة أستاذ التاريخ الحديث. هذه لا تزال قائمة فقد كتبت لجنة اتحاد الجامعات البريطانية تلوم وزارة المعارف والجامعة على تأخرها في طلب من تريد من الأساتذة إلى ما بعد مايو، وقد ردت الجامعة تعتذر باستثنائية الظروف وتطلب مواصلة البحث.

ثانيا: مسألة أستاذ التاريخ المتوسط، قدم الأستاذ "كوبلند" استقالته إلى الجامعة في النصف الأول من يونيه، فأرسلت إليه إدارة الجامعة رسالة برقية وأخرى بريدية تطلب إليه فيهما العدول عن استقالته فلم يرد، وأخيرا كتب إليه مدير قلم البعثات يطلب إليه الرد عن الرسالتين المذكورتين فجاء رده بالبرق في هذا الأسبوع فقط بتصميمه على الاستقالة، ويعد أنه سيرسل خطابا يفصل فيه ما أجمل في رسالته البرقية، هنالك كتبت إلى الإدارة أطلب إليها مكاتبة لجنة اتحاد الجامعات البريطانية في ترشيح أستاذ لكرسي التاريخ المتوسط، على أن يكون ذلك بعقد لمدة سنتين وبمرتب قدره ١١٤٠ جنيها.

ثالثا: مسألة خلف المستر شيني، رأيت ألا أطلب الآن تعيين خلف أجنبي للمستر "شيني" فقد بلغني أن بجامعة "ليفربول" شابا مصريا يدرس التاريخ المتوسط واسمه (مصطفى زيادة) وأنه سيؤدي الامتحان (....) في سبتمبر القادم على الأرجح والأستاذ شفيق غربال يثني على هذا الطالب، لذلك أرى أن نحتفظ له بمحل شيني ، فلعلك موافق على ذلك الرأي.

رابعا: مسألة من يخلف "السير توماس أرنولد" ، أبرقت إلى الأستاذ "نيكلسن" فى ذلك فرد يعتذر عن عدم استطاعته قبول طلب الكلية، فأرسلت برقية أعرض عليه المجئ إلى الكلية بصفة أستاذ زائر ، ولكنه لم يرد بعد.

هذه هى المسائل المتعلقة بالأساتذة ، وهناك مسألة أخرى تتعلق بأحد طلبة البعثة الذين سافروا فى الشهر الماضى إلى أوربا، فقد كتب قلم البعثات إلى الكلية يخبرها أن الطالب نجيب بلدى ليس مصريا ولكنه يونانى الجنسية بنص شهادة ميلاده، ويطلب تحقيق هذه المسألة. استدعيت ولى أمر الطالب المذكور فقال إن ما ذكر بشهادة الميلاد من حيث الجنسية غير صحيح ووعد أن يقدم إلى الكلية المستندات التى تثبت مصرية "نجيب بلدى" وقد قدمها فعلا فأرسلتها إلى قلم البعثات عن طريق إدارة الجامعة للنظر فى قيمتها، ويمكنك أن تتصور حالة حضرة صاحب العزة السكرتير العام للجامعة وقد وقف على هذا الاكتشاف الغريب!! (....) ودمت للمخلص.

عبد الحميد العبادى

الابتـــــلاء

ويشكو العبادى من ابتلائه بمنصب العمادة المؤقتة نظرا لمشاكلها التى لا تنتهى، وذلك فى رسالة من "القاهرة فى ٢٥ أغسطس ١٩٣٠":

صديقى المفضال

(....) لاشك أنك تحب أن تعلم شيئا عن أحوال الكلية التى ابتليت بالإشراف عليها، ويحاول د. أحمد أمين التخلص منها فى الشهر القادم ، وإلقاء ذلك على عاتق غيره.. ولست مطيل التحدث إليك فأنا اليوم على ميعاد مع المدير وكامل بك مرسى للبحث فى نظام يوضع للقسم الإعدادى للحقوق – والظاهر أن النية متجهة نحو جعل الدراسة بكلية الحقوق بالفرنسية دون العربية، ونحو جعل القسم الإعدادى مدرسة شبه مستقلة يدرس الطلبة فيها اللغتين العربية والفرنسية فقط، وسيعهد إليك أنت بالإشراف على هذه المدرسة (لأنى عاوز أبث فى الطلبة روح طه روح البحث والجدل والخناق العلمى) كما يقول أستاذنا لطفى السيد.

(....) لم يرشح بعد مكتب اتحاد الجامعات البريطانية أحد للكرسيين الخاليين بالكلية :

كرسى أستاذ التاريخ المتوسط وكرسى التاريخ الحديث، غير أنه بلغنى أن المفاوضات لا تزال جارية بين الإدارة وبين المستر كوبلند بقصد حمله على العدول عن استقالته. هذا وقد قدم الأستاذ كوبلند إلى المدير تقريرا عن إصلاحات يرى إدخالها على نظام الكلية، ولم أطلع على هذا التقرير ولا بلغت الكلية مضمونة.

يظهر أن الوزارة ستفسر المادة الخاصة بتعيين عميد كل كلية بأن لوزير المعارف أن يعين عميد الكلية بعد أخذ رأى مجلس الكلية فى غير تقيد به، ويظهر أنها ستأخذ بهذا التفسير فى تعيين عميد كليتنا ويلوح لى أن النية متجهة نحو تعيين عميد أجنبى(....).

لقد تقدم للامتحان بالكلية (قسم الآداب) ٥٩ طالبا منهم ثلاث طالبات، و١٨ طالبا من حملة تجهيزية العلوم، وللالتحاق بالقسم الإعدادى للحقوق ٥٤ طالبا منهم طالبة واحدة، وقد تم الكشف الطبى على الذكور منهم فى هذا الأسبوع ، وأما بالنسبة للإناث فسيكون ذلك فى الأسبوع القادم بواسطة طبيبة تنتدبها الإدارة.

لقد أوقفت لجنة البعثات البت فى أمر بعثة كلية الآداب وطلبت إلى الجامعة بيان الطلبة الذين يدرسون بالخارج والعلوم التى هم متخصصون بها، وعدد من يدرسون بالكلية من المصريين وبيان مؤهلاتهم وما ينتظر أن تحتاج الكلية إليهم فى المستقبل من المدرسين المصريين ، وقدمت إلى الإدارة مذكرة بينت فيها وجهة نظر الكلية وضرورة الموافقة على إرسال من رشحتهم الكلية لبعثتها . (....)

خالص احترامى

المخلص

عبد الحميد العبادى

البدار . البدار

وفى الوقت الذى كانت تعانى فيه الجامعة من صعوبات توفير أعضاء فى هيئة التدريس ، كانت بعض المناصب ذات الرواتب الوفيرة تجذب أو تكاد بعض الأساتذة الموجودين بالفعل بكلية الآداب، ويعرض د. العبادى فى رسالة طريفة لهذه المشكلة التى أغضبت طه حسين، ويطمئنه أنه لا يزال صامدا، فيكتب إلى طه حسين من الإسكندرية فى ١١ سبتمبر ١٩٣٠، فيقول:

صديقى المفضال

ليت عزاما لم يفض إليك بشئ مما هو جار، وليته إذ فعل كان أفضى إليك بكل الأمر حتى لا يتجزأ غضبك بل يقع دفعة واحدة ثم يعقبه سكون الرضا بما هو كائن أو ما لابد أن يكون.

إن كلية الحقوق بعد أن صرفت النظر عن أحمد أمين أو بعد أن صرف هو النظر عنها عادت ترنو إليه، وعاد يرنو إليها، تلوح له بالدرجة الثالثة ومن ورائها الثانية فيميل إليها كل الميل، والدرجة الثالثة ومن ورائها الثانية مرجح لعمرك يرجح كل شئ ولو كان حلم السيد أحمد أمين. أما العبد الفقير كاتب هذه السطور فقد عرضوا عليه منصبا إداريا مربوطه الدرجة الثالثة، غير أن صاحبه لا ييأس من الثانية . إحم! فكاد يستخف لبه ويتزلزل يقينه.

حقا إنها لفتنة يا طه لمن كان أبا لأولاد يوشكون أن يكونوا خمسة ، ثم هم لا تشبع لهم بطن ولا تنقض لهم حاجة، هذا إلى أنه ليس من بين القائمين بأمر الجامعة من يصلح أن يكون عضوا بجمعية رعاية الأطفال.

وذكرت حفظك الله وأنت غضبان آسف، الكلية ، والصداقة، وخدمة العلم. أما الكلية فلها رب يحميها كما حمى الكعبة من قبل. وأما الصداقة فباقية ونامية بإذن الله. وأما خدمة العلم فآه! ولكن ألا يمكن خدمة العلم خارج الكلية ، أظن ذلك غير مستحيل على الله. أعود فأقول ليت عزاما أفضى إليك بكل الحقيقة ، ولكنه سامحه الله أفضى إليك ببعضها ، بخمسيها إن أردت الدقة فى التعبير. ذلك بأنه هو نفسه مرشح لمنصب (ملحق أدبى) بالمفوضية المصرية ببلاد العجم. وهو فرح بهذا المنصب لأنه سيعينه على التضلع من الآداب الفارسية ، وليقال عنه فى المستقبل (عزام الأعجم) كما قيل زياد الأعجم، وليقال أيضا عنه (إنه سابق المصريين إلى الأدب الفارسى) كما قيل عن سلمان (إنه سابق العجم إلى الإسلام). ثم إن أخانا الشيخ أمين الخولى قد عرف الأزهر له استقراره فى ثيابه الشرقية الأزهرية ، وهاهو يعرض عليه سكرتارية المشيخة الجليلة.

وزميلنا السيد إبراهيم مصطفى قد وقع اختيار الأزهر عليه لقراءة سيبويه، به، لأن الأزهريين علموا أنه سيد من يقرأ سيبويه فى هذا الأوان، على أنهم شرطوا عليه أن يعود إلى سابق ملبسه وإلا صرفوه. وها هو يجتهد فى استيفاء هذا الشرط. فياسيدى طه البدار! البدار! قبل أن يصيب قسم اللغة العربية الاستعجام. قد أعذر من أنذر، والسلام.

المخلص

عبد الحميد

تسرب الامتحانات

ويبدو أن مشكلة تسرب الامتحانات مشكلة قديمة، ففى رسالة العبادى إلى "سيدى العميد" من القاهرة فى ١٩ يونيو ١٩٣١م يقول بعد أن يتحدث عن مشاكل الجامعة والكلية مما سبق تناوله:

أما عن غيرهما فلاشك فى أنك قد سمعت بفضيحة الامتحانات العامة. فقد تسربت إلى الطلبة أسئلة الشهادة الثانوية بقسميها وكذلك بعض أسئلة الابتدائية وقد ألغت الوزارة امتحان الشهادة الثانوية وستعيده فى يوليه القادم.

وأخيرا يسرك أن تعلم أن علاقتى بالأخ أحمد أمين قد عادت إلى ما كانت عليه من الصفاء، والفضل فى ذلك يرجع إليك ثم إليه.

وفى خطابه يوم الجمعة ٩ يوليو ١٩٣١، يتحدث العبادى إلى طه حسين عن استخذاء الإدارة وتدخل المالية فى استقلال الجامعة، فيقول: ".. أما سفرى وسفر الأستاذ سامى (جبرة) فمما لم توافق عليه المالية، وذلك راجع كما قيل إلى أن الإدارة لم تشجع المالية على الموافقة على سفر سامى. كما أنها من ناحية أخرى لم تعرض طلب انتدابى بما يفهم المالية وجه الغرض منه، وعلى ذلك فلست أدرى ما يؤول إليه الأمر، أسفر أم إقامة. وعلى كل حال فهذا التصرف من الإدارة استخذاء منها للمالية وإهدار لاستقلال الجامعة الإدارى، ولو كنت عضوا بمجلس الجامعة لاحتججت على هذا التصرف احتجاجا شديدا".

المرشحون للتدريس العراق

ويتعرض د. عبد الحميد العبادى إلى ما أحدثته الوزارة الجديدة بإنجازات الوزارة السابقة، فى رسالته المؤرخة بأغسطس ١٩٣١، فيقول:

قد يهمك أن تعلم شيئا عن بعض ماجد فى البلد.. فاعلم أن النظام القديم لمعهد التمثيل قد ألغى وأن المعهد استحال إلى قاعة محاضرات عامة فى التمثيل يحضرها من يشاء، والناس فى ذلك بين حامد وناقم، فالصحف الوزارية تسبح بحمد الوزير وتهتف للشيخ أبو العيون، وصحف المعارضة تعتدى بذلك على وزارة المعارف وتعده رجوعا منها إلى الوراء فى

أمركان يجب عليها المضى فيه.

وقد نشرت صحف الصباح فى هذا اليوم أن وزير المعارف يرى وجوب الفصل بين البنين والبنات فى جميع معاهد التعليم حتى الجامعة وأنه كلم فى ذلك لطفى بك".

* * *

وتقفز السنوات منذ إبعاد صدقى باشا لطه حسين عن الجامعة لرفضه الكتابة فى صحيفة حزب الديكتاتور ، لنصل إلى سنة ١٩٣٦ بعد عودة طه حسين، حيث يكتب العبادى فى السادس من أغسطس من نفس السنة حول بعض أمور الجامعة كعادته، فيقول:

سيدى الأستاذ العميد

تحية وسلاما إليك وإلى أهل بيتك الكريم، وبعد.. فقد وصلنى خطابك الذى تظهر فيه موافقتك على اقتراح معالى الوزير، ولكنى أخبرك أن هذا الاقتراح لم يرق الراسبين من طلبة الجامعة فسعوا لدى الحكومة ورجال البرلمان فى أن تكون النسبة المئوية المنجحة ٥٠٪ بدلا من ٦٠٪ وأن يسرى ذلك على دورى امتحان هذا العام، وقد وفقوا فى سعيهم، وصدر مرسوم بذلك عرض على مجلس النواب، فوافق عليه بإجماع الأصوات، وهو الآن فى مجلس الشيوخ ولا يمضى يوم أو يومان حتى يصبح قانونا واجب التنفيذ.

أما المرشحون لوظائف التدريس بالعراق من خريجى الكلية فقد جاوز عددهم الأربعين وقد أرسلت أوراقهم إلى وزارة المعارف حسب طلب الوزارة الرسمى وموافقة المفوضية العراقية على أن تكون الوزارة هى المتولية لهذه المسألة...".



من أمين الخولى إلى طه:
لن يختلسونى!

من الذى يعلم أن [*]الشيخ أمين الخولى خريج مدرسة القضاء الشرعى، والذى لم يتخل أبدا عن الزى الرسمى لرجال الدين، كان مؤلفاً مسرحيا لفرقة أولاد عكاشة ، فألف عددا من المسرحيات من أشهرها مسرحية[1] "الراهب المتنكر ، التى عرضت فى مسرح الأزبكية وقدمت على خشبة الأوبرا بغير اسم مؤلفها، فقد اختار الشيخ لنفسه اسم "كاتب متنكر" لأنه لم يكن فى استطاعة شيخ من قضاة الشرع أن يكتب للمسرح أو يكتب اسمه فى إعلانات مسرحية".

وهذا الشيخ المعمم "أصبح إماما للمفوضية المصرية بروما، وإماما للسفارة المصرية فى برلين، وتعلم الإيطالية والألمانية وكان ذلك بين عامى ١٩٢٣ ، و١٩٢٧ عندما عاد إلى مصر مدرسا فى مدرسة القضاء الشرعى، حتى عين مدرسا بكلية الآداب فى جامعة القاهرة فى ٣ نوفمبر ١٩٢٨ بعد أن أغلقت مدرسة القضاء الشرعى أبوابها".

"ثم كان العمل العظيم الذى قام به الشيخ فى حياتنا المعاصرة ولخص فكرته فى: مناهج التجديد.. وظل طوال حياته يدعو إلى تأصيل هذه المناهج فى دروسه الجامعية ودراساته" و"هناك قضية أهم وأخطر.. وكان للشيخ فيها رأى.. وهى قضية تجديد الإسلام، وكان آخر كتبه هو كتاب "المجددون فى الإسلام".

و"الشيخ هو صاحب منهج تجديد الدراسة القرآنية على أساس علمى عصرى" و"هو صاحب منهج تجديد البلاغة والنحو" وكانت جماعة الأمناء التى أنشأها الشيخ أمين الخولى فى عام ١٩٤٤ برئاسته وعضوية أبنائه وتلاميذه من طلبة كلية الآداب قسم اللغة العربية قد لعبت دورا مؤثرا فى الأربعينات، والخمسينات والستينات، كما يقول الأديب فاروق خورشيد[2] "لا يشك أحد أن مجلة الأدب التى صدرت فى إبريل عام ١٩٥٦ عن جماعة الأمناء" "قامت بفتح آفاق النشر أمام أجيال جديدة بالفعل من الأدباء الشبان أو الصاعدين" ، "ولعل هذا الاتجاه كان يكمل اتجاه أمين الخولى إلى تأصيل فكرة تواصل الأجيال من ناحية، وفكرة فتح الأبواب أمام كل المواهب من ناحية أخرى، لقد أوجد الخولى مدرسة بتلاميذه، حملت المجلة أفكارها وكان الشيخ أمين الخولى بأفعاله وأقواله نموذجا لرجل الدين المستنير.

(*) مواليد أول مايو ١٨٩٥ بقرية شوشاى بمحافظة المنوفية.

(١) الجديد ١٩٨٠/٣/١٥ عن مقال لتلميذه عبد المنعم شمس.

(٢) المصور ١٩٨٣/١٢/٣٠.

وفى الجامعة حيث عمل الخولى مع طه حسين يقول[٣] "كنا نفهم أن البيئة الجامعيــة هى بيئـة الدرس المبتكر الموصول بالحياة وصلا إيجابيا، فكنا نعمل على تحقيــق ذلـك ، وعلـى إرسـاء، فكـرة الدرس الحر المتجدد فى نفوس طلابنا".

وفى رسالة الخولى إلى طه حسـين يبـدد شـكوكه حـول الأخبـار التـى وصلتـه حـول اعـتزام تركـه التدريس فى الجامعة. فيقول:

تحريرا فى ١٩٣١/١/١٠ مصيف ساحل البرلس

إلى الصديق النبيل

تحية وتمنيات طيبة. وصلتنى رسالتك العذبة ، فكانت نفحة من جو فرنسا لطفت جـوى الحار الجاف فى جميع مناحيه ، وصلتنى حين أتهيأ للكتابة إليك بعدما حرمت من رؤيتـك فـى المنزل فى اليوم الذى تواعدنا عليه . لكن كادت مشاغلى تحـول حتـى بينـى وبـين أيـام علـى الشاطئ لولا مغالبة شديدة طويلة، لقد حال سـفرى مـع مـرض ابنـى الكبـير دون مسـارعتى بالرد. وزاد ذلك نسيانى العنوان فى مصر ، فمعـذرة عـن هـذا التـأخر كلـه، ولى فـى جميـل تلطفكم وكرم خلقكم ما يشفع لى ويقدر حالتى.

ذكرت أيها الصديق النبيل أمر اختلاسـهم لى مـن الجامعـة - كمـا سميتـه - وتركـت لى الرأى فى ذلك، وأنـا فـى هـذا أجـرى علـى ضـرب مـن الإيمـان أو الفلسـفة أو الهـرب مـن المسئولية أو كمـا تسـميه فـلا أقـدر ولا أحكـم ، وكذلـك لزمـت مذهبـى فـى هـذه المسـألة العرضية فلم أعد أعرها اهتماما ولم أجد فيها ما يستحق إخبارك فلم أفعل، وإنمـا كـان كـلام مـن هنـا وهنـاك ورد فيـه ذكرهـا، ولا أزال أرى ألا أعيرهـا عنايـة مـا، وقـد أحسـنت كـل الإحسان إذا لم تقف عندها ولم تكترث بها.

وذكرتَ المحاضرة وأنك من أجلها تفكر فـىّ ، فانـا سـعيد أتم السـعادة بهـذا التفكـير ، ظافر بأكثر مما يستحق عملى من جزاء، وأن فى لـذة الـدرس والبحـث كمـا تعـرف - لـذة وسعادة كانت تكفى جزاء بل تربى، ولكنك بما عودتنا من نبل وكرم خلق تأبى إلا أن تجزينـا أو فى الجزاء بل تزيد. أتمنى أن تكون والأسرة الكريمة على أتم ما يكون من صحة وطمأنينـة بال حتى تنال حظك من الرياضة وتنهض به من عمل عظيم فى تلـك الأجـازة، وإنـى أرسـل إليك وإلى الأسرة أطيب تحية وأصدق سلام من صديق مخلص.

أمين الخولى

(٣) الإذاعة والتليفزيون ١٩٧٩/٤/١٤.

عبد الوهاب عزام خادم الإسلام

د. عبد الوهاب عزام الذى خدم العروبة والإسلام مفكرا وأديبا وأستاذا جامعيا ودبلوماسيا ومترجما ، قدم إلى العربية شاعر الإسلام محمد إقبال وقال إنه أول من حمل إلى الناس كافة وإلى المسلمين خاصة فى هذا العصر رسالة الأمل والقوة الروحية والحياة، ومن الآثار التى تركها عزام "النفحات والشوارد" "محمد إقبال حياته وشعره" ، "مهد العرب"، "رحلات" ، "التصوف"، وترجم الكثير من الشعر الفارسى والتركى، وعمل مراقبا عاما لجمعيات الشبان المسلمين حتى وفاته، وكان عضوا بمجامع سوريا والعراق وإيران ، فضلا عن عضويته بمجمع اللغة العربية، ولن نجد أفضل من طه حسين ليحدثنا عن عبد الوهاب عزام صاحب الحياة العريضة القصيرة، منذ ولد فى أول أغسطس ١٨٩٥ بقرية الشوبك محافظة الجيزة، ووفاته ١٩٥٩ ، وقد نعاه طه حسين فى مجمع اللغة العربية فقال عنه(*).

عرفته حين كان طالبا فى مدرسة القضاء وكان يختلف إلى دروسى فى الجامعة المصرية القديمة، وأشهد لقد كان أنجب الذين كانوا يختلفون إليها. كان من تلاميذ هذه المدرسة التى تعلم فيها المعممون من طلاب الأزهر إذ ذاك، كان يحسن لغتين أجنبيتين، ولست أنسى عجبى حين أردت أن أقرأ مع تلاميذى فى الجامعة كتابا من كتب أرسطاطاليس فى النظام السياسى لمدينة أثينا، ولم يكن هذا الكتاب قد ترجم إلى العربية ، وأردت أن يقرأ أحد التلاميذ فتقدم عبد الوهاب يقرأ لى وأفسر أنا له ولزملائه. ومرة أخرى أردت أن أقرأ معهم مسرحية من مسرحيات أرستوفان بالفرنسية فكان عبد الوهاب الذى يتقدم للقراءة دائما.

ثم افترقنا، ذهب إلى لندن فى المفوضية المصرية هناك ، وفى أثناء ذلك اختلف إلى دروس الجامعة البريطانية – جامعة لندن – وتخرج فيها بعد أن تخرج فى مدرسة القضاء وبعد أن سمع الدروس، وإذا لم تخنى الذاكرة فقد ظفر بالليسانس من كلية الآداب القديمة من الجامعة المصرية الحرة.

ثم استدعيناه إلى كلية الآداب فى الجامعة المصرية الحكومية فرأيته وقد كان تلميذا لى يصبح زميلا لى فى كلية الآداب، بدأ مدرسا فى الكلية وما أسرع ما رقى إلى أستاذ مساعد ثم إلى أستاذ ثم أصبح عميدا لهذه الكلية، ثم افترقنا مرة أخرى حين اختطفه السلك السياسى من بيننا فمضى

(*) جلسة المجمع ١٩٥٩/٣/٢٥.

هو يطوف فى أقطار الأرض كما يقول المسعودى:

تيمم أقطار البلاد فتارة لدى   شرقها الأقصى وطورا إلى الغرب

فكان فى البلاد العربية وفى الهند وفى الباكستان. كنا نلتقى من حين إلى حين فى المجمع اللغوى حين يتاح له الإلمام بمصر. وأعترف بأنى لم أعرف أحدا كان أخف روحا ولا أسمح نفسا ولا أسجح خلقا ولا أرجح حلما من عبد الوهاب عزام. كان حديثه ظرفا كله حين يمزح وحين يجد، وكان إلى هذا كله صاحب نزعة عربية حرة، سمحة مع ذلك، لا تعصب فيها ولا إلحاح. كان مؤمنا بأن وطنه هو أرض العرب كلها، لم يكن يؤمن بأنه مصرى فحسب، وإنما كان فى كل البلاد العربية مواطنا. كان يرى نفسه مواطنا عربيا ينزل فى قومه حيث حل من هذه البلاد. ثم اقتضت به الأسباب السفر، فسافر إلى الهند وباكستان وألم بإيران وزار تركيا. وتظهر فيه نزعة أخرى فهو مسلم مخلص فى إسلامه، سمح مع ذلك فيه، وهو مؤمن بأن كل دار الإسلام وطن له كما كانت الحال فى العصور الإسلامية الأولى. وكذلك كان عبد الوهاب مسافرا قبل أن تشغله ظروف السياسة، وكان كثير الأسفار إلى البلاد العربية وإلى إيران وإلى تركيا، وكان يشهد بعض المؤتمرات العلمية – مؤتمرات المستشرقين بنوع خاص – وتشرفت بأن يكون زميلا لى حين شهدنا مع صديق لنا رحمه الله، أحمد أمين – شهدنا جميعا مؤتمر المستشرقين فى مدينة بروكسل فى بلجيكا. وأشهد الله فقد كان الوهاب مؤنسنا فى تلك الأيام بدعاباته الحلوة، وإن أنس فلن أنس مداعبته لأستاذه وزميله أحمد أمين حين ذهب أحمد أمين إلى الحلاق فى بروكسل ليصلح له من شعر رأسه وكان أحمد أمين يتكلم الإنجليزية ولا يتكلم الفرنسية، فجعل الحلاق يعبث فى شعره وكلما ألقى عليه سؤالا أجاب عليه "Yes"، حتى إذا فرغ الحلاق نظر أحمد أمين فى مرآته فلم ير فى رأسه شيئا وإنما كان الحلاق قد أتى على ما كان فى رأسه من شعر، وتندر عبد الوهاب بهذا فى أبيات لا أذكر منها مع الأسف إلا هذا البيت الذى لا يستقيم عربية لأنه لم يكن يريد أن ينظم شعرا عربيا:

ونظر الأستاذ فى المرايه   فلم يجد فى رأسه شعرايه

وكانت حياة عبد الوهاب عزام بين أصدقائه فكاهة متصلة ودعابة حلوة، كان هو الذى يؤنس جلسائه، سواء زارهم أو زاروه، كان حلو الروح عذب الحديث مشرق اللفظ محببا إلى النفس لا يستطيع الإنسان أن يفر من هذه الجاذبية التى كان يمتاز بها.

وهو قبل كل شئ كان ممتازا بين زملائه جميعا فى الجامعة لعنايته الشديدة جدا باللغات الشرقية. كان أستاذا للغة الفارسية فى كلية الآداب وهو أول أستاذ مصرى علم هذه اللغة لا فى كلية الآداب فحسب بل فى مصر فى هذا العصر الحديث. وكان متقنا للتركية ثم لم يلبث أن تعلم الأردية، كان حريصا أشد الحرص على أن يحسن اللغات الشرقية الإسلامية ولم يكن علمه بهذه

اللغات علم رجل ذى أثرة، يخص نفسه بالعلم ولا يفيض منه على المصريين والعرب شيئا، وإنما كان رجلا ذا إيثار يتعلم لنفسه من جهة ويتعلم قبل كل شئ لينفع قومه من جهة أخرى، وما رأيته فى يوم من الأيام الا مشتغلا بترجمة كتاب من كتب الأدب الفارسية أو التركية أو الأردية .

وبفضل عبد الوهاب عزام، استقر تدريس اللغة الفارسية والتركية فى جامعة القاهرة وانتقل منها إلى جامعات أخرى ومعاهد أخرى للتعليم. وبفضل عبد الوهاب عزام أخذنا نعرف أدب الفرس ونعرف من آثارهم وأمورهم شيئا غير قليل.

ويكفى أن أقول أن عبد الوهاب عزام هو الذى أحيا "الشاهنامه" وكانت الشاهنامة قد ترجمت فى أيام المماليك أو فى أواخر أيام الأيوبيين إلى اللغة العربية ثم أهملت ونامت فى المكتبات. ولم يذكرها أحد ولم يعرف عنها شيئا حتى تنبه عبد الوهاب عزام فأحياها وأتم ما نقص منها وأعاد النظر فى الترجمة القديمة فصححها وجعلها ملائمة حقا للأصل الفارسى وتقدم بهذا الكتاب "شاهنامة" وبدراسة عنه ليظفر بدرجة الدكتوراه من كلية الآداب فى جامعة القاهرة.

ثم مضى فى ترجمة الآداب التركية والفارسية والأردية. والأمة العربية مدينة لعبد الوهاب عزام أولا: باحياء الشاهنامة ، وثانيا: بأنه نشر فى اللغة العربية شعر إقبال سواء منه ما نظم فى اللغة الفارسية وما نظم فى اللغة الأردية.

والأمة العربية مدينة له قبل هذا كله وفوق هذا كله بأنه وهب للأمة العربية تلاميذ نجباء يعلمون الفارسية فى جامعاتنا الآن ويمضون على سنته فى تعريب الأدب الفارسى ووصل الأسباب بين المسلمين من العرب والمسلمين من غير العرب. ولست أريد أن أسمى أحدا من هؤلاء التلاميذ ولكنكم ستسمعون الآن لتلميذ من تلاميذه هو الأستاذ الدكتور يحيى الخشاب وهو خليفته على كرسى الأدب الفارسى فى كلية الآداب.

ولم يكن عبد الوهاب عزام يشغل نفسه بما يشغل المسافرون به أنفسهم، ولكنه دائما مفكر، وكان دائما باحثا، كان دائما مفكرا فيما ينفعه وينفع به أمته. يذهب إلى البلاد العربية السعودية فيحاول أن يعرف موقع عكاظ ويقف عند دار خديجة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ويذكر لنا أشياء كثيرة قلما كان الناس يذكرونها فى هذه الأيام عن البلاد العربية. ويذهب إلى الهند وإلى الباكستان فيفرغ لترجمة إقبال ويترجم له طائفة صالحة من دواوينه.

وكان أغلب شئ على عبد الوهاب عزام فى حياته كلها منذ عرف اللغة الفارسية دراسته للمتصوفة وشعرهم وعلومهم، ولم يستطع أن يخلص من هذه الدراسة فقد غلب عليه التصوف وأصبح هو نفسه صوفيا إلى حد ما، كان يعايش الناس وكأنه واحد منهم ولكنه كان يحيا فيما بينه وبين نفسه حياة خاصة جدا لا يعرفها إلا الله وحده لأن هذه الحياة الخاصة كانت موقوفة على

معرفة الله، موقوفة على التفكير في الله، موقوفة على الاتصال بالله . ولا يكاد كتاب من كتب عبد الوهاب يخلو من هذه النفحات الصوفية، وهو إذ يترجم لإقبال إنما هو يترجم لصوفى مثله. ولم تكن صوفية إقبال صوفية انقطاع عن الناس والدنيا وإنما كانت صوفية إصلاحية يريد بها أن يصلح من حال المسلمين جميعا.

فترون أن عبد الوهاب عزام مع أن حياته لم تطل كما نرجو أن تطول ، قد أتيحت له حياة عريضة كأعرض ما تكون الحياة ولكنها لم تكن كحياة ابن سينا تلك التى كان يؤثرها على الحياة الطويلة فقد كان ابن سينا يقول أنه يؤثر الحياة العريضة على الحياة الطويلة، ذلكم أن حياة ابن سينا كانت عريضة لنفسه وجسمه فهو قد ملأ الدنيا فلسفة ولكنه قد أخذ نصيبه من الدنيا ونعيمها ، وعسى أن يكون هذا هو من الأسباب الى قصرت حياته. أما عبد الوهاب عزام فقد كانت حياة عقله وحدها هي العريضة، كانت عريضة بإنتاجه الذى لم يهدأ في يوم من أيامه منذ فرغ من طلب العلم – وأريد منذ فرغ من طلب العلم على ذلك النحو النظامى المألوف في المعاهد والجامعات، فقد عاش طالبا للعلم ومات وهو يطلب العلم.

ولقد رأيته آخر مرة معنا فى المجمع اللغوى يجادل عن اللغة العربية ويجادل فى إصلاح الكتابة العربية ويحاول ما استطاع أن يتم هذا الإصلاح دون أن يمس هذه الكتابة العربية التى بلتها العصور. كان ذلك يوم الخميس ثم سافر إلى الحجاز وبعد ذلك بيومين إلى نجد ثم لم يمكث إلا أياما قليلة حتى عاد إلى وطنه، ولكنه عاد إلى وطنه جسما بلا روح، أما روحه فليس لها وطن فى هذه الدنيا وإنما وطنها هو ذلك الوطن الذى عاشت له وعاشت به ، ولم تفكر حين كانت تخلو إلى نفسها إلا فيه وهو هذا الوطن الروحى القدسى الذى لا يتاح إلا للأخيار الذين سبق قضاء ربهم برضائه عنهم أبدا.

يرحم الله عبد الوهاب عزام ويعزى فيه أهله ويعزى فيه زملاءه ويعزى فيه الأمة العربية كلها، وما أرانى مبالغا حين أتمنى على الله أن يعزى عنه الأمة الإسلامية كلها فقد كان عبد الوهاب عزام فوق هذا كله خادما مخلصا للإسلام فى حياته كلها.

سرنى أن خسرتُ الصدق

وفى رسالة لعبد الوهاب عزام إلى طه حسين يعلق فيها على ما أسماه العميد مكرة العام الماضى، والتى تدور حول إخبار عزام للعميد بنية أحمد أمين ، وأمين الخولى، التخلى عن التدريس بكلية الآداب لإغراءات مادية أمامهما، ولكنهما كذبا هذه الأنباء التى أقلقت طه حسين عميد

الآداب، بينما الذى ترك التدريس هو عزام نفسه، بعد أن أغراه السفر للعمل الدبلوماسى ، يقول عزام:

سيدى الأستاذ الجليل

أقدم لك وللسيدة والنجلين أخلص تحية، وأدعو لكم بكل عافية وسعادة

جاء الكتاب الكريم وأنا فى غمرات من فهرس الشاهنامة ومقدمتها ومما ورطت نفسى به من العمل فى كتب الأمير إبراهيم حلمى، ومن حر الصيف، فكان كتاب سيدى روحا خففت بعض الآلام ، وجلا بعض الغمرات فأنشدن مع مهيار:

أذكرونا مثل ذكرانا لكم ـــ رب ذكرى قربت من نزحا

ولسيدى الشكر العظيم على هذه الذكرى

وبعد فإن ما سميتموه مكرة العام الماضى كانت صدقا ولكنى حمدت الله على أن انقلب الأستاذان عما عزما عليه، فانقلب الصدق كذبا، وقد سرنى أن خسرت الصدق وربحت الأستاذين الصديقين. وفى كلية الآداب هذا العام أخبار وأخبار "وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون" وستعلم حين تقدم أنى لو أردت لأرسلت.

ضاق علينا زمن الأجازة ولا أزال ناصبا ، وأقصى ما أرجوه أن أظفر بأسبوعين قبل بدء الدراسة ، فادع الله أن يظفرنى بهما.

ثم أختم بتكرار التحية والتسليم وتقديم أوفر الشكر

١٣ أغسطس ١٩٣١ ـــ المخلص

عبد الوهاب عزام

حـــزن وحنين

وفى رسالة تنقصها السنة التى كتبت فيها يستعيد عبد الوهاب عزام حنينه وذكرياته مع طه حسين ، بعد أن فارقه إلى عمله الدبلوماسى فى الخارج فيقول:

أستاذنا الدكتور الكريم

السلام عليكم وكل عام وأنتم بخير

ولعلكم كما أرجو عافية وسروراً.

وبعد.. فقد سمعت صوت أستاذنا يتحدث عن الأدب العربى وما يأخذه المحدثون عليه،

فعادت بى الذكرى إلى سنوات هى أحسن ما فى العمر ، وأحبّه.. وأوغـل فكـرى فـى ذكـرِ كثيرة لسنوات طويلة، منذ جلست إليك لأستمع تاريخ اليونان، وأقرأ عليك كتاب تَسـيديد إلى أن تركنا الجامعة أو افترقنا فى الجامعة.

ويعلم الله أنى لأشتاق إلى مجلسك وحديثك حيثما كنت من الجزيرة العربيـة أو أرجـاء الهند.

وقد منعنى من الكتابة إليك بعـد تجشـمك المشـقة للتكلـم فـى احتفـال أهـل الجـيزة أن نفسى من هذه الذكريات ، وأخذها من الحنين ومن الحزن ما جعلها تهاب الكتابة وتشفق من إمساك القلم لتخط إلى الأستاذ بعض ما جال فى خاطرى ، بل صعد من زفراتـى وسـال مـن مآقىّ.

إن إعز شئ فى هذه الدنيا ذكرى خلاّن اجتمعوا على طلب العلم فجمعهم الحب حينـا ثم افترقوا ، ولست أدرى أهذه الذكرى أعظم لذة فى الحياة أم أشد ألم.

لقد قلت مرة إن عيب الدكتور طه فى معاملته إخوانه أنه لا يضن عليهم بما يسـتحقون وما لا يستحقون ، وأنه يسرف فى رعايتهم، ويستحل المحاباة لهم.

اعترف بهذا من اعترف وجحده.

وكذلك صدقت كلمتى يوم احتفال الجيزة. ويشـهد الله لقـد عزمـت علـى أن أزورك بعدها، فلما فاتتنى الزيارة عزمت على الكتابة فما نسيت وما تهاونت ، ولكن لم أجرؤ علـى الكتابة قبل هذه الساعة. وقد أقدمت عليها وفى النفس حنين وفى العين دموع. ثـم ختمتهـا عجزا عن المضى فيها. وحسبى هذا العجز شكرا وثناء.

والسلام على أستاذنا الكريم ورحمة الله

كراجى ١٩ رمضان

٢٣ مايو

المخلص

عبد الوهاب عزام

الإسلام وأصول الحكم
بين على عبد الرازق وطه حسين

يعرف(*) الشيخ على عبد الرازق بكتابه القنبلة "الإسلام وأصول الحكم.. بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام" والذى حطم به آمال الملك فؤاد فى تنصيب نفسه خليفة للمسلمين بعد إلغاء خلافة أتاتورك، حيث قرر على عبد الرازق أن الإسلام دين فقط وليس نظاما للحكم، وأن الخلافة لا أصل لها فى الدين ، وبإيعاز من الملك تم اضطهاده وإخراجه من زمرة العلماء، وإخراجه من وظيفته كقاضى فى محكمة المنصورة ، وبعد فصله حصل على الدكتوراه" فى الاقتصاد من جامعة اكسفورد، وبعد وفاة الملك فؤاد بدأ يعود إلى الحياة العامة وتولى وزارة الأوقاف.

وقد ارتبط طه حسين بآل عبد الرازق وكان دائم التردد على دارهم بل والإقامة فيها، وهم الذين ساعدوه كثيرا فى بعض المحن والأزمات المادية التى واجهها. ولم يتردد طه حسين فى الوقوف إلى جانب الشيخ على عبد الرازق فى محنته وراح يكتب "إيه أيها الطريد من الأزهر تعال نتحدث ضاحكين عن هذه القصة المضحكة.. يجب أن نحمد الله على السلامة.. فلو أننا فى تلك العصور التى يحكم فيها الأحبار والكهان لحرقت مع كتابك".

وقد كان طه حسين على موعد مع محنة شبيهة عندما أخرج كتابه "فى الشعر الجاهلى" ، ولم يعبأ "برأس الذئب الطائر" ، مما جعل البعض يظن أن طه حسين نفسه هو مؤلف "كتاب الإسلام وأصول الحكم".

والعلاقة بين طه وعلى عبد الرازق قديمة كما يقول(1) "عرفت الأستاذ على عبد الرازق منذ أيام الطلب فى الأزهر، ولم تقتصر علاقتى به وحده فقد شملت الأسرة كلها. وكانت لنا جلسات ممتعة فى بيت آل عبد الرازق فى عابدين ، وأذكر أننى رثيت والدة على عبد الرازق وكذلك والده وكان هذا الرثاء شعرا ونشر ذلك فى "الجريدة" "إن صلتى بعلى عبد الرازق كانت وثيقة جدا، وأذكر أن عليا وهو طالب فى الأزهر قد استأجر حجرة قرب الأزهر ليستريح فيها بين الدروس ، نظرا لبعد منزل الأسرة عن الأزهر، وكان يصر على أن أذهب معه إلى هذه الحجرة

(*) مواليد ١٩٠٨ بقرية أبو جرج بمحافظة المنيا.

(١) طه حسين يتحدث عن أعلام عصره – د. محمد الدسوقى.

طوال فترة بقائه فيها، وكنا نقضى الوقت فى مذاكرة بعض العلوم وقراءة كتب الأدب" وبعد صدور الحكم على الشيخ على عبد الرازق "كتبت مقالين فى "السياسة" عن هذا الموضوع، وهاجمت شيوخ الأزهر لتجريدهم الشيخ على عبد الرازق من درجة العالمية وإبعاده من القضاء الشرعى، وخاصمت بعض هؤلاء مع اعترافى بفضلهم علىَّ مثل الشيخ سيد المرصفى. بسبب اشتراكه فى محاكمة الشيخ على" "والواقع أن الملك كان وراء محاكمة الشيخ على، كما كان من وراء ما أثير حول كتاب "الشعر الجاهلى"، وأذكر أن المرحوم عبد العزيز فهمى كان وزيرا للعدل حين صدر الحكم ضد الشيخ على فاستقال احتجاجا على هذا التصرف(**)، على أنى قرأت أصول كتاب الشيخ على قبل طبعه ثلاث مرات، وعدلت فيه كثيراً" (***).

وسوف تدلنا الرسالة التى كتبها الشيخ على عبد الرازق إلى طه حسين على عمق الصداقة بينهما، وطرافة الجدل بينهما حول قضية : من أولى بالاهتمام : السياسة أم العلم؟

ملوك الشاى

يقول الشيخ على عبد الرازق فى رسالته:

عزيزى طه

أحييك وأحيى زوجتك العزيزة وأنجالك وأبلغكم جميعا تحية عائلتى وأرجو أن تجدوا فى مصيفكم من الراحة والمتاع ما يزيدكم عافية وصحة وسعادة، ولعل أخانا مصطفى، واصل إليكم قريبا، فقد أنبأنى أنه اعتزم أن يبحر من مصر يوم ١٧ الجارى وأظن أنه ذاهب مباشرة إلى "ليدن" عن طريق باريس، أما أنا فمصيف بالإسكندرية مع زوجتى فى منزل استأجرناه، وقد وجدنا والحمد لله مقنعا فى هذا المصيف المتواضع وغنينا بمنظر البحر وهوائه وبمعيشتنا القانعة الهادئة فوق ربوة تشرف على البحر من قريب، وترينا حركة التيارات وتسمعنا صوت الأمواج، ونجد عندها سكنا ودعة واغتباطا، وهنيئا لقوم آخرين المصايف الأخرى. وجميع العائلة تقريبا فى أبو جرج. وكلنا بخير والحمد لله.

لقد سرنى كثيرا أننى خطرت ببالك، وسرنى أكثر أنك كتبت إلىَّ وأعجبنى هزلك وجدك، ونصحك ولومك، وخطأك وصوابك، وكل ما كتبت، فشكرا لك وهات زدنا من

(**) وانهار الائتلاف الحكومى وقتها.

(***) ربما هذا ما حدا بالبعض إلى الاعتقاد بأن مؤلف الكتاب هو طه حسين.

هذه الأحاديث، على أن شكرى إياك وإعجابى بك، وسرورى من أنك تفضلت فذكرتنى، وكتبت إلىّ، لا تمنعنى من مخالفتك على بعض ما قلت خطابك. لا أبالى ضاق صدرك بهذا الخلاف أم اتسع، فقد أخذ الله علينا نحن الزعماء ألا نقر الناس إلا على الحق. ونحن نعلم أنكم يا رجال النبوغ العبقرى أحرج الناس صدراً بمن يخالفكم أو ينقدكم، وألينهم أذنا لسماع المديح والتمليق، ولكن الذى بنى على هذه الصفة نفوسكم، بنى نفوسنا على حب الخلاف والجدل واستكراه الملق والمديح، فأقام بذلك أسباب التفاوت كبيرا بين الزعامة الحقيقية والنبوغ الحقيقى حتى لا ينبغ زعيم ولا يتزعم نابغ، ولا يتعارف نابغ وزعيم. ولولا أن الله خرق لك القاعدة وجعلك بين رجال العبقرية شاذا فجمع فيك بين النبوغ والزعامة، لما كان للتعارف بيننا من سبيل، ولكن الزعامة دوحة تضمنا معا، ثم يميزك بعد ذلك النبوغ المعبقر، فإذا نحن مختلفان، وإذا بعض الذى قلت فى خطابك الأخير يثير فى نفسى إنكاراً عليك ويغريها بالشغب والجدل. ولقد يكون من اللغو أن آخذ الآن فى مناقشتك بعد إذ تبينت فيك اجتماع العبقرية النابغة والزعامة، وأنك تضيق صدراً بالخلاف والنقد، وتلين أذنك لسماع المديح والتمليق، ثم يتسع صدرك فتحب الخلاف والجدل، وتكره الملق والمديح وأن الله ألف فيك بين الغريب والغريب، والنقيض والنقيض، فأنت تخلص ملحدا، وتلحد مخلصا، وأنت تجد هزلا وتهزل جدا، وأنت تطول أيامك فى باريس وتقصر، وأنت عن أصدقائك راض ساخطا وساخط راضيا. وبعد فهل يكون إلا من تخليط النبوغ بالزعامة أن يجد المرء شيئا من اللذة المرة فى أمر من الأمور.

ولقد نعرف نحن الزعماء فقط أن المرء يكون على نوع من التساهل لذيذا، فأما اللذة فلا نعرفها إلا حلوة ولا نستسيغها إلا كذلك فإذا أُمِرْت فانحراف والعياذ بالله فى الصحة وشئ فى الذوق، فأما أنتم أيها الزعماء النابغون فمذاهبكم فى الأمور غير مذاهبنا، وحكمكم عليها غير حكمنا، فعندكم البارد والحار، والمربع والمدور، والسرور الحزين والبكاء الضاحك، ثم هل يكون إلا من تخليط النبوغ بالزعامة أن تريدنى على أن أفرغ وإياك "لهذا الجهاد العقلى الذى يحلو ويمر ويلذ ويؤلم، ولكنه يفيد الناس ويفيدنا نحن على كل حال" "وأن أترك السياسة لأصحابها وأصرف نفسى عن هذا النحو من اللعب المضنى إلى شئ من الجد فى العلم والدين" إلخ. لو أريت أيضا أن أجعل هذه الدعوة موضع جدل بيننا بعد الذى قلت لك من قبل فلعل ذلك كلام جمع الله فيه بين أسرار الزعامة وأسرار النبوغ مما لم نصل إليه ولم نهتد بعد إلى حكمته ومعناه، ولكن الذى يستطيع أن يفهمه أمثالى من فقراء النبوغ والعبقرية هو أن مجال السياسة خير من مجال العلم وأجدى، وإلا فتلكن

السياسة والعلم على حد سواء. أما أن يكون هذا الجهاد العقلى الذى ذكرت خيرا من السياسة فشئ تقولون به أنتم نوابغ العلماء وحدكم - إلا فقولوا - لقد أخشى أن أكون من الملحدين فى العلم بأشد من إلحادك فى السياسة ، وأن يكون إنكارى عمل العلماء أكثر من إنكارك عمل السياسيين.

سألت مرة بعض الإخوان: ماذا يعيب الكون لو أن الله أرسل فى لحظة واحدة شيئا يدمر كل ما فى المكاتب العامة والخاصة من كتب قديمة وحديثة مطبوعة ومخطوطة، فلم يترك كتابا ولا صحيفة؟ أفهل يرجع ذلك بالعالم إلى الوراء، وهل يغير من نظامه شينا؟ والآن أوجه إليك هذا السؤال وأزيد فيه، لو أن الله جمع أولئك العلماء وأعنى فطاحلهم - وفطاحل العلماء عندكم هم المنقطعون للعلم لا يريدون غير العلم - فرفعهم إلى السماء فى لحظة واحدة، أوخسف بهم الأرض حتى لم يبق فوق ظهرها كتاب ولا عالم من أولئك العلماء ، أفترى هل يضطرب لذلك شئ من نظام الكون وتنحط درجة هذا التمدن الحاضر، أم يمضى كل شئ فى طريقه قدما كأن لم يحدث حادث ، ولم ينقص من الدنيا عنصر من عناصر كمالها وبهجتها؟

وهل سيتعطل سير المراكب أو الترامويات أو البوابير أو الأتومبيلات أو الطيارات، وهل تتأثر أثمان القطن وأسعار البورصة، وهل تسقط وزارة أو تتغير حكومة، أم ماذا يحصل فى الأرض أم فى السماء؟

إن غاية ما يمكنكم أن ترفعوا إليه قدر هذا العلم أن تجعلوه حشيشا كالذى يحرقه الحشاشون، أودخانا يدخن، أو أفيونا يبتلع، أو خمراً تشرب، وغاية ما تصل إليه دور الكتب أن تكون غرزة أو قهوة أو خمارة ، وغاية أولئك العلماء ، وإياهم أعنى - أن يكونوا فى طبقة ملوك الشاى وأهل الكيف البارعين تطاردهم وتقاومهم وتنابذهم ، فإذا منالهم أذى بكينا عليهم وقلنا كانوا جمال الأرض ومظهر التجليات الفنية ، وغذا الأرواح، كما بكت الجارية العجوز عمر بن أبى ربيعة لأنه كان أمير الغزل وشاعر التشبيب والنسيب.

فأما السياسة فأقل شأنها فى مصر أن ترفت عمدة أو تعينه، وأن تقدم موظفا أو تؤخره، وأن ترهب حاكما أو تؤمنه ، وأن ترضى أناسا أو تغضبهم ، فإذا ما ارتقت عن ذلك شينا، فشركات تنشأ، وقناطر تبنى واحتكارات تعطى، ومشروعات - أعزك الله - قد تفيد الناس وتفيدنا نحن على كل حال . فإذا ما ارتقت عن ذلك فثمت من النعيم والملك الكبير ما تعرف وما لا تعرف، وما تفهم ومالا تفهم من لذة غبرة مرة، ومن جهاد يحلو فلا يمر ويلذ فلا يؤلم.

وبعد فأنت تشكك كثيراً فى أن الزعامة السياسية مخصبة منتجة، فهلا شككت كذلك فى أن الجهاد العلمى مخصب أيضا ومنتج؟ وهلا تأذن لى أن أشكك أنا ذلك الشك وأن أستعير بعض عباراتك وطريقتك فى التدليل، فأشفق عليك من زعامتك العلمية ، فهى ثقيلة شاقة لا تخلو من مرارة ، وربما شككت كثيراً فى خصبها وانتاجها لا لأنك عاجز عن أن تأتى بالمعجزات وتغير الحال بين مشرق الشمس ومغربها ، بل لأن بلادنا لم تنضج بعد ليشتغل فيها أمثالك بالعلم، فمثلك إنما ينتج بشرطين : الأول أن يشتغل فى بلد حر حقا يحب الحرية كما يحب الحياة، ويحرص عليها كما يحرص على الهواء أو الماء، وما تزال امام مصر مسافة بعيدة جدا يجب أن تقطعها قبل أن تبلغ هذا الطور. الثانى أن يشتغل فى بلد قد بلغ الرشد وجاوز الصبى ، ومازلنا والحمد الله فى العلم أطفالا وصبيانا، فلو تركت العلم لأصحابه وصرفت نفسك عن هذا النحو من اللعب المضنى إلخ. وأرانى قد أطلت ولما أبلغ من القول ما أريد، ودون أن أبلغ المراد مسافات أخرى طوال قصار، ومتعبة مريحة، وخفية واضحة، أو لعلى قد بلغت بك الغاية من حيث تدرى ولا تدرى.

فإن كنت لا تدرى فتلك مصيبة. وإن كنت تدرى فالمصيبة أعظم.

ففكر فى هذا وسأفكر فيه أيضا حتى إذا التقينا إن شاء الله فقد ننتهى إلى قرار.

والسلام عليك ورحمة الله

٨ أغسطس ١٩٣١ بالإسكندرية

علي عبد الرازق

الشيخ مصطفى عبد الرازق
صاحب أول عمامة فى مجلس الوزراء

الشيخ مصطفى عبد الرازق(*). (1)هو أول وزير يدخل مجلس الوزراء وفوق جسمه الجبة وليس البدلة الأفرنجية ، وعلى رأسه العمامة وليس الطربوش، وفى داخل رأسه مزيج رائع من خلاصة أفكار الأفغانى وآراء الشيخ محمد عبده، لقد كان وزيراً للأوقاف، تعلم فى الأزهر، والتحق بجامعة السوربون ، وألقى محاضرات فى جامعة ليون، وعمل أستاذا للفلسفة بآداب القاهرة، وصار شيخا للأزهر فكان أول من أدخل اللغات الأجنبية إلى الجامعة الأزهرية، ويرى د. عبد الحميد يونس أنه "رائد الفلسفة الإسلامية فى مصر".

وندع د. طه حسين ليحدثنا بأسلوبه الفريد عن صديقه ، حين رثاه متذكرا مواقفه فى المروءة والصبر على أذى الناس.

يقول طه حسين فى رثائه الذى حرص على الاحتفاظ بنصه بين أوراقه:

العقاب على المروءة

"فما أعرف أن أحداً شكا منه أو أضمر له شرا أو احتفظ له فى نفسه بموجدة أو ضغينة؛ لأنه كان مكفوف الأذى عن الناس جميعاً، مبسوط الخير للناس جميعاً. وأكثر ما يسئ بعض الناس إلى بعض حين يعجلون فى الرأى والقول والعمل . ولم يكن يعجل فى شئ من هذا ؛ فلم يكن يسئ إلى أحد. وقد كان الناس يعجلون عليه فيلقونه بالكلمة النابية أحياناً، ولكنه كان يعرف كيف يستأنى بهم ويحلم عليهم ويردهم إلى الحياء من أنفسهم قبل أن يستحوا منه. وفى الطبيعة الإنسانية شر كثير ؛ فقد كان بعض الناس يكيدون لهذا الرجل الذى برئت نفسه من الكيد، ولكنه كان من طهارة القلب وصفاء النفس ونقاء الضمير بحيث لا يؤذيه كيد الكائدين. كان يرتفع عن

(*) مواليد ١٨٨٥ بأبو جرج بمحافظة المنيا.

(1) عادل البلك – أكتوبر ١٩٨٧/٦/١٤.

الصغائر كلها، وأى شئ أصغر من الكيد! كانت صلاته بالناس كلها صفواً. وكان هذا الصفو يأتى منه أكثر مما يأتى من الناس ؛ وكان هذا الصفو يأتى منه لأنه كان يستأنى بالناس دائماً ولا يعجل عليهم فى شئ. وأذكر أنه فى ذات عام من الأعوام تعرض لبعض الشر فى منصبه الذى كان يشغله بوزارة العدل، فلم يعجل ولم يسرف على نفسه ولا على أحد بقول أو عمل، وإنما ابتسم للمكروه حين أقبل عليه، وابتسم للمكروه حين أدبر عنه ، ولم يصرفه هذا المكروه لحظة عن حياته النقية الصافية ، وصلاته الأبية الكريمة بالناس.

كان ثروت باشا رئيساً للحكومة، وكان الخلاف عنيفاً بين الحكومة والوفد، وكان سعد بعيداً عن مصر فى منفاه فى أقصى الشرق أو فى أقصى الغرب، لا أذكر. وكانت أسرة مصطفى عبد الرازق مؤيدة للحكومة مخاصمة للوفد ، ولكن صلات قديمة كانت تصل بين سعد وبين أسرة عبد الرازق، فلم تستطع الخصومة على عنفها أن تبلغ هذه الصلات فى قلب هذا الصديق الكريم. وقرأ الناس فى الصحف ذات يوم أن مصطفى عبد الرازق مر بدار سعد وترك بطاقته لمناسبة عيد من الأعياد، فلم ينكر أصدقاء مصطفى من ذلك شيئا. ولكن أيام العيد تنقضى ويستأنف مصطفى عمله فى وزارة العدل. وإنه لفى ذلك وإذا الوزير يدعوه فيسأله: أفى الحق أنك ذهبت إلى دار سعد ؟ قال مصطفى: نعم. قال الوزير: أتعلم أنك موظف ، وأن الموظفين لا ينبغى أن يسعوا إلى الدار التى تخاصم فيها الحكومة؟ قال مصطفى: لا أعلم إلا أن بينى وبين سعد صلات مودة قديمة ، وأن أيسر الوفاء لهذا الود يفرض علىّ أن أمر بداره أيام العيد. قال الوزير: فإنك منقول إلى أسيوط. فلم يزد مصطفى على أن ابتسم وانصرف.

وكان ثروت باشا غائباً عن القاهرة، فلما عاد وصل إليه النبأ، فتقدم إلى وزير العدل فى أن يلغى هذا الأمر السخيف؛ لأن ثروت باشا كان كمصطفى عبد الرازق يقدر صلات المودة بين الناس، ويعلم أن لهذه الصلات حقوقاً لا يقصر فيها الرجل الكريم.

وأشهد لقد سمعت ثروت باشا يقول متضاحكا : سامح الله وزير العدل! يريد أن يعاقب رجلا على مروءته".

"إن الذين يألمون لفقد مصطفى من أهله وذوى خاصته ومودته من الأصدقاء الأقربين ومن الذين وصلت بينه وبينهم شؤون الحياة الاجتماعية لقليلون جداً بالقياس إلى هؤلاء الناس الكثيرين الذين لا يعرفهم أحد أو لا يكاد يعرفهم أحد، والذين كان مصطفى يتلقاهم كما كان يتلقى أرفع الناس قدراً، ويسعى إليهم كما كان يسعى إلى أرفع الناس قدراً، ويرفق بهم كما كان يرفق بأقرب الناس إليه وآثرهم عنده؛ لا يتكلف ذلك ولا يشق على نفسه به، وإنما يراه شيئا طبيعيا لا يحتاج إلى جهد أو عناء. كان يصنع ذلك حين كان طالباً فى الأزهر، يسمر إذا أقبل الليل مع أرفع

المصريين مكاناً فى داره، ويسعى إذا أقبل النهار مع الطلاب من جميع الطبقات، يسعى بينهم كواحد منهم لا يجدون منه كبرا ولا شيئا يشبه الكبر. وكان يصنع ذلك بعد أن أصبح عالماً من العلماء وأستاذاً فى مدرسة القضاء. وكان يصنع ذلك طالباً فى أوربا مع رفاقه من المصريين والفرنسيين جميعاً قبل أن تثار الحرب الأولى وبعد أن أثيرت. وكان يصنع ذلك بعد أن عاد من أوربا وقد شغل المناصب المختلفة فى الأزهر ووزارة العدل وفى الجامعة بنوع خاص، فى الجامعة حيث يسعى الفقر والغنى مصطحبين، يظهر الغنى نفسه فى بعض الطلاب من القحة، ويخفى الفقر نفسه فى كثير من الحياء. فى الجامعة حيث يذهب بعض الطلاب فى السيارات وإن قربت الدار، وحيث يذهب بعضهم سعياً على الأقدام وإن بعدت الدار. فى الجامعة حيث تؤدى قلة قليلة أجور الدرس عن سعة، وحيث تشقى كثرة كثيرة بالعجز عن أداء هذه الأجور. فى الجامعة لا يكون الأستاذ الصالح أستاذاً صالحاً لأنه يلقى الدرس على وجهه ويعلم الشباب كما ينبغى أن يتعلموا فحسب، وإنما يكون الأستاذ الصالح أستاذاً صالحاً حين يتفقد شؤون هؤلاء الشباب فى أناة وخفة ورفق، وحين يعلم من خفى أمرهم ما يعلم، فيصلحه بالحب والعطف والعون الذى لا يصدر عن تفضل ولا عن تطول، وإنما يصدر عن محبة ومودة، لا يكاد يشعر به من يبذله، ولا يكاد يشعر به من يتلقاه.

وأشهد لقد كان مصطفى أصلح الأساتذة جميعا فى كلية الآداب من هذه الناحية التى لا يكون الأستاذ أستاذاً إلا بها.

هذا بعض آثار الأناة فى الصلات بين مصطفى وبين الناس. ولكن للأناة أثارا أخرى فى حياته الخاصة، فى حياة مصطفى الأديب الذى لم يكن يحب التعجل بما يكتب ولا بما يقول، وإنما كان يختار اللفظ ويلائم بينه وبين المعنى، يبذل فى ذلك أعنف الجهد وأقساه، يخلو إلى ذلك حين يتفرق عنه الناس أى حين يتقدم الليل. يقتطع لذلك من وقت راحته ومن الوقت الذى كان ينبغى أن يختص به نفسه وأهله. يحكم المعنى، ويحكم اختيار اللفظ لهذا المعنى، ولا يكفيه ذلك حتى يلائم بين اللفظ واللفظ وبين المعنى والمعنى، وحتى يخرج القطعة الأدبية كأنها قطعة الحلى قد صيغت كأحسن ما يصاغ الحلى على أدق أصول الفن وقواعده. وما أعرف أن أديباً معاصراً أتيحت له الإجادة الفنية كما أتيحت لمصطفى ، ومصدر ذلك أنه كان يستأنى بإنتاجه، ولا يعجل به.

وللأناة أثرها البالغ فى حياة مصطفى الأستاذ، وفى حياة مصطفى الباحث، فلم يكن يحب أن يعجل بالدرس قبل أن يتقن إعداده كأحسن ما يكون الاتقان، ولم يكن يحب أن يتعجل تلاميذه بالفهم عنه. وإنما كان يأخذهم بالأناة فى القراءة وفى الفهم وفى التفسير كما كان يأخذ نفسه بها. ومن أجل هذا كان له تلاميذ بأدق معانى هذه الكلمة بين الشباب الجامعيين. وكان يستأنى

ببحثه عن أى مسألة من مسائل العلم، يستقصى ما وسعه الاستقصاء، ويحلل ما وجد إلى التحليل سبيلا، ويقلب النص على كل وجه من وجوه التقليب، ولا يتعجل بعد ذلك بإصدار الحكم، وإنما يضع أمامك النصوص ويعينك على فهمها واستخراج الحقائق منها.

ومن أجل هذه الأناة كان مصطفى أديباً مقلا، وعالماً مقلا. وربّ قليل خير من كثير".

"وكان مصطفى أعرف الناس بحقوق العلم على العلماء. وما أقل العلماء الذين يعرفون ما للعلم عليهم من حقوق! إنها نكبة فى الإصلاح بأوسع معانى الإصلاح؛ فقد كان مصطفى أحسن خليفة ممكن للأستاذ الإمام، ورث عنه علمه وطموحه إلى الخير، وأضاف إلى هذا التراث من العلم بالحضارة الحديثة شيئا كثيراً . وأتيح له منذ تولى أمر الأزهر مالم يتح لأستاذه من السلطان. فكان خليقاً أن يمضى بالإصلاح الدينى والعلمى والخلقى فى البيئة الأزهرية إلى أبعد الغايات. وأشهد لقد كان يعمل لذلك جاداً، ولكن فى أناة ورفق.

رحم الله مصطفى ! وأعزز علىّ بأن أملى هذا الدعاء. رحم الله مصطفى! لقد كانت الأناة أخص صفاته، ولكن الأناة ليست من صفات الموت. ليت الموت أستأنى بمصطفى ليتم ما يسر له من الخير. ولكن الموت لا يستأنى بأحد. وربما كان أبغض شئ إلى الموت أن يستأنى بالأخيار من الناس".

طه حسين

رديئها وجيدها

وبين أيدينا رسالة من الشيخ مصطفى عبد الرازق أرسلها أثناء مصيفه بالخارج إلى طه حسين أثناء أزمة الشعر الجاهلى التى وقف فيها الأحرار الدستوريون بجانبه، ونصيحة ثروت باشا له أن يتوقف عن الرد والرد المضاد فى الصحف، فى الوقت نفسه قاومت الحكومة ضغوط المشايخ والتزمت بحماية طه حسين .

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق فى خطابه:

١٩ أغسطس ١٩٢٦

أخى العزيز

أما كتابك الأخير فقد حمل إلىّ أخبار مصر وتركنى غير محتاج إلى قراءة الجرائد ولا السؤال عن الأحوال ، وقد عملت بنصيحتك فى الهجوع ما استطعت، ولعل تأخير كتابى عنك من أثر هذا الهجوع.

ومالى لا أهجع وتهجع معى مادام ثروت باشا يوحـى إلى "السياسـة" أن لا تكتـب لـك شيئا ، ويوحى إليك ألا تكتب فى الصحف أى أن تهجع بعبارة أخرى.

لما تركت مصر كان آخر ما عندى من أنباء كتـابك أن شيخ الجامع حشـد وفـدا مـن الشيخ بخيت والشيخ قراعة وأضرابهما، وطلبوا من عدلى باشا أن يحدد لهم موعدا يلقاهم فيه فأبلغهم أنه مستعد لمقابلة شيخ الجامع وحده، وسمعنا أنه قال للشـيخ : إننـا الآن فـى حكومـة دستورية تسيرها قوانين ولا تملى عليها إرادة الشيوخ.

لكن "كوكب الشرق" بقى وحده يبدئ ويعيد فى الرد على "الكتـاب" بقلـم مصطفـى صادق الرافعى، فهل حدثت بعدنا تطورات أخرى؟

ولست أدرى بأسا بأن تستريح من الكتابـة إلى الجرائـد فـى هـذه الأيـام عمـلا بمشـورة ثروت باشا. وهل جاء ثروت باشا إلى أوربا؟ فقد كنت أعلم قبل سفرى أنه علـى نيتـه المجئ بحرمه فى أوائل أغسطس.

فى "إكس" بعض المصريين ، بل إن معى فى الفندق منهم نسـاء ورجـالا ، لكننـى بعيـد عن هؤلاء وهؤلاء. وكانت معنا أميرتان. أما إحداهما فشباب فى ميعته وأما الأخرى فشباب إلى حد ما ولكنها أقل ميعة، وقد مضتا إلى باريس من قبل أن أتعرف إليهما. كأنما كتب علينا ألا نجنى من تلك العائلة إلا أردأ ما فيهـا . ولتذهـب إلى الشـيطان برديئهـا وجيدهـا. وسـلام عليكم جميعا وتحيات زكيات.

مصطفى عبد الرازق

مؤامرات السنهورى وتناقضات طه حسين!

د. عبد الرازق السنهورى عبقرى القانون الذى كان يوصف بأنه "يفلق الشعرة بالطول" ، يجمع بينه وبين عبقرى الأدب طه حسين أن كلا منهما قد تولى أمر وزارة المعارف ولكن فى حكومات متعادية، ورغم اختلاف المشارب السياسية التى مسار فيها الرجلين إلا أن بعض وجوه التقارب كانت تؤلف بينهما مع وجود بعض وجوه التباعد فى الرؤى والأفكار والنظرة للأشياء، وإن كانت السياسة قد أفسدت فى النهاية ما بينهما من ود وصداقة ، على الأقل من جانب طه حسين.

وأمور السياسة نفسها وتقلباتها غير المأمونة هى التى أفسدت كثيراً من العلاقات بين آدباء أصدقاء نتيجة لانتماءاتهم الحزبية، وهى طبيعة العصر الذى لم يكن بقدرة الأديب أن يحتمى بأدبه دون اللجوء إلى حزب يستند إليه ويتحدث من خلال صحفه حتى وإن لم يكن عضوا فى الحزب أو حتى مقتنعاً بمجمل أفكاره ومبادئه، فكان انتقال الأدباء بين الأحزاب ظاهرة أخذت عليهم ونالت من أقدارهم ومكانتهم الأدبية الرفيعة ، ولعل ذلك ما حدا بإحدى الصحف آنذاك لأن تنتقد هذا المسلك فى معرض الإعجاب بطه حسين والسنهورى ، وإن أرجعت المسئولية فى ذلك إلى الأحزاب نفسها التى تريد أن تقوى نفسها بأمثال هؤلاء العباقرة. فتقول هذه الصحيفة "هو "أى السنهورى" وطه أستاذ جامعة، كل "منهما أهلته مواهبه لالتقاط الأحزاب فجاء دورهما السياسى مثل البقعة السوداء فى الثوب الأبيض.." "مثل هؤلاء الأفذاذ كان يجب ألا تتخلى عنهم الجامعة ولا مناصب الأستاذية ، ولكن ما الحيلة فى أساليب الأحزاب السياسية، إنها كلما افتقرت التقطت ، وكلما احتاجت اقتنصت"[1] وقد كانت بعض مواقف وآراء طه حسين السياسية مما أخذ عليه لتحوله على سبيل المثال من ذم الملك والحملة عليه إلى الدرجة التى حاربه فيها الأخير وأغلق عليه كل المنافذ فى الجامعة والصحافة حتى اضطر طه حسين إلى التفكير فى الهجرة ومغادرة الوطن بلا عودة. وتحول طه حسين من معاداة الملك إلى الإشادة به وبوالده، مما جعل طه حسين يبرره بالمهادنة من أجل الهدف الأكبر الذى كرس حياته له من أجل نشر التعليم وجعله حقا للجميع كالماء والهواء، وهو ما حاول تحقيقه أثناء تقلده لمنصبه كوزير للمعارف بعد اعتراض الملك على ترشيحه وإصرار النحاس باشا على نفاذ ذلك الترشيح وهو ما تحقق بالفعل.

---

(١) المصور ١٩٤٨/٧/٩.

وكذلك كانت الحالة بالنسبة لعبد الرزاق السنهورى الذى كان يضطر لمخالفة قناعاته بسبب السياسة ، أو كما تصفه الصحيفة المشار إليها سابقا أنه "يجيد الكلام كل الإجادة إذا اقتنع ولا يجيده متصنعا إذا لم يقتنع، فهو محامى القضايا السليمة ذات الوضوح لا القضايا العليلة ذات الرضوض والجروح، يملك زمام ذهنه ولسانه إذا تكلم وشرح شرح المحاضرين ، ويفلت منه الزمام إذا خطب بأسلوب السياسيين" ولعل هذا التناقض الذى شاركه فيه صديقه طه حسين هو ما حدا به "أى السنهورى" إلى اتخاذ مواقف متطرفة ضد الوفد وزعيمه حين صار وصديقه سليمان حافظ "المفتيان القانونيان للثورة ورجالها" حيث كان فيما يبدو يصفى حسابات قديمة لمعاداة الوفد له، لمشاركته الخارجين والمنشقين على الوفد وزاراتهم التى اضطهدت الوفديين ونكلت بهم ، وقد دفع السنهورى ثمن تجاوزه عن القانون والدستور لصالح الثوار، وضد الوفد، ما انتهى به إلى الاختفاء عن الحياة العامة، لأن الاقتراب أكثر مما يجب من السلطة لا نتيجة له فى الغالب إلا الاحتراق، وإن كان طه حسين أكثر ذكاء وخبرة فى التعامل مع الثوار فكان اعتداله سببا فى نجاته.

الكوارث المنكرة

ومن العجيب أن السنهورى حين صار وكيلا لوزارة المعارف التى صار النقراشى (أستاذه بالمدرسة الثانوية بالإسكندرية) وزيرا لها ١٩٣٩ ، أبرق إليه طه حسين وهو فى باريس والحرب العالمية الثانية تدق أبواب أوربا، مهنئا إياه والنقراشى معبرا عن سعادته "لأن أمور وزارة التعليم قد صارت آخر الأمر إلى النقاء وطهارة الضمير" متمثلين فى الوزير ووكيله ، بل ويؤكد طه فى رسالته أن له فضلا فى المنصب الذى وصل إليه السنهورى، ومن العجيب أن طه حسين الذى عبر عن هذه المشاعر الفياضة نحو صديقه السنهورى. الذى صار وكيلا لوزارة المعارف هو نفسه الذى اشتكى منه "حين عين وكيلا لوزارة المعارف مع النقراشى، أخذ السنهورى يكيد لى ويتآمر علىّ وأنا لا أدرى"[1] وقبل أن نتحدث عن أسباب تهنئة طه حسين للسنهورى ثم النظر بعد ذلك فى شكواه منه، علينا أن نقرأ رسالة التهنئة أولا وهذا هو نصها كما كتبها أو أملاها طه حسين الذى أشار فيها على الوكيل ووزيره بما يجب لإصلاح التعليم، يقول فى :

(٣٠ أغسطس ١٩٣٩) حيث كانت الحرب العالمية الثانية تدق الأبواب.

---

(١) طه حسين يتحدث عن أعلام عصره – د. محمد الدسوقى – دار المعارف ١٩٩٢.

أخي العزيز

تحققت أمس أنك أصبحت زعيما من زعماء التعليم بعد معالى الوزير فهممت أن أبرق إليك مهنئا، ولكن استحييت من عامل البريد الفرنسي ، فإن هذه الظروف التى نحن فيها لا تسمح للناس بأن يتبادلوا التهنئات مهما تكن أسبابها ومصادرها، واكتفيت إذن بأن أرسل إليك هذا الكتاب طائراً كما يقال إن كانت الظروف العامة لا تزال تسمح للرسائل بأن تطير.

وما أظننى فى حاجة إلى أن أعرب لك عن اغتباطى بهذه التضحية التى فرضت عليك فلعل معالى الوزير يذكر أنى اقترحتها عليه حين كان وزيراً للمواصلات أيام حكومة الوفد.

فأنا إذن سعيد لأن أمنية من أمانيّ قد تحققت، وأنا أشد سعادة لأن أمور وزارة التعليم قد صارت آخر الأمر إلى النقاء وطهارة الضمير، وهل يستطيع الإنسان أن يتمنى خيراً من أن يكون النقراشى باشا وزيراً للمعارف والسنهورى وكيلاً.

وأنا أعلم أن النقراشى باشا لم يحسن إليك حين كلفك هذه المهمة ، فقد وضعك فى بيئة ما أظنك تحبها حبا شديداً، وقد حملك أثقالاً ما أشك فى أنك كنت تفضل عليها أثقال الفقه القديم والحديث ، ولكن التضحية واجبة على الأكفاء دائما، وهى أوجب عليهم فى هذه الظروف الخطرة التى تحيط بحياة الناس، وكل ما أتمناه الآن هو أن تصلح الظروف العامة وأن يظل السيف والمدفع صامتين ، وأن تظل الكلمة للعقل والقلب، فيستطيع وزير المعارف ووكيلها فى مصر أن يصلحا وأن يصلحا كثيرا ، وأن يصلحا فى أشد مواطن الحياة المصرية حاجة إلى الإصلاح. وما أشك فى أن وزارة المعارف ووكيلها يتمنيان ذلك أيضا، ويقرران أن أساس الإصلاح التعليمى فى كل مكان وفى مصر خاصة إنما هو تقديم الأداة قبل كل شئ. تقويم الديوان ، ثم تقويم المعاهد التى تعد المعلمين. فأما برامج التعليم ومناهجه فإن العناية بها تأتى بعد ذلك . ولكن أخشى أن أكون طفيليا وأن أتحدث فيما ليس لى أن أتحدث فيه، فأنا رجل جامعى والجامعة مستقلة عن وزارة المعارف. ووزارة المعارف مستقلة ويجب أن تكون مستقلة عن الجامعة كما كان يقال فى البرلمان منذ أسابيع. فتقبل إذن تهنئتى خالصة صادقة بمنصبك الجديد وإن كانت وزارة المعارف أحق منك بهذه التهنئة .

أما أنا يا سيدى فموحوس ("فمحبوس" كما تدل العبارة التالية وإن كان الذى أملاه طه قد أخطأ فى سماعها ومن ثم فى كتابتها) فى فرنسا لا أدرى كيف أخرج منها فى هذه الظروف العصيبة، فنحن مهددون بالكارثة بين حين وحين وما ينبغى أن نركب السفينة الآن لنتعرض للخطر بعد يوم أو يومين ، ولست أنا بالذى يحسن الاجتهاد لنفسه ولأسرته إن حاق

بالسفينة بعض الخطر. فلابد لى إذن من البقاء هنـا حتى تنجلى الأزمة ولكن هـل تنجلى؟ وعلى أى نحو تنجلى ؟ أما إن صارت الأمور إلى السلم فإنى عائد إن شاء الله ، وتارك كلود "الاسم الفرنسى الذى اختارته زوج طه لتنادى به ابنهما مؤنس" ليتم تعليمه فى باريس، وأما إن صارت الأمور إلى الحرب لا قدر الله فهذه عقدة العقد المعقدة تعقيداً كما كان يقـال فـى بعض القصص التمثيلية المضحكة، ولعلك تذكر أنى كنـت طلبـت أجـازة طويلـة فرفضـت ، فيظهر أن الأقدار تريد أن أمنح هذه الأجازة ، وما أظن أن الحكومة المصرية تأباها علىّ، وأن كنت لا أدرى ماذا أصنع بها وقد تركت كتبى وسافرت سفر من قرر العودة . وإن كنت لا أدرى أيضا كيف نعيش فى فرنسا بما يبقى لنا من مرتبنا بعد الذى ننفقه منه آخر الشـهر فـى أداء ما لابد من أدائه.

هذه هى الخواطر التى نعيش فيها منذ أسبوع وهى كما ترى قاتمة مظلمة أشد الإظـلام، فلعل الله أن يصنع للإنسانية وأن يجنبها هذه الكوارث المنكرة.

وأنا آخر الأمر أريد أن أعتقد أن لى فى مصـر أصدقـاء لـن ينسـونى ولـن يقصـروا فـى الاحتياط لمصلحتى، إن كان ما لا نرجو أن يكون.

وأنا أهدى إليك وإلى السيدة الجليلة والآنسة نادية (ابنة السنهورى) تحياتنـا جميعـا طيبـة صادقة وتهنئاتنا جميعا عميقة خالصة، وأرجـو أن تقـرآن تحيتـى علـى حضـرة صـاحب المعـالى الوزير . ولعل هذا الكتاب أن يصل إليك.

طه حسين

حياة القرن العشرين مع القرن الثانى

وتبدو مخاوف طه حسين واضحة من خطر قيام الحرب وهو فـى بـاريس فيصبـح أمـر عودتـه لمصر صعبا إن لم يكن مستحيلا وهو فى ذلك يستنجد بـ "أصدقـاء لـن ينسـونى ولـن يقصـروا فـى الاحتياط لمصلحتى"، ولعل من هؤلاء الأصدقاء د. عبد الرزاق السنهورى نفسه الذى يكتـب إليـه مهنئا إياه كوكيل لـوزارة المعـارف فـى ظـروف "لا تسـمح للنـاس بـأن يتبـادلوا التهنئـات" وهـذه الصداقة لها تاريخ يعدد فيه طه حسين أفضاله على صديقه السنهورى، فيقول:

"بعد عودة الدكتور السنهورى من فرنسا وتعيينـه بالجامعـة ، جـاءنى يشـكو لأنـه لم يـرق إلى درجة أستاذ ، على حين رقى غيره، وقد سعيت لترقية الدكتور السنهورى إلى درجـة أسـتاذ،

وبعد مدة جاءني وطلب مني أن أسعى لدى مكرم كبيد لتعيينه قاضيا بمحكمة المنصورة المختلطة، لأن في هذا راتبا يفوق راتب الجامعة، وكلمت مكرم وصدر قرار بتعيين الدكتور السنهوري قاضيا بالمنصورة ، وبعد مدة جاءني وطلب مني أن يعمل في قضايا الحكومة، ولم أضق بكثرة طلباته وكلمت الدكتور عبد الحميد بدوي (وزير الحقانية أو العدل والذي عمل وكيلا لمحكمة العدل الدولية الدائمة) فنقله إليها"[1].

فما الذي يجعل السنهوري يتنكر لطه حسين الذي أحسن إليه، ويظن أن "السنهوري يكيدلي ويتآمر عليّ وأنا لا أدري".

لا يذكر لنا طه حسين نوعية هذا الكيد أو نوع ذلك التآمر ، الذي يبدو لنا أنه ليس له مبرر على الإطلاق من السنهوري تجاه طه الذي كان مفيدا له طول الوقت رغم "كثرة طلباته ورغباته". ورغم إحساس طه حسين بأنه قد فقد مودة وصداقة السنهوري بسبب إحساسه بتنكره له، إلا أن ذلك فيما يبدو لم يكن مبنيا على حقائق وأدلة وبراهين حقيقية بدليل أن مواقف طه حسين تجاه السنهوري بعد ذلك لا تدل على رد فعلي سلبي تجاه السنهوري بل هي مواقف تدل على دوام الصداقة والحفاظ عليها. كما سوف سنرى بعد قليل؟

إذن فما الذي كان يجعل طه حسين يستشعر مثل هذا التنكر من صديقه مقابل إحسانه له؟

يفسر لنا توفيق الحكيم (والذي كان صديقا أيضا لطه) ، مثل هذه الأمور من طه حسين بسبب وشاية أو سوء فهم من طه لآراء أو تصرفات بعض أصدقائه دون أن يقصدوا إلى الإساءة إليه، فيرى الحكيم "أن الحساسية عند طه حسين كانت تضخم له هذه الأشياء وأمثالها مما كان يتراكم في نفسه دون أن يظهره".

وهو ما فعله مع السنهوري فلم يعرف أحد بمشاعره نحوه إلا بعد موته من خلال إفضائه لسكرتيره الأخير محمد الدسوقي والذي نشره في كتاب أشرنا إليه سابقا، ولولا ذلك ما عرفنا شيئا مما تراكم في نفسه، إلا أن يفضي به إلى صديق أو يظهره هو بعد أن يكون قد مضى وقته وانقضى زمنه كما فعل مع العقاد بعد موته فأعلن أنه لا يفهم عبقرياته ، وقد كان من قبل قد بايعه بإمارة الشعر، وكما فعل مع صديقه د. محمد حسين هيكل بعد موته ، فلم يعلن غضبه منه في حينه، بعد أن ظن أن د. هيكل قد حرض عليه الطلبة للاعتداء عليه في حين أنه كان قادما لزيارة لطفي السيد في الجامعة هو وتلميذه حافظ محمود ، فاستثمر بعض الطلبة الموالين للأحزاب الأخرى ، وجوده فألقى عليهم كلمة كزعيم للمعارضة، فهتفوا ضد الوفد وزعيمه ومن والاهم

(١) طه حسين يتحدث – السابق.

كطه حسين الذى اقتحموا مكتبه، ولولا أن حافظ محمود شهد الواقعة فى حينها وأوضح لطه حسين حقيقتها، لظل سوء الفهم والشعور بالمرارة قائما فى نفسه من صديقه د. هيكل، وهكذا يمكن أن نتفهم حساسية طه حسين تجاه بعض الأشخاص والأحداث أو كما يصفه صديقه أحمد أمين بأن "صداقته متعبه وعداوته أيضا متعبة" ، ويزيد الأمر التباسا وتعقيدا قدرة طه حسين على كتم مشاعره المؤلمة تجاه أصدقائه فلا يظهرها ولا يواجههم بها، فيظل سوء فهمه لهم معلقا فى نفسه ، ومما يزيد الأمر غرابة فى نفس الوقت هو استطاعة طه حسين أن يتجاوز تلك المشاعر السلبية دون أن ينساها، وتبدو لك صداقته قوية بغير شك أو لبس لأن مواقفه تجاه تلك الصداقات رغم ما فى نفسه تجاهها، لا تظهرك على حقيقة ما فى نفسه وما يعتمل فيها، فرغم مشاعره تجاه صديقه السنهورى إبان توليته وكيلا لوزارة المعارف، بسبب اعتقاده أن السنهورى يكيدله ويتآمر عليه ، رغم إحسانه إليه، إلا أن طه حسين يرى (أن نكران الجميل لا يؤثر فى نفسى لدرجة أن يحول بينى وبين عمل الخير ما استطعت) ولعله من هذه الرؤية لم يتردد لحظة واحدة فى الاستعداد الصادق للوقوف ضد الملك فاروق الذى يريد حل مجلس الدولة الذى يرأسه صديقه السنهورى ، وذلك للتخلص منه بسبب عدائه له ، بل وقيام طه حسين الذى كان وزيرا فى ذاك الوقت باستعداء رئيس الوزراء النحاس باشا ضد الملك بسبب موقفه ، والاتفاق مع النحاس باشا إن أقدم الملك على خطوته العدائية هذه، فلا بديل عن تقديم النحاس لاستقالة حكومته احتجاجا على تصرف الملك ضد السنهورى ومجلس الدولة إن خرجت نواياه إلى حيز التنفيذ، والقصة كما يرويها محسن عبد الحافظ أحد أصدقاء السنهورى (الذى شغل منصب نائب إدارة الفتوى والتشريع بالكويت) هى أنه "حين أوعز الملك وحكومته إلى أحد النواب بمجلس النواب للتقدم بمشروع قانون يقضى على حرية الصحافة، وطلب الديوان الملكى من مجلس الدولة إعداد مذكرة فى هذا الشأن تؤيد ذلك المشروع ، كانت كلمة السنهورى - رحمه الله - لعضو مجلس الدولة الذى كلفه بإعداد تلك المذكرة : (اسمع يا فلان لا تدخل ذلك التهديد فى حسابك، فليلغوا مجلس الدولة إذا شاءوا ، اكتب المذكرة كما يمليه عليك ضميرك ... فإما أن يكون هناك مجلس دولة أو لا يكون). وقد كان وقدمت المذكرة إلى السراى على غير ما كانوا ينتظرون ، إذ جاءت إنكارا لمشروع القانون ودفاعا عن حرية الصحافة"[1].

ولذلك - يكمل طه حسين الصورة - "حاول الملك فاروق إلغاء مجلس الدولة - حينما كنت فى الوزارة - وهذا من أجل التخلص من الدكتور السنهورى رئيس المجلس ، فقلت للنحاس : أبلغ الملك أننا نرفض إلغاء مجلس الدولة، وإذا كان الملك مصراً على ما يريد فستقدم الوزارة استقالتها،

---

(١) مجلة العربى الكويتية ١/٥/٧٤.

وسكت الملك عن محاولة إلغاء مجلس الدولة أمام هذا الموقف المتشدد" [1] ولا ندرى كيف اقتنع النحاس بمشورة طه حسين ، وحكومة النحاس نفسها هى التى أرادت التخلص من السنهورى "بحجة أنه كان وزيرا حزبيا فى وزارة حزبية (إشارة إلى وزارته للمعارف فى حكومات الآحزاب المناوئة للوفد"[2]، ورفض السنهورى الإذعان للحكومة وناصره فى ذلك جميع مستشارى مجلس الدولة" وكانت تلك هى الأزمة الأولى مع مجلس الدولة ١٩٥٠ ، تلتها أزمة أخرى فى العام التالى أطلقت عليها أزمة الصحافة وهى التى أشرنا إليها سابقا، وكانت الحكومة القائمة فى الأزمتين هى حكومة الوفد، والنائب الذى تقدم بمشروع تقييد حرية الصحافة كان نائبا وفديا، واتسعت جبهة المعارضة لذبح الصحافة لتصل إلى أعضاء بارزين من الوفد نفسه كان على رأسهم وزير الخارجية محمد صلاح الدين الذى عارض بشدة هذا المشروع ، فكيف تسنى لطه حسين أن يستعين بالنحاس رئيس الحكومة التى تقدم أحد نوابها بتشريع كهذا إلا أن يكون الأمر متوقفا عند هذا الحد فقط ، حتى إذا تعدى الأمر مجرد الرغبة فى إصدار قانون أراده الملك ولم تعارضه الحكومة ، فتعداه إلى إلغاء مجلس الدولة كان على الحكومة أن تفترق مع الملك، مما جعل النحاس مستعدا لأن يعود إلى مواقفه الصلبة فاستجاب لمشورة طه حسين ليحول بين الملك ورغبته فى إلغاء مجلس الدولة، وهو ما حدث بالفعل كما ذكر طه حسين، ثم يقف طه حسين موقفا إيجابيا آخر عندما كان رئيسا للمجمع اللغوى والسنهورى عضو فيه، فنجح بعد رجائه فى إقناعه بالعدول عن استقالته التى كان قد قدمها بالفعل فى أولى جلسات المجمع فى دورته الجديدة فى شهر أكتوبر ١٩٦٦، وذلك لرغبته فى التفرغ لإنهاء موسوعته عن القانون المدنى.

مثل هذه المواقف من طه حسين لا تدل إلا على الصداقة الصادقة والمودة غير المصطنعة ، مما يدلك على أن طه حسين كان يحتفظ فى نفسه فقط بأثر المواقف التى يظن أنها قد أساءت إليه، ثم لا يجعلها تتحكم فى سلوكه نحو من ظن أنهم تنكروا له. وتلك تمثل قدرته على التكتم نحو سلبيات أصدقائه فلا يظهرهم عليها، أما أعداءه أو من يظن أنهم أعداءه فيبادلهم عداء بعداء ويواجههم بقوة وشجاعة نادرة دون خوف أو حساب للعواقب، فعل ذلك مع رئيس الوزراء الديكتاتور إسماعيل صدقى رافضا التعاون مع صحيفة الحزب الذى يرأسه، وتحمل فى سبيل ذلك كل سبل الحصار والتضييق التى فرضها عليه الديكتاتور إلى درجة أنه فكر فى الانتحار، ففكرة الانتحار لديه أهون من فكرة الخضوع والاستسلام لعدوه حتى لو كان رئيس الوزراء بنفوذه وجبروته، وحين كان منتدبا كمدير لجامعة الإسكندرية واستشعر أن رجل القصر الذى جئ به سكرتيرا عاما

(١) طه – مجلة العربى الكويتية ٧٤/٥/١.

(٢) الوفد ١٩٩٩/٩/٣ طلعت الغريانى.

للجامعة ، قد وضع عينا عليه لمراقبته وإعاقته عن الارتقاء بالجامعة، لم يتورع عن مجابهته وكشفه أمام الجميع مخاطبا إياه "ما أنت إلا كبير الكتبة" ليضعه بذلك في حجمه الطبيعي.

وهكذا كان طه حسين رفيقا بمشاعر أصدقائه فلا يسوءهم باظهار مشاعره نحوهم حتى لو أساءوه أو تنكروا له ، ولكنه على النقيض من ذلك تجاه أعدائه لا يحتاط للنتائج ويبادرهم بسهامه وسخريته فينال منهم غير هياب بما سوف تسفر عنه المعركة من خسائر قد تصل إلى حد إجاعته وتشريده، فهو رحيم شديد الرحمة على أصدقائه حتى ولو على حساب نفسه، وهو على أعدائه حرب عليهم شديد الحرب، وهكذا كان طه حسين يجمع بين المتناقضات إلى أبعد الحدود، وهو يعترف بذلك بل ويجد فيه متعة ولذة ، فيقول "من أهم الأشياء التي تعجبني في حياتي كلها وتلذ لي : المتناقضات ، ووقوعها عندي في وقت واحد" (٣) ويضرب لذلك الأمثلة من قبيل "ما يحفزني على الكتابة والتأليف في شئون عربية بحته ، أن أكون في بيئة أوربية صرفة، فأعيش حياة القرن العشرين مع القرن الثاني في وقت واحد". فالمتناقضات هي فلسفة طه حسين في الحياة وفي الإبداع.

مع المرأة وضدها

أنظر وتأمل معي شكواه العجيبة إلى صديقه السنهوري، حين يشتكي من التعب وهو أمر مفهوم، ثم يشتكي من الراحة أيضا، فأي شئ أدل على التناقض الذي جمعته شخصية طه حسين أشد من هذا التناقض، الذي لم يجد السنهوري تفسيرا له إلا أنه من "أعراض الجنون" يقول السنهوري في معرض رده على رسالة لطه حسين أرسلها إليه في باريس حيث مصيفه هناك فكتب إليه من "القاهرة في ١٢ أغسطس ١٩٣٥:

"تزعم أنك لا تعرف إلا السأم والملل. تشكو التعب في القاهرة ، وتشكو الراحة في فرنسا . لا أشك في أن هذا الكلام يحمل في طياته أعراض الجنون. فاسمع نصيحة عاقل: إذا كنت تشكو التعب في القاهرة وترتاح في فرنسا. فما عليك إلا أن ترتاح في القاهرة فلا تشكو تعبا، وأن تتعب في فرنسا فلا تشكو راحة. هذا هو العلاج الناجع. ولا أتقاضى منك عليه أجراً وإن كلفني كثيرا من التفكير العميق في التعرف على حقائق الأشياء واكتناه أسرارها".

وهكذا رد السنهوري على شكوى صديقه طه حسين بحل يجمع بين الفكاهة والسخرية، وهو ما

---

(٣) أهرام ٧ أكتوبر ١٩٣٨.

يجمع أيضا بين طه والسنهورى فى بعض طبيعتهما التى قد تبدو جادة شديدة الجدية، إلا أن بعض المواقف سرعان ما تكشف عن روح مرحة ساخرة.

وليست هذه فقط إلا إحدى نقاط الاتفاق والالتقاء بين الرجلين على ما بينهما من اختلاف فى الشخصية والرؤية للأشياء.

فإذا صح أن طه حسين هو عميد الأدب العربى الذى وضع أساسا للمنهج النقدى فى الأدب العربى، فإن السنهورى هو "الإمام الخامس" بعد الأئمة الأربعة، كما تراه وتنظر إليه البلاد العربية التى وضع قوانينها، فبالقانون المدنى الذى وضعه لمصر ١٩٤٨ استردت مصر سيادتها التشريعية بعد إلغاء الامتيازات التشريعية القضائية الأجنبية ، وإلغاء المحاكم المختلطة، وأصبح القانون المدنى الذى وضعه لمصر هو المصدر الذى استلهم منه القوانين التى وضعها لبلاد العربية، أو التى وضعتها البلاد العربية مستمدة منه مع بعض التعديلات التى اقتضتها ظروف كل دولة، وهذا القانون الذى استفادت به كل من : مصر وسوريا وليبيا والعراق والجزائر والأردن والبحرين والسودان والكويت واليمن. وضعه السنهورى فى عشرين سنة فى (١٢) مجلدا فى نحو (١٥) ألف صفحة ، هذا القانون كان "سببا فى إيجاد وحدة فكرية فى الميدان القانونى بين أبناء البلاد العربية" وكان السنهورى "يؤمن أن توحيد القوانين هو إحدى الوسائل الناجحة لتوحيد الأمة العربية" [١]. ويرى طه حسين فى الثقافة وسيلة أخرى ناجحة لتوحيد العرب.

وإذا كان طه حسين أديبا اشتغل بالصحافة فقد تمنى السنهورى "لو تم لى أن اشتغل فى الأعمال الحرة لاشتغلت بالصحافة و"المحاماة"[٢] ويقابل أمنية السنهورى التى لم تتحقق أمنية لطه حسين لم تتحقق أيضا ، فقد أراد أن يدرس القانون إلى جانب دراسته للآداب ، وما أكثر ما لام نفسه وشق عليها فى اللوم لأنه لم يتم ما حاول من دراسة القانون (انظر "الأيام" لطه حسين) وتجمع الصديقين ثقافتهما الفرنسية ، وحصولهما على الدكتوراه من فرنسا ، أحدهما فى الآداب والآخر فى القانون.

وقد وصل كلا منهما إلى منصب الوزارة ، تقلدها السنهورى أكثر من مرة فى الفترة ما بين سنة ١٩٤٥ حتى ١٩٤٥ كوزير للمعارف أربع مرات على التوالى فى وزارة أحمد ماهر ، وزارة النقراشى الأولى والثانية، وزارة إبراهيم عبد الهادى، وكلها حكومات مناوئة للوفد ، ورؤساؤها قد انشقوا عن الوفد.

---

(١) عبد الباسط الجميعى – مجلة الفكر المعاصر ١٩٧١.

(٢) عبد الرازق السنهورى من خلال أوراقه الشخصية – نادية السنهورى – توفيق الشاوى – دار الزهراء العربى.

بينما طه حسين قد تولى وزارة المعارف لمدة سنتين في وزارة الوفد الأخيرة (١٩٥٠-١٩٥٢). وكان طه حسين مشغولا بمجانية التعليم باعتباره حقا للجميع كالماء والهواء، وأبلى في ذلك بلاء حسنا حينما تولى الوزارة فنجح في جعل التعليم مجانيا في المرحلتين الابتدائية والثانوية، ولولا اعتراض الملك لجعل التعليم الجامعي مجانيا إلا أن الملك فاروق رفض "بشدة" وقال للنحاس: إن طه يريد أن يجعل البلد شيوعية"(١).

أما السنهوري كوزير للمعارف فتبدو جهوده مجهولة في هذا الشأن بالمقارنة لصديقه طه حسين، ولكننا سنحاول الكشف عنها ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، وسنلحظ أول اهتمام للسنهوري بالتعليم في رسالته إلى طه حسين ١٩٣٥ التي أشرنا إليها سابقا حين يقول "وما دام مقضيا على الإنسان أن يكافح في الحياة فلا أقل من أن تعطى الناس جميعا أسلحة متساوية لهذا الكفاح، وأرى أن خير وسيلة لذلك هو أن يجبى من الميراث ضريبة كبيرة تصرف في تعليم أبناء الأمة جميعا بالمجان وفي إعطاء كل منهم القدر الذي يلزمه من المال للدخول في معترك الحياة. ثم يترك بعد ذلك إلى كفايته وجهوده"، بل إننا نعثر على اهتمام السنهوري المبكر بالتعليم في "أوراقه الشخصية" التي كان يكتبها لنفسه ونشرته ابنته بعد رحيله، حيث يرى أن التعليم شاغل أساسي من مشاغله وطموحاته لنهضة مصر، يكرر الحديث عنه بطول أوراقه الشخصية في أكثر من موضع من مواضع تلك الأوراق والمذكرات، بدءا من المذكرة الثانية والعشرين والتي كتبها في مدينة "ليون" الفرنسية أثناء دراسته هناك للحصول على درجاته العلمية، فيكتب "عن الجندية والتعليم" فيقول "أرى أن أول إصلاح يجب إدخاله في الأمة المصرية هو جعل الجندية والتعليم إجبارين" بينما يرى طه حسين التعليم أيضا إجباريا، وإن زاد عليه السنهوري تقديمه للجندية على التعليم فيقول "وفي اعتقادي أن نهضة الأمة الألمانية في العلم والصناعة جاءت تالية لنهضتها الحربية والسياسية ومؤسسة عليها". بينما طه حسين يرى أن التعليم مقدم على كل شئ اللهم إلا المسألة الكبرى التي كانت تشغل مصر آنذاك وهي قضية الاستقلال، ولم يربط طه حسين التعليم بالجندية كما فعل السنهوري، بل ربطه بالحياة الديمقراطية السليمة كأساس تقوم عليه، وكمفتاح تؤدي إليه.

وكان السنهوري ينادي بتوحيد التعليم العام والأزهري، وهي نفس دعوة طه حسين من أجل توحيد الأمة "فطالب بالقضاء على ثنائية التعليم عن طريق تطوير الأزهر، وتوحيد التعليم في المرحلتين الإعدادية والثانوية، وهو ما أشار به على عبد الناصر قائد الثورة، وتحقق له بالفعل. وإذا

(١) طه حسين يتحدث – السابق.

كان السنهورى يرى التعليم إجباريا للذكور والإناث من منطلق إسلامى لقوله صلى الله عليه وسلم "العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة" فقد كان طه حسين أول من أدخل المرأة ، التعليم الجامعى سراً بالاتفاق مع لطفى السيد تجنبا لثورة الرأى العام المحافظ تجاه تعليم المرأة، وفى الوقت الذى اتفق فيه الصديقان على حق المرأة فى التعليم اختلفا فى رؤيتهما لتقلدها المناصب العامة، فبينما لا يقيد طه حسين ذلك بقيود أو شروط إلا الكفاءة والموهبة، يرى السنهورى أن الأمر يحتاج إلى التدرج، تتذكر زوجته "حينما كان وزيرا للمعارف حان ترقية السيدة إنصاف سرى" ناظرة الثانوى إلى مدير عام، فاتصلت بى السيدة هدى شعراوى تريد ترقيتها إلى وكيلة وزارة انتصارا للمرأة وتشجيعا لها .. فقال إنها تستحق أن تكون وزيرة ، ولكن لكل أمر وقته وزمانه"[٢] وإذا كان طه حسين قد أسس جامعة الإسكندرية ثم صار مديراً لها، فقد كان السنهورى هو الذى وضع مشروع قانونها سنة ١٩٤٢. ويذكر السنهورى أنه أثناء وزارة طه حسين سمع خبرا كان هو واضع بذرته "تقدم لأول مرة فى هذا العام (١٩٥٠) تلاميذ المدارس الأولية لامتحان الشهادة الابتدائية ، وهذا نظام كنت وضعته وأنا بوزارة المعارف لأفتح أمام أبناء الشعب أبواب العلم والرقى فينتفع البلد بالنبوغ الكامن فى أبنائه المغمورين وها قد أنبت النظام ثمرته الأولى" ويتذكر السنهورى أيضا "عندما كنت وزيرا للمعارف عنيت بأن أنظم تعليم اللغة الفرنسية كإحدى اللغتين الأجنبيتين اللتين تعلمان فى المدارس الثانوية" "وعرف عنه اهتمامه بوضع سياسة ثابتة للتعليم يكون قوامها وأساسها إنصاف المعلم، وتوفير الاستقرار والكرامة له مع توسيع قاعدة تعليم وتوجيه الطلاب إلى ما يتلاءم مع احتياجات المجتمع من أنواع التعليم الفنى: الزراعى والصناعى – الذى ثبت أنه التعليم المفيد الذى يساعد على تقوية البنيان الاقتصادى للدولة ، وقد عرف عن السنهورى أيضا اهتمامه بالنوابغ من الطلاب ، وبذل كل ما يمكن من الرعاية والمساعدة لهم"[١] . وقال السنهورى للدكتور مهدى علام زميله فى مجمع اللغة العربية : أترك وزارة المعارف وقد نجحت فى معظم مشروعاتى، وأخفقت فى أمرين: الدروس الخصوصية وتوزيع الحجرات على كبار الموظفين".

وأثناء عضويته فى مجمع اللغة العربية منذ ١٩٤٦ حتى وفاته شارك فى وضع الكثير من المصطلحات القانونية.

---

(٢) حلمى النمنم – حواء ١٩٨٩/٥/١٣.

(١) مجلة الفكر المعاصر – السابق.

وكما أصاب طه حسين والسنهورى من السياسة فوصلا إلى أرفع مناصبها كوزراء ، إذا كان في تقلدهما منصب الوزير إصابة ، فقد أصابتهما السياسة واكتويا بنارها، سنكتفى بواقعتين حدثت لهما فى سنة واحدة. فى خطابه المشار إليه سابقا إلى طه حسين ، يقول السنهورى: أتذكر أننا فى مثل هذه الأيام من السنة الماضية (١٩٣٤) كنا معا معلقين فى كفة القدر لا نعلم ماذا يأتى به الغد. أنت من أمر "الوادى" فى قلق وهم. وأنا من أمر "جمعية الشبان المصريين" فى شغل ونصب. وكانت تقرب بيننا الهموم". وتفصيل ذلك فيما يتعلق بطه حسين، حدث عندما استنقذه النحاس باشا من أزمته مع إسماعيل صدقى الذى أقاله من الجامعة وسد أمامه كل سبل المعيشة والحياة بسبب رفضه التعاون مع حزب الديكتاتور ورئاسة الصحيفة الناطقة باسمه ، ليعيش طه وأسرته فترة المجاعة كما أسمتها زوجته، ليجد النحاس أن طه حسين يشاركه وحزبه محاربة الديكتاتور فيطلب إليه الكتابة فى صحيفة "كوكب الشرق" إحدى الصحف الناطقة باسم الوفد، وفى هذه المرحلة ينتقل طه حسين "من التجدد الفكرى إلى التنشئة الاجتماعية والاقتراب من مشكلات المجتمع، التى تجسدت فى الأزمة الاقتصادية ، وما نجم عنها من تهديد للعقائد الثابتة عند الناس من خلال التبشير ، وفساد الحكم، ويتخذ من هذه المشكلات مواقف عنيفة جريئة، يساق بسببها إلى النيابة والقضاء" "ثم يشترى طه حسين امتياز جريدة "الوادى" بعد استقالته من "كوكب الشرق" فى إبريل ١٩٣٤ ، ويشرف على تحريرها حتى ديسمبر ١٩٣٤ إذ أعيد إلى الجامعة فى الوزارة النسيمية (سبب استقالته اختلافه مع صاحب كوكب الشرق حافظ عوض لرفضه دفع غرامة حكمت بها المحكمة ضد أحد المحررين بالجريدة وإن كان قد عاد بعد ذلك) ، وقد أصدر هذه الصحيفة على نفقته فى أعقاب الأزمة الاقتصادية، مواصلا مهمته الصحفية فى "كوكب الشرق" وتجديد المجتمع إلى جانب التجديد الفكرى والثقافى، وينتقل معه إلى "الوادى" تلاميذه الذين عملوا معه فى "كوكب الشرق". وقد خسر طه حسين فى "الوادى" ثلاثة آلاف جنيه كانت دينا عليه لموزع جريدته "المعلم الفهلوى" ، وربما لبعض أصدقائه ، ولم ينقذه من هذه الأزمة إلا عودته للجامعة، وبداية الانفراج السياسى. ومن ذلك يتبين أن طه حسين قد تألق ككاتب مقال صحفى ولم ينجح كصاحب جريدة أو مدير"[1]. هذا ما كان من أمر طه حسين فى "الوادى" وما

---

(١) فن المقال الصحفى فى أدب طه حسين - د. عبد العزيز شرف .

سبب له من "قلق وهم"، أما السنهورى وحكايته مع "جمعية الشبان المصريين" التى جعلته فى شغل ونصب فقد "دعا إلى تكوين جمعية تضم الشباب المثقف وتعمل على توجيهه وجهة صالحة لنفسه وللمجتمع المصرى، وترمى الجمعية إلى بعث الروح القومى، وإعادة الحياة القومية المتدفقة إلى شرايين الشباب، وهى تدعو إلى اعتناق مذهب القوة فى كل شئ : فى العقل والروح ، والجسم. وكان قسم الجمعية "أقسم با لله العلى الأعلى أن أخلص النية للجمعية ، وألتزم مقاصدها ، مؤازراً لزملائى، حريصا على استكمال وسائل القوة فى خلقى وعقلى وجسمى، وأن أنزه قولى وعملى عما يشين ، وأصمد إلى الكمال"[1].

ويشير توفيق الحكيم إلى هذه المرحلة من حياة صديقه السنهورى فى "عودة الوعى" أنقلها كما هى لما تدل عليه من بساطة رجلين عظيمين ، يقول الحكيم: "كنت مديراً لإدارة التحقيقات بوزارة المعارف وكان هو إذ ذاك أستاذا بكلية الحقوق . وكان نسكن فى منطقة الجيزة.. ونسير على أقدامنا ساعة العصر على كوبرى عباس نتحدث طويلا.. وفى يد كل منا قرطاس من الترمس، وفى ذات يوم جاءنى يقول إنه فكر فى مشروع نافع لتكوين الشباب وغرس روح البطولة فى نفوسهم ، وجعلنا نستعرض أبطال تاريخنا الذين يمثلون المبادئ العظيمة مثل عمر بن الخطاب ، وطارق بن زياد، ورمسيس الثانى ، ونحو ذلك.. ومضت أيام، وبينما أنا جالس فى مكتب وكيل الوزارة إذا بى أجد حركة غير عادية – وكانت الوزارة يومئذ ضد الوفد والوفديين ، وسمعت وكيل الوزارة يقول : إن مجلس الوزراء منعقد لفصل الدكتور السنهورى من الجامعة لأنه ألف جمعية سياسية من الطلاب لنشر الدعوة للوفد بايعاز من صديقه عضو الوفد النقراشى (لم يكن قد خرج بعد على الوفد).. فتعجبت عجبا شديداً. وبعد مدة قصيرة استقالت الوزارة وأعيد السنهورى للجامعة". ويحرص السنهورى نفسه على الإشارة إلى هذه المرحلة من حياته فى أوراقه الشخصية فى اليوم السابق لكتابته رسالته إلى طه حسين مذكراً إياه ونفسه بهمومهما فى العام الماضى فيقول فى أوراقه، المؤرخة بـ ١١ أغسطس فى ١٩٣٥ "فى مثل هذه الأيام من العام الماضى كنت فى شغل شاغل من أمر جمعية الشبان المصريين. تتوعدنى الحكومة التى كانت قائمة وقت ذلك بالفصل ، وأنا أدبر أمر المعاش فأنظر فى خروجى من المنزل الذى أقيم فيه ، ثم فصلت ورجعت ثانية، وها قد مضت سنة على هذه الحوادث ، وأنا الآن أفكر فيها وأقارن أمسى بيومى..

لا يحق لى أن أقول : ما أشبه الليلة بالبارحة، فالليلة ، أحس قلق البارحة ولا أفكر فى خروجى من المنزل الذى أقيم فيه، بل فكرت فى أن أوسع من سكنى.

---

(١) المجلة الجديدة الأسبوعية ٣ نوفمبر ١٩٣٤.

ما أشد تقلبات الأيام، وما أجدر المرء بالثبات عليها، لا تفزعه البأساء ولا تستهويه النعماء".

ويعود طه حسين والسنهورى إلى الجامعة بعد أن ذهبت حكومة صدقى وتابعتها التى تلتها وزارة عبد الفتاح يحيى التى كانت استمرارا لسياسة سلفه، وبعودة الأستاذين الجامعيين المفصولين يكون قد رد إليهما اعتبارهما "ولكن إذا كانت الثقافة المصرية رحبت برجوعهما ، فإن الصحافة ستخسر الدكتور طه حسين ، كما تخسر المحاماة د. عبد الرازق السنهورى"[1] ولكن الجامعة لم تكن لتمنع الرجلين من مواصلة دورهما فى الحياة المصرية والعربية، فقد كانا قد تخطيا دورهما المحدود داخل أسوار الجامعة ليحدثا أثرهما البالغ فى تاريخ الثقافة بمعناها الأوسع، فطه حسين بمشروعه الأدبى التعليمى ، والسنهورى بمشروعه فى القانون المدنى، وكلاهما امتد تأثيره إلى خارج مصر ليشمل الدول العربية ، وكلاهما مفكر عالمى، أحدهما فى الأدب والآخر فى القانون، وإن كان السنهورى يوصف أيضا بأنه "أديب من أدباء القانون له أسلوب أدبى ممتاز تطغى عليه اصطلاحات القانون".

(١) المجلة الجديدة – السابق.

عبد الحميد بدوى
صاحب أول دكتوراه فى القانون

هو صاحب أول دكتوراه يحصل عليها حقوقى من المصريين ، فقد كان عبد الحميد بدوى يتلقى علومه فى مدينة "تولوز" الفرنسية ولكنه لم يرتح لنظام التعليم هناك فنقل نفسه إلى "جرينوبل" فقامت قيامة وزارة المعارف بالقاهرة ، وهالها أن ينقل الطالب نفسه من معهد إلى آخر دون إذن منها، ولكنها اضطرت للموافقة بعد أن بعث إليها بوجهة نظره، وقد قال عميد الجامعة فى تقريره الذى بعث به إلى وزارة المعارف المصرية: إن رسالة د. عبد الحميد بدوى أساسية فى الفقه المدنى لا يستطيع باحث أن يستغنى عنها.

ذلك هو عبد الحميد بدوى المولود بالمنصورة ١٨٨٧، والذى نشأ بالإسكندرية وحصل على ليسانس الحقوق ١٩٠٨، ليخطو مع حصوله على الدكتوراه إلى مناصب الدولة العليا، فكان أول رئيس وطنى للجنة قضايا الحكومة بعد أن كانت حكرا على الأجانب من كبار المشرعين ، وكان قبلها أول مستشار ملكى وطنى عين عضوا بها، وشغل بعض المناصب الوزارية: الخارجية فى وزارة النقراشى الأولى ١٩٤٥، كما اختير وزيرا للمالية ١٩٢١ واضطر للاستقالة منها لأن كرامته ومبادئه حالت دون أن يغمض عينيه عن تصرفات وطلبات القصر الملكى، وكان عضوا بارزا فى اللجنة التى وضعت دستور ١٩٢٣، وكان أول من دعا لإنشاء مجلس الدولة ، وكان رئيسا للوفد الذى مثل مصر فى اجتماع اللجنة التحضيرية التى تقوم بإعداد اللوائح الداخلية والأنظمة الخاصة باللجنة التنفيذية لهيئة الأمم المتحدة فى نوفمبر ١٩٤٥ ، ورأس وفد مصر فى مجلس الأمن، ثم اختير كأول قاضى شرقى ضمن قضاة محكمة العدل الدولية، وكان نائبا لرئيس محكمة العدل الدولية.

وقد فاجأه مجمع اللغة العربية باختياره عضوا فيه ١٩٤٥، وقد قال عنه د. طه حسين "عاد عبد الحميد بدوى من باريس موفقا سباقا كما تعود أن يكون موفقا سباقا، ومنذ ذلك الوقت أصبح عبد الحميد بدوى هو الشاب ثم الرجل الذى عرفناه ونعرفه الآن، وقد كملت خصائصه وكملت مزاياه وأصبحنا نستطيع أن نتعرفه وأن نتعرف عقله ومزاجه الفكرى والثقافى وشعوره

أيضا. فهو صاحب فكر وشعور ، وليس من هؤلاء الذين قصروا حياتهم على الناحية العقلية الخالصة. وعبد الحميد بدوى من أكثر الناس قراءة ولعله أن يكون أكثر الناس قراءة فى مصر فى اللغة العربية واللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية، وهو بهذا استطاع أن يكون لنفسه هذه الثقافة العالية الرفيعة المترفة المتميزة التى لا يستمتع بها كثير من المصريين فى هذا العصر" إنه "صاحب خيال بديع بعيد المدى وصاحب نظرات واقعية .. كون لنفسه مزاجا بديعا من هذه الواقعية والخيالية فى وقت واحد" "ما أعرف من المثقفين الممتازين من المصريين أقدر منك على تحديد الألفاظ ، وما أعرف بين المثقفين الممتازين أقدر منك على تحديد المعانى قبل أن تختار لها اللفظ، ثم أنت صاحب فقه، وأظنك توافقنى على أن أحدا لم يخدم اللغة العربية فى تاريخها القديم كما خدمه الفقهاء ، فهم الذين مهدوا هذه اللغة ، ويسروها، وجعلوها حقا لغة علم وفلسفة وتفكير عقلى عميق رقيق".

أما العقاد فيصفه بأنه "قيد من القانون، وقيد من الكياسة ، وقيد من التكاليف الرسمية ، ويمشى بينها. فيخيل إليك من سلامة المشية أنه لا يتعثر بقيد من القيود، الشريعة عنده طبيعة، والثقافة عنده فن وذوق"

طالب يمنى

وفى رسالتهالتى كتبها "قريبا من انفجار بركان الحرب العالمية الثانية، يوصى د. عبد الحميد بدوى طه حسين على أحد الطلبة ليرسله فى بعثة ، فيقول:

عزيزى الدكتور

أرسل لك أطيب التحيات وأرجو أن تكون قد عدت موفور الراحة والنشاط، وقد سمعت من صديقى جاكيه بأخبار رحلتكم فى بلجيكا وباغتباطه بمرافقتكم . فلعلها كانت موفقه.

أكتب لك ونحن نعيش قريبا من انفجار بركان الحرب، والأخبار تفيض بأسباب الزعر ونذر الخطر. وكان من شأنها أن تمنع من التفكير فى الشئون الصغرى من الحياة. ولكن الحياة تأبى إلا أن نسير فيها كما لو كنا نعيشها أبدا. كذلك أرجو المعذرة إذا كانت كتابتى لك على البعد فى شأن من تلك الشئون الصغرى.

ولعلك تذكر أنى حدثتك يوما فى شأن طالب اسمه أحمد صادق موسى راجيا تسهيل إلحاقه بكلية الآداب. وقد علمت أنه فى دور مايو ١٩٣٧ حصل على ليسانس الآداب قسم التاريخ وبترتيب حسن ، وأن أساتذته راضون عن عمله ، وأنه درس بمعهد الآثار الإسلامية، فهل لى أن اطمع فى أن يكون أحمد صادق موسى من بين من يرسلون فى هذه البعثات. وإنى لأكون شاكرا كل الشكر إذا كان لطلبى هذا حظ من موافقتك وعنايتك. وأرجو أن تقبل لك ولمدام طه بك أصدق التمنيات.

عبد الحميد بدوى

سليم حسن و"الردح" فى بيان رسمى!

لا يخجل الرجل العظيم من تاريخه مهما كانت بداياته متواضعة، وكذلك كان سليم حسن صاحب أول دكتوراه فى الآثار المصرية وصاحب أعظم موسوعة فى تاريخ الحضارة المصرية القديمة ، والتى بلغت ٣٢ مجلدا ، إنه يقول عن نفسه "باعت أمى حليها لأتم دراستى"، وقد كان هو ومحمود على حمزة أول مصريين يدخلون المتحف المصرى كأمينين مساعدين للمتحف، حيث كانت وظائف المتحف وقفا على الأجانب، ويتذكر "فى نهاية عام ١٩٢٨ استدعتنى كلية الآداب لتدريس علم الآثار فيها بدلا من أستاذ فرنسى ترك الكلية ، ويرجع الفضل فى إسناد هذا العمل إلىّ أنا بالذات إلى الدكتور طه حسين الذى زكانى لدى المسئولين".

وقام بحفائر لحساب الجامعة المصرية بجوار "بول حول" وهو الاسم الحقيقى لأبى الهول، ومعناه "مكان عبادة الشمس" ، وكان أول مصرى يعمل فى ميدان الحفائر الذى كان حكرا على الإنجليز لذلك فوجئوا بهذا المصرى الذى يتحداهم فحاولوا تخويفه بلعنة الفراعنة، ولكنه كان مصمما على أن يتحدى أعداء بلاده، ومصمما فى الوقت نفسه على أن يثبت خرافة "لعنة الفراعنة"، فاكتشف أكبر مقبرة ظهرت فى الدولة القديمة كلها، "رع ور" والتى ظلت الصحف العالمية تكتب عنها وعن صاحبها الشاب المصرى ، لمدة عشرة سنوات ما بين ١٩٢٩ إلى ١٩٣٩ ، كما اكتشف سليم حسن "الهرم الرابع" واكتشف قبر أول مرأة ملكة (خنت كوس).

ورأت الحكومة المصرية أن تكافئ فتاها المصرى بتعيينه مديراً للمتحف المصرى بدلا من مديره الفرنسى غير أنها لم تستطع أمام الضغوط الفرنسية المسيطرة على المتحف الذى كانوا يعتبرونه إرثا خاصا لهم .

ولم يمكن مكافأة سليم حسن إلا بأن يتولى كأول مصرى معين وظيفة وكيل مصلحة الآثار ، وحينما أعاد الملك فؤاد ما كان يحتفظ به من آثار إلى المتحف المصرى ، تم تسجيلها، ولما تولى فاروق العرش طالب باستردادها باعتبارها إرث أبيه، فتصدى له سليم حسن باعتبار أن هذه الآثار بعد تسجيلها قد صارت ملكا للدولة وإذا كان لابد من تسليمها فلتسلمونا إيصالا بذلك، هكذا قال.

وكان رد فاروق : الفلاح ابن الكلب يأخذ مال أبويا"!

أما رأى أبيه الملك فؤاد فقد قال: إن سليم حسن شاب يعمل ويجتهد غير أنه لا يرغب أن

يرى أفرنجيا فى البلد بل يريد أن يكون هو المسيطر على المتاحف والآثار المصرية(*).

وتواطأ بعض المهربين مع بعض علماء الحفريات الأجانب ضد سليم حسن لتلفيق التهم له بتحريض من فاروق نفسه ، وكانت التهمة المضحكة هى أن سليم حسن يسرق أجور العمال ولم يستطيعوا إثبات ذلك، ولكن سليم حسن أثبت أن الملك نفسه هو الذى كان يسرق المتحف، بعد أن قام بجرده ليكتشف أن تسع قطع من المتحف مسروقه، ليتبين أنها موجودة فعلا بقصر فاروق الذى علم اكتشاف سليم حسن لهذه السرقات فقرر إبعاده بأى ثمن ، ولما تولى د. محمد حسين هيكل وزارة المعارف وكانت الآثار تابعة لوزارته ، أعاد سليم حسن إلى المتحف ليكتشف وجود سرقات أخرى رهيبة، ليحاولوا بعد ذلك تلفيق التهم له، ولكن ياسين أحمد النائب العام آنذاك قام بتبرئته بعد التحقيق معه وأبلغ السراى ببراءته ، فكان جزاؤه إبعاده من منصبه بسبب نزاهته، ولم يكن هناك بد من إبعاد سليم حسن للمرة الثانية، لتعيده حكومة النقراشى باشا إلى العمل يوم أربعاء ليثور الملك ويطلب إبعاده، فيجتمع مجلس الوزراء يوم الخميس ويقرر إبعاده استجابة للرغبة الملكية. ولكن سليم حسن . وجد أن الملك قد خدمه خدمة العمر "أراد فاروق أن يكيد لى بإخراجى من المتحف ولكنه فى الواقع منحنى الفرصة لأسجل أعمالى وأكتب تاريخ بلادى".

وكتب فى إهدائه لأول كتاب من موسوعته الرائعة عن تاريخ الحضارة المصرية، معرضا بفاروق ساخرا منه حيث كان من "أولئك الذين باعدوا بينى وبين الوظيفة والذين قربوا بينى وبين العلم" وكان الفضل لسليم حسن فى حماية آثار توت عنخ آمون من الضياع، وأثار أزمة مع الإنجليز بسبب تصميم عالمهم "كارتر" الحصول على ثمن اكتشافه بحصول الإنجليز على بعض هذه الآثار، فتصدى سليم حسن لهذه المحاولة وطلب من الحكومة المصرية أن تقدر التكاليف التى أنفقها كارتر وتمنحها له.

وكما أبلى سليم حسن فى مجال الآثار وعلوم الآثار، فقد أبلى فى تخريج الكثيرين الذين عرفوا على يديه لأول مرة كيف يحبون تاريخ بلادهم.

إنه يتذكر المحاضرة الأولى له فى الجامعة المصرية(*) "لقد كان موقفا شد أعصابى حينما دخلت إلى الجامعة المصرية بعد عودتى من فرنسا بشهرين، دخلت كأستاذ مساعد لعلم الآثار، وكان الفضل فى ذلك للدكتور طه حسين.

لقد كنت أول مصرى يدرس هذا العلم ، ودخلت إلى القاعة وفجأة ران الصمت على

(*) من حديث سليم حسن إلى رؤوف توفيق بصباح الخير ١٩٥٩/٨/٢٧.

(*) المصدر السابق

الجميع ، وذهبت إلى المنصة وبدأت أتكلم.

تكلمت عن آثار بلادنا بحماس وبصدق وبكل مشاعرى ، ورأيت الدهشة على وجوه الطلبة، إنهم يرون شخصا يتكلم باللغة العربية فى هذا العلم لأول مرة ، ويشاهدون شخصا يتكلم عن آثارهم بهذا الحماس.

وانتهت المحاضرة ووجدت جميع الطلبة الذين كانوا يسمعوننى يلتفون حولى ويشدون على يدى بحرارة".

وفى كل فترات حياة هذا الرجل العظيم لم يسلم شرفه الرفيع من الأذى، فعندما طلبته وزارة الثقافة فى نهاية الخمسينيات ليشرف على جرد المتحف المصرى ، اكتشف أنه خربان، وواصل مهمته لوضع سجل علمى لمحتوياته ليكون جزاؤه أن تخرج وزارة الثقافة ببيان رسمى تتهم فيه الرجل بسرقة المتحف وتفتح ملفه أيام فاروق لتؤكد به ما جاء فى بيانها رغم أن الرجل قد برئ آنذاك ، مما دعا الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين ليتصدى لما أسماه بـ "الردح فى بيان رسمى" ، متسائلا : كيف يتهمون سليم حسن بأنه "لص" فى الوقت الذى ائتمنوه فيه على المتحف الذى لا تقدر محتوياته بثمن ، فكيف عهدوا إليه بجرده وهم يعلمون عنه أنه لص قديم.

وتحفل خطابات سليم حسن التى أرسلها إلى طه حسين حيث كان يحصل على أرفع الدرجات العلمية من باريس وفيينا ، بالحديث عن التلفيقات ضده وهى الفترة التى كان يعمل فيها بمصلحة الآثار، وكان فى كل ما طعن به يتمثل ببيت شعر لعبد الله النديم يقول فيه:

إذا الدهر صافانا مرضنا وإذا عدنا إلى خطب شفينا

وقد ظل ابن قرية ميت ناجى بميت غمر دقهلية يعمل حتى لحظاته الأخيرة من حياته الممتدة منذ الثامن إبريل ١٨٩٣، فحاول أن ينجز عملا عن كليوباترا يبرئها فيه من كل التهم المنسوبة إليها والأساطير العالقة بها، كما حاول أن ينجز كتابا فى خمسة أجزاء عن نهر النيل بتكليف من الرئيس جمال عبد الناصر، ولكن الموت كان قدرا مقدرا عليه ليكتب له الخلود فى سجل العظماء، كريما فى عطائه ، كريما فى نفسه ، حتى أن أحمد الصاوى محمد كتب عن منزله الذى استأجره ويفرشه لاستقبال المبعوثين المصريين فى باريس "إنه بيت الأمة فى فرنسا" .

ولنتصفح خطابات سليم حسن إلى طه حسين . ولنقرأ خطابه الأول ، ومحتوياته الحافلة بمختلف الثقافات التى لم يكن أولها ولا آخرها التاريخ الفرعونى والحضارة المصرية القديمة لنقف على مدى الموسوعية التى كان يتمتع بها مثل هذا الجيل الرائد.

إنهم يشوهون سمعتى

يقول سليم حسن وهو يكتب من :

باريس فى أول أغسطس ١٩٣٥.

عزيزى طه

أكتب إليك هذه الكلمة بعد أن فقدت كل أمل فى أن يصلنى منك شيئا حسب الاتفاق وبعد أن قابلت عبد الوهاب باشا على ما أظن.

أريد أولا أن أقص عليك ما حدث طول المدة التى لم أرك فيها سواء كان ذلك فى أوربا أم كان فى مصر.

ذهبت من مصر قاصدا فيينا لاجتياز امتحان الدكتوراه فى الفلسفة ، ولم أخبر أحدا بذلك لأنى كنت أخاف سوء العاقبة وبخاصة بأنه كان امتحان مسابقة لابد أن يحصل الطالب على درجة فائق فى كل مادة ، وقد كنت أجهز له منذ عامين . والمواد كما يأتى:

أولا اللغة المصرية القديمة بفروعها، وعلم الآثار ورسالة على جبانة أهرام الجيزة فى ٣٠٠ صفحة باللغة الألمانية.

(٢) ما قبل التاريخ (٣) تاريخ الفلسفة الإسلامية

(٤) بحث خاص فى فلسفة جلال الدين الرومى وشعره الفارسى

(٥) التاريخ الإسلامى (٦) تربية الطفل من جهة علم النفس

كل هذه المواد كانت موضع الامتحان باللغة الألمانية، وفعلا انتهى الامتحان كله بخير بالدرجة المطلوبة، وقد أرسلت الدكتوراه إلى الجامعة .

بعد ذلك ذهبت إلى بروكسل، حيث المؤتمر، وقد قدمت لهم مختصرا على أعمال الحفر، وألقى سامى (جبره) محاضرة جيدة كانت موضع الإعجاب (......) بعد ذلك قامت حملة فى الجلسة الأخيرة دبرها"كايار" ضد "لاكو" ومن المدهش أن رئيس الجلسة كان أمين متحف اللوفر، ثم قام المسيو "جوجيه" مدير المعهد الفرنسى واحتج على الجرائد المصرية لأنها تريد أن تهدم المعهد الفرنسى، وكذلك احتج على المسيو "لاكو" وبعد ذلك انبرى "كايار" ولم يترك أى سخافة لم يذكرها ضد مصلحة الآثار وعندئذ قام سامى جبرة وقال: إنه ليس هناك

أى شئ ضد المعهد الفرنسى ، وأن المصريين يحترمون المعهد كمعهد ، ثم رد على كايار عندما هاجم لاكو، قائلا: لا تحملواالناس جرائم بدون ذنب اقترف.

كل هذا وأنا لا أقول كلمة واحدة ، غير أن سامى بعد الجلسة قال : إن زميلى سليم موافق على كل ما قلته. فنظر إلى كايار وما يريد أن يصل إليه، يريد فى كل هذا أن تعينه الحكومة المصرية مستشارا فى المتحف المصرى.

بعد ذلك عدت إلى باريس وهنا وصلنى قصاصة من جرنال روز اليوسف اليومية وفيه أن سيدة فرنسية رفعت دعوى على أستاذ فى الجامعة المصرية تطالبه بمبلغ ٨٠٠٠ جنيه، وأنه كان سيتبناها أمريكى ولكن تركته لأجل هذا الأستاذ، وأنها صرفت هذا المبلغ عليه وعلى أصدقائه ومنهم وزيرا من العهد البائد (......) ما علينا بلغنى هنا من رجال الآثار أن هذه الحملة مدبرة وموعز بها ضدى لأجل تشويه سمعتى ولكن هذا لا يضير.

وقد كتبت لكل الرجال المختصين فى هذا الموضوع. وهذه السيدة تقول الآن أنها محبة من السفارة الفرنسية والقنصل الفرنسى ، وأن خطاباتها تصل إليها بواسطة البريد السياسى، وأنها تجمع وتعمل وثائق ضدى ، الغرض منها التشنيع، وأن هناك من المصريين من يساعدوها ، ولكن كل هذا لا يهم ، وما كنت أخافه قد كان.

والآن أكتب إليك هذا بالتفصيل حتى تكون على علم من كل شئ (......) وفى الختام أرجو أن تبلغ سلامى إلى السيدة حرمك وكلود والسيدة جيجيت والسيد فريد ومنى لك ألف سلام.

المخلص

سليم حسن

فى شدة الحيرة

وفى خطاب آخر:

تحريرا فى ٧ أغسطس ١٩٣٥

عزيزى طه

تسلمت جوابك على خطابى وسررت به كل السرور ، ولقد حزنت كثيرا لأنك لم تقابل عبد الوهاب باشا وبخاصة أنه بعد ذلك على ما سمعت وصله خطاب تهديد أو ما أشبه،

ولكن كل ذلك صرخة في واد.

يؤلمني كل الألم أن أتخذ ضد هـذا الشـخص إجـراءات قاسـية ولم يكـن بـد مـن اطـلاع فخرى باشا على الموضوع وهو صديق لى ، وقد أظهر من الاهتمـام والشـهامة مـا جعلـه فـى عينى من العظماء بحق.

وقد توصل إلى معرفـة أشـياء عـن هـذا الشـخص وكتـب عنـه تقريـرا يخجـل لـه وجـه الإنسانية عامة وهو الآن معى ولا يزال هو مستمر فى بحثه وقد وضع نفسه تحت تصرفى فـى هذا الموضوع، ولكن رغم هذا تجدنى لا أريد الأذى لهذا الشخص الضعيف وبخاصة لأنه فـى حالة سيئة. وكل ما يؤلمنى أن أسمع أن رجال المعهد الفرنسى قـد دفعوا لـه مبلغـا مـن المال، ولكنى استبعد ذلك كل البعد لأقدر ما يصل إليه ذهنى. وتجدنى الآن فـى شـدة الحيرة: هـل أستمر فى عملى لطرده من مصر بأشنع ما يكون أو أتركـه يسـتمر فـى القضيـة حتـى يخيـب وأظهر التقرير الذى معى؟

كل هذا جعلنى لا أذوق النوم إلا غرارا ، هذا مع كثرة مشغولياتى العلمية، فما رأيـك فى هذا، التقرير خطر جدا على هذا الشـخص لأنـه جعلـه لا شئ . ومـع هـذا فإنى أحفـظ الذكرى.

وقد طلب إلىّ فخـرى باشـا أن أكتـب للأمـن العـام وأن أتصـل بـه باسـتمرار فـى هـذا الموضوع ، وأملى أن ينتهى بأحسن الطرقِ وأسهلها (......) ما علينا من كل هـذا أرجـو أن تكون قد وفقت إلى وجود مكان للراحـة فـى قمـة الجبـل وأن تكـون السـت والأنجـال علـى أحسن ما يكون من الصحة والعافية وأن يكون فريد مسرور فى الجبال العالية المريحة.

سأذهب إلى برلين يوم السبت ١٠ أغسطس لأستمر فى أبحاثى فـى القـاموس المصـرى، وبعد ذلك أعود إلى باريس حوالى عشرة سبتمبر ثم أذهب إلى رومه (روما) فى الوقت الـذى ستكون أنت فيه، فلو كتبت لى عن ميعـاد ذهـابك إلى رومـة كنـت معـك فـى نفـس الوقـت (......).

وفى الختام أرجو لك كل الصحة والعافية أنت وجميـع الأسـرة الكريمـة والسـيد فريـد، وتقبل تحياتى.

المخلص

سليم حسن

وفى خطابه الأخير يقول سليم حسن:

عزيزى الدكتور طه

سلامى عليك بقدر شوقى الشديد إليك . وبعد أبعث إليك بهذه الكلمة من برلين بعد أن كتبت لك من قبل وأنا فى باريس على العنوان الذى كتبته فى خطابك لى ، ولم يصلنى منك إلى الآن ردا.

وها أنا أكتب لك أولا لأستفسر عن صحتك وصحة الأنجال والسيدة حرمكم والسيد فريد. أما أنا فقد اعتلت صحتى كثيراً لدرجة كنت فيها مع اليأس ولكن الله سلم وأخذت صحتى فى التحسن بعض الشئ. لقد كاد الكبد أن يقف دفعة واحدة فأظلم العالم فى وجهى وضاق صدرى ولكن الحالة أحسن (.........). أنا اشتغل الآن رغم المرض فى مطالعة أفلاطون ثم حل رموز لوحة عثر عليها حديثا فى المعبد الذى يرجع عهده إلى الرعامسة (عثر عليها من بضعة أيام قبل قيامى من مصر).

من الغرائب أن هذه اللوحة الحجرية هى لأكبر أولاد رعمسيس الثانى ويتكلم فيها عن وجود معبد فى الجهة القبلية الشرقية من الهرم الأكبر ويسميه معبد الوادى، وقد أدهش هذا علماء الآثار عامة.

على كل حال قد أطلت عليك ولكن الصنعة حبكت . وفى الختام تقبل منى كل تحية وكل محبة صادقة.

سليم حسن

فى ٢١ أغسطس ١٩٣٥

أحمد بدوى فى بلاد العجائب

ليس أبلغ للدلالة على شخصية إنسان مهما كان وأيا كان سوى لمحة إنسانية بسيطة تظهر معدنه الأصيل وروحه الوثابة نحو الخير، ولم يلفتنى إلى د. أحمد بدوى فى تاريخه العلمى الحافل سوى هذه القصة الواقعية الإنسانية القصيرة البليغة والتى تقول سطورها(*):

د. أحمد بدوى مدير جامعة عين شمس طلب من وزارة الثقافة والإرشاد علاج موظف يعمل "بالجامعة منذ ثلاثين سنة" أصيب بانفصال فى شبكية عينيه، على نفقتها فى ألمانيا ، ظهر أن العملية تتكلف خمسمائة جنيه ، اعترضت اللوائح رجاء المدير. بعث المدير يطلب صرف المبلغ واقتطاعه من مرتبه على أقساط ، قررت الوزارة الاستجابة لطلب المدير".

ذلكم هو د. أحمد بدوى المتخرج من جامعة القاهرة بعد أن تتلمذ على طه حسين وشفيق غربال وسليم حسن وسامى جبره ، والذى صار فيما بعد أستاذ الآثار، وفقه اللغة المصرية القديمة، واللاهوت المصرى القديم بعد ما تخصص فى ألمانيا حيث نال درجة الدكتوراه فيها، وإليه يرجع الفضل فى الكشف عن كثير من حفائر ميت رهينة ، وله مؤلف شديد الأهمية بعنوان "فى موكب الشمس" من جزئين:

فجر الحضارة المصرية إلى آخر ضحاها، وتاريخ مصر الفرعونية من آخر الضحى إلى أول الأصيل. والذى يعترف أحمد بدوى لطه حسين "والله يشهد - أننى لم أضع منه حرفا، ولم أسطر سطرا إلا ورأيتك معى تشجعنى ، وتعيننى ، وتلهمنى أجمل اللفظ، وأحسن الرأى". فلم يبتعد أحمد بدوى عن طه حسين ، ولم يبتعد طه حسين عن أحمد بدوى ، رغم أن طه حسين قد حاول عندما كان عميدا لكلية الآداب أن يغير مجرى حياة الدكتور أحمد بدوى بأن يجعله من علماء الأدب العربى، ولكن بدوى أصر على أن يمضى فى دراسته عن فراعين مصر، ليقدم لنا أول قاموس عربى هيروغليفى هو "معجم مفردات اللغة المصرية القديمة" بالاشتراك مع هيرمان كيس" أستاذ الدراسات المصرية بجامعة "جوتنجن" بألمانيا، وقدم لنا "وحدة وادى النيل وأسسها الجغرافية ومظاهرها فى التاريخ" - مشترك - كما قدم لنا : "أيام الهكسوس ، و"حور محب" وأشرف على إنقاذ آثار النوبة، وعهد إليه بإنشاء أول معهد لتسجيل الآثار فى مصر، وحائز على جائزة الدولة التقديرية. وشغل منصب رئيس جامعة القاهرة، وما بين مولده بقرية أبو جرج بمركز بنى مزار

(*) جريدة الأخبار ٨/٩/٥٩

بمحافظة المنيا فى ١٣ مارس ١٩٠٥ إلى وفاته ١٩٨٠، عاش حياة ملؤها الحب والوفاء والإنسانية، وتجده فى رسالة قصيرة معبرة إلى طه حسين خلال أزمته التى طرده فيها رئيس الوزراء الديكتاتور إسماعيل صدقى لرفضه التعاون معه ومع حزبه المكروه ، تجد أحمد بدوى عالم الآثار وفقيه اللغة الهيروغليفية، يتمتع بحس أدبى سنلمسه فى هذه الرسالة وسنستمتع به فى رسالة أخرى، ولعل إدراك طه حسين لقدرات تلميذه هى التى جعلته يحاول أن يجذبه إلى الأدب العربى، ولكنه انجذب إلى عصر الفراعنة ولم يتخل عن أدبه ككاتب، وأدبه كإنسان، يقول فى رسالته إلى طه حسين إبان محنته:

سيدى وأستاذى

لا عجيب يُرى فى بلاد العجائب ومصرك أم العجائب.

كل شئ على النقيض تنعكس فيها طبيعة الأشياء "وجزاء المحسن أن يساء" ولكنها على الرغم تخدم وأنت خادمها المخلص حيثما كنت وكيفما كنت جزاؤك على ا لله الخير.

تحية يحملها الشوق من تلميذكم المتألم الحزين.

أحمد بدوى

يا سيدى الدكتور لو حكمت قلبك دون سمعك

وفى رسالة أدبية بليغة طويلة تلمس فيها روح طه حسين وأسلوبه، نقرأ لأحمد بدوى عتابا مهذبا إلى أستاذه الذى صدق فيه الواشين فاتهم تلميذه بالجحود والنكران، ولكن الرجل يبرئ نفسه فى هذه الرسالة التى تعتبر من الروائع فى أدب الصداقة، فلنقرأها كاملة فهى تشي بما فيها:

أستاذى الجليل

تحية حب ووفاء ، من قلب صورته خرابا من الحب والوفاء!

ولست ألومك على ذلك ، فعذرك فى الحكم ظاهر ، وحجتك واضحة، تنهار أمامها كل حجة، ويبطل دونها كل دفاع. لأنك رأيت منى غير ما عودتك. ورابتك من أمرى جفوة وقطيعة . فلقد كنت ألقاك فى الجامعة وأغشى دارك أيام الطلب، ثم أراسلك أيام الغربة . وكنت تبادلنى حبا بحب، ووفاء بوفاء. وكنت أجد لذلك لذة لا تفوقها لذة، وغبطة لا تعد لها غبطة ، وفرحة تبلغ بالنفس أبعد غايات الرضا، وتطير بآمالها إلى أبعد ما يصور القلب من آفاق السعادة فى هذا الوجود.

لقد عشت في الغربة دهرا، لونت لى الحياة أيامه بألوان مختلفة: منها الأبيض المشرق الذى يسعد النفس ، ويرضى القلب، ويشرح الصدر، ويملأ الفؤاد فرحا وأملا. ومنها الأسود المنكر البغيض ، الذى تغتم له النفس، وينقبض الصدر، ويروع الفؤاد. ومنها الباهت الفاتر الذى تفتر فيه الهمة، ويعتل النشاط، ويضعف الأمل.

عرفت هذه الحياة بألوانها المختلفة ، وجنيت من رياضها الباسمة كل ورد ، وروعنى ما حول ورودها من شوك . وشربت من كأسها المترعة كل صاب وشهد. أى وا لله شربت من ذلك كله بالكبير وبالصغير. وتلك كانت حياتى في دار الغربة: كل يوم بعمر، وكل ليلة بدهر. وهى وا لله الحياة التى عرفتها. وأنكرت من دنياى ماعداها ومازلت أذكرها، وأحنُ إليها، وأردد كلما ذكرتها قول الشاعر :

يومى بأيام لكثرة ما جرت فيه الحياة، وليلتى بليالى. رحم ا لله عهدها. فأنا أحب أيامها ، وأحن إلى لياليها، بل أحب الأرض التى أمضيتها عليها، والسماء التى أظلتنى فيها. وأحب ما بين الأرض والسماء، من ناس وحيوان، وطير، وحجر، وشجر، وماء، وهواء.

أتدرى لماذا ؟ لأننى من الذين يعرفون الحب والوفاء، كأصدق ما يكون الحب والوفاء.

ولأننى من الذين لا يرون الوفاء كاملا عند الناس إلا إذا ادخروه للزمان والمكان، كما يدخره بعضهم لبعض. ولأنك كنت معى فى كل ذلك ! أى وا لله! لقد كنت معى يومئذ فى الزمان والمكان وفى كل ما سلكت من سبيل.

فأنا أراك حين أستقبل الصبح لاضطرب فيما يضطرب فيه الناس من حياة النهار.

وأنا أراك حين يغشى الليل النهار فأسعى فى حواشيه جادا تارة وعابثا تارة أخرى.

أراك معى عند الشدة وحين الرخاء . وعند النقمة وحين البأس ، وفى أفراحى وأحزانى . وحين أكتب وحين أقرأ. ثم ألقاك فى قاعة الدرس. وما أكاد أغادرها إلا لأدبر معك ألوانا من الحديث حول ما نقلتُ أو أفدت.

ثم تصرعنى العلة فألقاك عند فراشى معزيا ومواسيا ومشجعا فأحاول أن أشكر لك كل هذا البر، فينعقد لسانى لتريق عيناى بعض الدموع. ثم أراك بعد ذلك محزون القلب، ملتاع الفؤاد، دامع العين ، حين تشيع جنازتى فى القاهرة، فأبكى رحمة لك، وشوقا إليك، وإشفاقا من فراقك، ويفزعنى كل ذلك ، فأنتفض فى النعش، وأحاول مجاهدا أن أفلت من قيود الموت، لأسعى إليك فأشكر لك برك بى ، وعطفك علىّ، ولأحمد لك أبوتك الكريمة ، وأخوتك الصادقة، ولأنى شعرت يومئذ أن قلبى قد كان ينطوى على أشياء، أشفقت أن

يغادر بها الدنيا، وينتهى بها إلى القبر، فيظل مطويا عليها إلى يوم ينفخ فى الصور، وتنفضُ عنها الهامدين المقابر.

أى وا لله ، لقد كنت حريصا على أن استودعها إياك، لأنك أقرب الناس إلى نفسى ، وأحبهم إلى قلبى وآثرهم عندى، وأعزهم لدى، وأبرهم بى.

ثم تقع المعجزة الكبرى ، فإذا ا لله يبعث الميت ، ويرد عليه أثواب الحياة، فلم يكد يدب على الأرض، ويبلغ السعى مع نفسه وآماله ، حتى يفكر فيك. فيسعى إلى الوطن، ولم يكن له فيه – شهد ا لله من مأرب غير لقائك، يحب أن يسعد نفسه به كما يسعدها بلقاء أبويه وعشيرته الأقربين.

ويعود بعد اللقاء الكريم إلى أوربا ليستأنف دراسته وفى نفسه منه أجمل الذكر، وأطيب الأثر وأحلى الأمانى. وهو لم يكد يبلغ أوربا حتى يلقى العلة فى انتظاره، فلا يعبأ بها ولا يخاف لها فتكا، ولا يشعر لها ببطش . لأنك كنت معه ، ولأن عطفك وبرك ووفاءك ، قد ملأ صدره بإيمان قوى وآمال عراض . فراح يسعى إلى الخلاص من علته ، وينس آلامها، ويطلب البرء منها، فيستسهل الصعب ، ويستهين بالشدائد، ثم يمضى فى دراسته بأمل الواثق وإيمان النبى.

ثم يبلغ الوطن آخر الأمر فيلقاك فى انتظاره، ثم يلقى عندك من البر والوفاء والمعونة والنصر فوق ما كان ينتظر ، فيمضى فى سبيله وفيا لك ، مقبلا عليك ، متعصبا لبعض رأيك، فخورا بحبك، معتزا بصداقتك ، شاكرا لفضلك، طامعا فى رجائك، يذكرك كما يذكر أباه، ويجد لنفسه عليك ما يجد على أبيه من دالة. ثم تجرى بنا أيام الحياة فى الجامعة سهلة هينة، حلوة بسامة ، ولكنها كانت مع الأسف قصيرة الأجل، محدودة العمر. لأن الظروف قد نقلتك من الجامعة إلى ديوان المعارف (لا كان ولا كانت أيامه السود). وإذا بك تطلبنى ذات يوم فأسعى إليك، لأسمع منك أنك ترى من الخير أن تكون حياتى العلمية مشاعا بين الجامعة ومصلحة الآثار (لا كانت هذه الأخيرة ، ولا كان عهدها، ولا كان أهلها ، ولا كانت أيامها البغيضة المنكرة). ليتك ما دفعتنى إليها. وليتنى عصيتك يوم أن فتحت لى السبيل إليها.

ترى هل كان فى وسعى يومئذ أن أعصيك ؟ كلا! لقد كان الأمر أمرك ، وكان الخير فيما ترى . وكنت لا أطيع غير أمرك ، ولا أهتدى إلا بهديك.

قبلت ذلك راضيا ، ورضيت به مسرورا، ولم أكد أمضى فيه غير قليل، حتى رأيتك صادا عنى ، تدبر حين أقبل ، وتعرض حين أقصد، لا أكاد أزداد فى التقرب منك حتى

تشتط فى البعد عنى.

وأسائل نفسى عن أسباب كل ذلك فتزداد حيرتى، هنالك عرفت أن الواشين قد لعبوا بينك وبينى، فأسمعوك عنى ما لم تُعوَّدْ ، وصورونى لك على غير حقيقتى . وإذا بى فى ديوانك ذات يوم لأسمع منكرا من الأمر، فأسمع أننى سفاح، وأننى أعرف كيف أقتل الناس، بل أعرف كيف أقتل أبر الناس بى ، وآثرهم عندى، وأحبهم إلى قلبى، وأكثرهم حفاوة بى، وعطفا علىّ. ثم أسمع أن رسائل عدة قد دست عليك فى هذا الأمر المضحك المبكى فى آن واحد. وأسمع منك ضحكا من ذلك ، وإنكاراً له، وتندرا عليه، ثم أخرج من عندك مشفق النفس، محزون الفؤاد مرتاع القلب، لا أكاد ألتمس فى هذه الدنيا غير ثقتى بنفسى وسخريتى من أخلاق الناس، وغير كلمات طيبات سمعتها منك، فيها استنكار لما افتراه الواشى وفيها طيف من عزاء لتلك النفس المحزونة، التى لم تعرف الحياة بغير الوفاء.

لقد خرج الرجل من عندك يومئذ وفى قلبه حسرة ، وفى فمه مرارة . ثم حاول أن ينسى ذلك سريعا. ولكنه لم يستطع.

ولولا بقية من إيمان، لألغى عقله ، وأنكر جهده، وجحد مروءته ، ونسى ماضيه ، ولعن الدنيا ومن فيها. ولكنه ثاب إلى رشده، وعلم أن الشر فى الدنيا أكثر من الخير، وأن الباطل أشد من الحق. وأخذ يرد نفسه إليك ، فيلقاك مرة ومرات ، ثم يقبل عليك ليراك كما عرفك ، وليلقى عندك ما تعود أن يلقى من مودة ورفق، فلا يكاد يحس من ذلك شيئا. وإنما هو يلقى منك إعراضا وفتورا . وأنا أترك لك وحدك تصوير النفس المحزونة حين تجد عند الأصدقاء إعراضا وفتورا.

أما أنا فلا أخفى عليك أننى أنكرت ذلك أشد الإنكار ، وأخذت أفاضل بين كرامة إنسانيتى وبين مظاهر الحب والوفاء ، فآثرت الأولى والتمست العزلة أملا فى أن ألقى بها شيئا من عزاء. وما حيلتى وقد علمنى أبى يرحمه الله أن أقبل عليه حين يرضى، وأعرض عنه حين يفتر، فأتكلم وأستعذب الألم فى سبيل ذلك؟

شاء الله قبل أعوام أن أخرج لقراء العربية كتابا فى تاريخ مصر – والله يشهد – أننى لم أضع منه حرفا، ولم أسطر سطرا إلا ورأيتك معى تشجعنى، وتعيننى ، وتلهمنى أجمل اللفظ ، وأحسن الرأى. ثم حاولت أن أحمله إليك، فمنعنى – مكرها – ما كنت أحس من إعراض وفتور، واضطررت إلى أن أبعث به إليك عن طريق لجنة التأليف.

ذلك هَمٌ طويته فى صدرى أعواما، ثم حملته ثقيلا خشنا، لأصوره لك اليوم، وقد انتهى إلىّ على لسان صديق مارميتنى به من انعدام الوفاء، فلم أملك، ولم أعتب عليك، وإنما لُمت

نفسى.

وإنما السئ الذى ألومك فيه، وأستأذنك فى الثورة عليه - إن صح أن يستأذن للناس فى الثورة . هو أن تصورنى متقلبا بين الناس، جاريا فى ركاب الوزراء .

لا يا سيدى! معاذ خلال المروءة، وحاشاى أن أكون من صوَّرت.

فأنا أعلم أننى امرؤ يعرف قدر نفسه ، ويقدر كرامة إنسانيته، ويؤثر الخروج من نعمة الحياة فى الدنيا والآخرة على أن يرى نفسه متقلبا بين الناس ساعيا فى ركاب الوزراء وغير الوزراء. لا يا سيدى الدكتور ارم بذلك من تشاء من الناس، فأنا أعلم أننى أكرم على نفسى ، وأشعر أننى أكرم على الدهر ، وأرجو أن أكون أكرم على ا لله من أن أزل على هذا النحو.

أُحلُ أن تصورنى كما تشاء إلا على هذا النحو المنكر.

ولعمرى يا سيدى الدكتور لو حكّمت قلبك دون سمعك لوجدتنى أبرأ الناس مما رميت به لديك. إلا أن تظن ما بدا لك والسلام.

ولتتقبل منى تحية ود ووفاء وا لله يحفظك للمخلص

أحمد بدوى

من حسين مؤنس إلى طه:
عن معركة والت ديزنى ٩٩ فى مدريد ٥٤

هو "مؤرخ الحضارة الأندلسية" التى تخصص فيها رغم أنفه، فقد كان[*] د. حسين مؤنس يريد أن يتخصص فى تاريخ مصر، ولكن أستاذه فى السوربون، كما يروى لنا بنفسه [1]"قال لى : لا أرى أن تكتب فى تاريخ مصر لأنك فيما أرى تحب بلدك حبا لابد أن يميل بك إلى الهوى، فابحث لك عن ميدان آخر، وأنا أرى أنك كتبت الماجستير فى تاريخ المغرب، فإما أن تكتب الدكتوراه فى المغرب أو الأندلس" .

وقد أحب حسين مؤنس الأندلس وتاريخها وحضارتها، ورغم ما قدمه فى هذا المجال إلى المكتبة العربية إلا أنه بكل تواضع العلماء يقول[2]: "بالرغم من مشوارى الطويل إلا أننى أحس دائما بالسعادة حيث تمكنت من أداء جزء من رسالتى العلمية ، من خلال مؤلفات عديدة من بينها: المشرق الإسلامى فى العصر الحديث ، فتح العرب للمغرب، تاريخ الفكر الأندلسى، عالم الإسلام، رحلة الأندلس ، شيوخ العصر فى الأندلس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس وتراث الإسلام، ابن بطوطة ورحلاته، وغيرها من البحوث، فضلا عن مؤلفات ومترجمات فى الأدب.

ولكن حبه الأول لتاريخ مصر الذى أراد أن يتخصص فيه جعله يضع كتابا مهما عن "مصر ورسالتها" ، وكانت هذه[3] أول محاولة علمية لفهم مصر وتفسير تاريخها والتعرف على شخصيتها والكشف عن رسالتها بين الأمم".

ومن أهم الكتب التى قدمها حسين مؤنس للمكتبة الإسلامية "أطلس تاريخ الإسلام" والذى كان من المفترض أن تقوم به لجنة علمية على أعلى مستوى عندما كان يعمل رئيسا لقسم التاريخ بالكويت ولكن فقدان الروح الجماعية فى العمل العلمى جعل المشروع لا يتقدم خطوة واحدة،

(*) مواليد ٢٨ أغسطس ١٩١١ بمحافظة السويس.

(١) مجلة الفيصل – السعودية – يونيو ١٩٩١.

(٢) الهلال ديسمبر ١٩٩٣.

(٣) السابق.

فأصر حسين مؤنس على أن ينجز المشروع الكبير وحده من ١٩٧٩ ، إلى عام ١٩٨٣ وعشر ساعات من العمل اليومي، وفقد في هذا العمل عينا ونصف عين فلم يعد يرى إلا بنصف عين مبصرة ، ولكنه مع ذلك كان يشعر بالسعادة الغامرة لأنه يؤدى واجبه العلمى بهمة وإخلاص.

وكان حسين مؤنس هو [٤]"صاحب فكرة إنشاء معهد مصرى فى مدريد يقوم بدراسة اللقاء بين حضارتى الشرق والغرب، إذ كان قد تقدم بمشروع مكتوب بهذه الفكرة (...) للدكتور طه حسين (أثناء توليه وزارة المعارف) وقرأ د. طه حسين المشروع المقترح. ولأنه كان ذا بصيرة وأفق ذهنى واسع ، وافق مبدئيا على المشروع واستمر (حسين مؤنس) وراء مشروعه هذا حتى أوجدت له الوزارة الميزانية المطلوبة، ثم (...) تحقق مشروع المعهد وأصبح له مكان ووجود" وحدث أنه بعد إنشاء المعهد فى عام ١٩٥٠ لم يعين حسين مؤنس أول مدير له، ولكن الرجل رغم ضيقه باعتباره صاحب المشروع إلا أنه كان سعيداً بخروجه إلى النور إلى أن صار مديرا للمعهد بعد ذلك فوضع من أجله كل جهده ليصير مصدر إشعاع حضارى إسلامى. وكان على اتصال دائم بطه حسين فى كل خطواته وإنجازاته، ويتذكر حسين مؤنس أول علاقة له بالعميد[٥] "سمع صوتى أول مرة وهو فى مقعد العمادة ولكن عندما لقيته للمرة الثانية وجدت أن صوتى قد تطبع فى ذهنه، فعرفنى لأول ما فتحت فمى، ثم لاحظت بعد ذلك أن ذهن ذلك الرجل يشمل الدنيا كلها" وتتذكر ابنة حسين مؤنس ما حكاه لها والدها عن فضل طه حسين عليه فتقول[٦] "من الأشياء التى لم ينسها أبى أبدا للدكتور طه حسين أنه هو الذى رشحه فى البعثة التى سافر بها إلى أوربا ونال بها درجة الدكتوراه. وحكى أبى أنه كان عليه أن يقوم بكشف طبى كامل قبل سفره للخارج (كان شيئا مثل القومسيون الطبى الحالى)، ونجح أبى فى جميع الفحوصات إلا فى كشف النظر فكان طوال عمره يعانى من نظر ضعيف، وكان هذا العجز سيمنعه من السفر. فذهب للدكتور طه حسين وحكى له ما حدث – وكان على ما أظن فى وزارة المعارف حينذاك – فأمر بالإعفاء من شرط النظر".

وتواصلت العلاقة بين حسين مؤنس تلميذا وأستاذا ومسئولا عن معهد مدريد، وبين طه حسين ، ويخبره بفكرته فى رسالته التالية والتى ينوى تنفيذها بإطلاق اسم طه حسين على قاعة محاضرات المعهد "تقديرا للفضل".

---

(٤) فى بيت حسين مؤنس – مجلة أكتوبر – ٨ ديسمبر ٩٦.

(٥) أكتوبر ١٩٩٥/٨/٢٨.

(٦) فى بيت – السابق.

يقول حسين مؤنس:

سيدى وأستاذى

تحية واحتراما وبعد

فإننى أعتذر إليكم عما أضيعه من وقتكم بهذه السطور، وأعتذر كذلك عن تأخرى فى الكتابة إليكم، والسبب فى التأخير أننى كنت أحسب أن ليس لى من نفسكم موقع يسمح لى بمخاطبتكم، وقد ظللت على ذلك حينا حتى تحدث إلىّ صديقى الأستاذ "غرسيه غومس" فأراح نفسى من هذه الناحية، وفهمت منه أنه لا زالت لى فى نفس أستاذى بقية من حسن الظن تسمح لى بالتطفل بالكتابة ، ويعلم الله مدى عرفانى لجميلكم .

وأحب أن أؤكد لكم أننى أبذل أقصى الجهد فى تهيئة هذا المعهد على الوجه الذى يمكنه من أداء رسالته كما رسمتموها له. وقد انقضت عليه فترة من عدم الاستقرار بسبب وضع أموره بين أيدى غير المتخصصين، ولكن كل شئ يسير الآن سيرا طبيعيا، وأنا اجتهد فى أن أفرغ من مهمتى خلال الأشهر الباقية لى من عام الانتداب.

وقد كانت فى نفسى فكرة كنت أتحين الفرص لإبرازها إلى حيز الوجود، ثم تحدث إلىّ الأستاذ "غومس"، فى أن نضع لوحة تذكارية فى المعهد باسم المرحوم أحمد زكى باشا، إذ كان فى الحق أول من لفت النظر إلى أهمية الدراسات الأسبانية، وقد اتفقنا على تنفيذ الفكرة ، ووجدت أن الفرصة سانحة لتنفيذ فكرتى فى نفس الوقت، وهى أن نطلق على قاعة المحاضرات فى المعهد اسمكم تقديراً للفضل، واعترافا بالجميل، وسيتم الأمران بإذن الله فى يوم واحد.

وتعلمون كذلك أن الأستاذ "غومس" قد ترجم كتاب "الأيام"، والترجمة الآن فى المطبعة، وقد كتب مقدمة لها غاية فى العمق والطلاوة، وقد رأيت أن أترجمها إلى العربية، وأنشر الترجمة فى المجلة فى عددها الذى نعده الآن. وسيعطينى أصول المقدمة بعد غد لأترجمها.

معذرة عما أضعت من وقتكم، وألف شكر على ما سبق من فضلكم علىّ وعلى هذا المعهد.

٢٠/١/٥٤ م

المخلص

حسين مؤنس

ويحاول حسين مؤنس تدعيم دور المعهد المصرى بمدريد فى مواجهة المنافسة التى يلقاها من معهد الثقافة العربية ، الذى أنشأه الأسبان، ويفاجئنا بالدور الذى يلعبه بعض ممثلى الدول العربية المتعاونين مع المعهد الأسبانى، مما يجعلنا نربط بين ما فعله بعض العرب فى الخمسينات وما فعله بعض العرب فى التسعينات عندما دعموا شركة والت ديزنى فى مواجهة الموقف الذى أراد العرب اتخاذه ضدها حينما سمحت بالترويج لفكرة أن القدس إسرائيلية فى معرضها ١٩٩٩ بأمريكا، وبعد أن كانت الشركة على وشك اتخاذ موقف تتراجع فيه، اتصلت بها بعض الدول العربية لطمأنتها من عدم اشتراكها فى المقاطعة التى اعتزم العرب اتخاذها إذا ما استمر الجناح الإسرائيلى فى المعرض يروج لفكرته التى تتعارض مع الحقوق العربية ، فما أشبه اليوم بالأمس.

يقول د. حسين مؤنس فى رسالته ونصها:

وزارة المعارف المصرية

المعهد المصرى للدراسات الإسلامية

مدريد – أسبانيا

سيدى وأستاذى

تحية واحتراما

أتشرف بأن أقدم إليكم المجلد الثانى من صحيفة المعهد، وهو يضم العددين الأول والثانى لهذا العام، وقد جعلناهما فى مجلد واحد، نظرا لتأخر الكثيرين فى تقديم أبحاثهم فى الموعد الذى كان محددا لصدور العدد الأول. وترون من تصفح المجلد أننى حرصت على أن أضع به أساساً لما سيصدر من أعداد هذه الصحيفة فى الأعوام المقبلة، وقد استعنت فى ذلك بخير ما وجدت من نظم ترتيب المجلات العلمية ، وأضفت بابا لنقد الكتب قمت بكتابة معظمه بنفسى، وبابا للأنباء قمت بتحريره أيضا، وجعلته معرضا لنشاط المعهد والنشاط المصرى الثقافى العام فى أسبانيا.

والمجلد يضم أحد عشر بحثا لباحثين مصريين فى القسم العربى، وخمسة أبحاث فى القسم الأفرنجى، منها اثنان بأقلام مصرية . وجعلت فى نهاية القسم العربى بابا لخصت فيه الأبحاث المنشورة فى القسم الأفرنجى، وكذلك قمت بتلخيص المقالات العربية فى نهاية القسم الأوروبى.

وقد نشرت في العدد الترجمة العربية لمقدمة الترجمة الأسبانية لدرة الأدب العربي الحديث، وهي كتاب "الأيام" ، وقد راجع الترجمة "غرسية غومس" وأقرها.

وبعد، فهذه يا سيدي ثمرة متواضعة من ثمرات غراسكم ، فإن هذا المعهد مدين لكم بوجوده، ومع أنني أنتظر بين لحظة وأخرى أن يصلني الأمر بالرحيل، فإنني أرجو أن تضيفوا إلى أفضالكم على هذا المعهد فضلا جديداً ، فتبعثوا إليه بمقال يكون فاتحة العدد الأول من المجلد الثالث بإذن الله.

وقد كتبت إلى الوزارة أكثر من مرة أرجو أن تتخذ قرارا بشأن انتدابي هنا، وعلمت أن الوزارة تفضلت فطلبت إلى كلية الآداب تجديد الانتداب، فاعتذرت، فرجوت انتداب زميلي وتلميذكم الدكتور عبد العزيز الأهواني، ولازلت أنتظر ما يستقر عليه الأمر.

والواقع أنني في حرج شديد ، لأن صالحي الشخصي يستدعي عودتي إلى الجامعة بسبب ما أحمله الآن هناك من مسئولية كبيرة، وأنا أخشى في نفس الوقت أن يوكل هذا المعهد بعدي إلى غير مختص فيضطرب أمره من جديد ويعجز عن أداء رسالته، ونحن اليوم في منافسة شديدة لا يخفى على سيادتكم أمرها، فإن الأستاذ "بروفنسال" مع صداقته لنا يضاعف الجهد في الأندلسيات ليصغر شأن المعهد المصري بالنسبة إلى معهده هو في باريس، بل هو يجتهد في التدخل في شئوننا ويرجو أن يفرض علينا وصاية تؤذينا ، وقد اجتهدت هذا العام في دفع هذه التيارات كلها، وأنا أسرُّ إليكم بذلك، لأنه سيكون في القاهرة عن قريب ، وسوف يحوم حول هذه الأماني في أحاديثه معكم ومع المسئولين.

ومن ناحية أخرى أنشأ الأسبان معهدا جديدا سموه "معهد الثقافة العربية الأسبانية" رئيسه الأستاذ "غوسيه غومس" ، وهدفه البعيد إخمال أمر المعهد المصري بمزاحمته في ميدان عمله، ومن أسف أن بعض ممثلي الدول العربية هنا يعينونه على ذلك ويعملون على استدعاء أساتذة من بلادهم للمحاضرة في المعهد الأسباني من ناحية، ونشر أبحاثهم في المجلة التي سيصدرها من ناحية أخرى ، إلى أشياء أخرى يطول شرحها وليس مقامها هذه السطور. وهذا هو الذي يجعلني أميل إلى التضحية بل المخاطرة بمصالحي في سبيل حماية هذا المعهد، والمحافظة على رسالته. ولو أتى الأهواني لاطمأننت بعض الاطمئنان. لقد أطلت عليكم بهذا الحديث، ولكنني أعرف أنه يهمكم ، ولهذا أذنت لنفسي في الاستطراد.

مع أصدق التحيات وأخلص الشكر.

٥٤/١٠/١١ تلميذكم

حسين مؤنس

سعد زغلول

ينقذ مصطفى مشرفة من لطفى السيد!

كان د. على مصطفى مشرفة باشا، أول مصرى يحصل على الدكتوراه فى العلوم[١] "وفى سنة ١٩٢٦ طلب من جامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) أن تعينه أستاذا للرياضة، فأبى المدير وكان وقتئذ لطفى السيد باشا وبلغ الأمر "سعد زغلول" وكان رئيسا لمجلس النواب، فسأل لطفى باشا: لماذا يرفض تعيينه ؟ وكان الجواب: أن على مشرفة لم يبلغ الثلاثين.. قال سعد: إن صغر السن لا يجوز أن يحول دون الانتفاع بمواهب النابغين". لقد كان مشرفة كذلك أول من حصل على دكتوراه فى الفلسفة، وأول عميد لكلية العلوم، وله أكثر من ٢٥ بحثا علمياً فى علوم الرياضة الطبيعية، وله أكثر من ١٢ كتابا علميا فى مختلف نواحى النشاط العلمى، وقد دعته[٢] "جامعة برنستون" الأمريكية لإلقاء سلسلة من محاضراته القيمة فى الذرة (فى بلد الذرة) كأستاذ زائر فيها، وفى المرة الثالثة ١٩٤٧ فى هذه الجامعة تقابل مع إلبرت أينشتين أحد عباقرة العلم وأكبر علماء الطبيعة منذ نيوتن، صاحب النظرية النسبية التى أدت إلى صنع القنبلة الذرية.

وقد لفت مشرفة نظر ألبرت أينشتين بعمله وعبقريته الممتازة وقال عنه بالحرف الواحد: إن هذا العالم المصرى الفذ صاحب عبقرية ممتازة. لقد ألقى مشرفة عددا من المحاضرات القيمة فى الذرة حضر إحداها إلبرت أينشتين وصفق له". ولم يكن مشرفة عالما فقط بل [٣] "كان فنانا أتقن العزف على البيانو والكمنجة وألف قطعا موسيقية، وترجم بعض الأوبرات إلى اللغة العربية واشترك فى إنشاء جمعية موسيقية لتمصير الموسيقى الأجنبية، وكان يترجم الأغانى الإنجليزية إلى اللغة العربية.. شعرا".

بل إن مشرفة كتب رواية لم يستكلمها هى "قنطرة الذى كفر"، عن ثورة ١٩، التى حولت بطل الرواية الشهير، بقنطرة، [٤]"من متملق وضيع لا يعف حتى عن القوادة إلى بطل فدائى يقدم

---

(١) المصور ١٩٥٠/١١/٢٧.

(٢) أكتوبر ١٩٩٥/٧/١٦.

(٣) المصور السابق.

(٤) الجمهورية د. شكرى عياد. ١٩٩٦/٩/١٥.

على الموت مطمئنا فى سبيل بلاده، ورغم أن الرواية مكتوبة باللغة العامية إلا أن الناقد الأدبى د. شكرى عياد يؤكد[٥] "أن رواية الدكتور مشرفة تظل درسا عظيماً فى الفن الروائى لأنها تستعمل هذه الوسائل كما ينبغى".

لقد كان [*]مشرفة نابغة وعبقريا متعدد المواهب، إنه يقول [٦]"فى أعماق كل عالم فنان .. هذا إذا صح أنى عالم" لقد كان أول عالم مصرى يشترك فى الموسوعة العالمية للشخصيات العلمية، طبعة نيويورك . وطبعة لندن.

[*]ونحن لا نكاد نتذكر أحداً من علمائنا على امتداد القرن العشرين - الذى يوشك على الأفول - سوى د. مصطفى مشرفة الذى نحتفل بمئويته والذى ارتبط اسمه كواحد من عشرة فى العالم يفهمون نظرية النسبية "لأينشتين" ناهيك عن بروز اسم د. أحمد زويل فى الفترة الأخيرة، غير أن وجود عالمين أو ثلاثة إذا أضفنا اسم د. فاروق الباز عالم الفضاء الذى رسم خريطة للقمر حتى قيل إنه يعرف سطح القمر كمعرفته لكف يده، عدد لا يكفى (وإن كان لطه حسين رأى آخر حول ندرة العلماء سنورده من خلال نص مجهول له عن د. مشرفة) على مدى قرن من الزمان لكى يقول شعب إنه دخل عصر العلم أو أن أبنائه قدشاركوا فى المسيرة العلمية العالمية . خاصة إذا علمنا أن هذه المساهمة تصب خارج بلادهم لا داخلها، ولعل ذلك يتعلق أساسا بدقة التخصصات العلمية التى قد لا تتوافر فى بلادهم النامية ومن ثم تصبح الاستفادة بهم غير ممكنة، وإن كانت د. فينيس كامل وزيرة البحث العلمى السابقة قد علقت هذه المسألة على قلة الإمكانيات حين ذكرت فى حوار مشهور لها بمجلة "المصور" الغراء أثناء وجودها بمنصبها أن ثمانين بالمائة من ميزانية البحث العلمى تذهب كمرتبات ولا يتبقى للبحث العلمى ذاته سوى عشرين بالمائة ، مما يجعلنا نتساءل: لماذا؟ ونعتقد أن الإجابة ضرورية جدا لإعادة النظرة فى هذه النسبة أو هذه القسمة التى يجب أن تصب لصالح البحث العلمى لأنه لم يعد هناك مجال فى العالم سوى للأقوياء. والقوة هنا هى القوة العلمية فى المقام الأول لأنه على أساسها تبنى أى قوة كانت سواء سياسية أو اقتصادية أو عسكرية ، حيث لم تعد القوة بمقدار ما تمتلك من وسائلها كمستهلك لها ولكن بمقدار ما نمتلك من مواردها كصانع لها. ومن هنا لم يكن مستغربا أن يموت يحيى حقى - أديبنا الكبير - وهو يقول"أعطونى ولو ربع مخترع".

---

(٥) السابق.

(*) مواليد ١١ يوليو ١٨٩٨ بدمياط.

(٦) الهلال سبتمبر ١٩٦٢.

(*) مقال للمؤلف نشر بأهرام ١٠/٧/١٩٩٨. بمناسبة مئوية مشرفة.

وإذا كانت بداية دخولنا عصر العلم قد بدأت مع د. على مصطفى مشرفة فإن الاحتفاء بمئويته تصبح حقا ليس واجبا فقط بل ضروريا ولازما لكى نغرس فى نفوس الأجيال الجديدة قيمة العلم والعلماء ليصبح رجل العلم قدوة يقتديها الشباب ويتمنوا التمثل بها كما يحدث بالنسبة لأهل الفن وأهل الرياضة.

وقد اخترنا أن نحتفل بمصطفى مشرفة من خلال وثيقتين : إحداهما خطاب لم يسبق نشره أرسله العالم الكبير إلى د. طه حسين الذى كان الجميع يتحلقون حوله ويراسلونه ويزورونه باعتباره رمزا لعصرهم أو كأنه أباهم، يستوى فى ذلك أهل الأدب وأهل العلم.

وقبل أن نقرأ خطاب مشرفة إلى طه حسين ينبغى أن نتعرف على علاقته بطه حسين. وهى علاقة يحدثنا عنها العميد نفسه فى الوثيقة الثانية وهى نص مجهول تحت عنوان "كلمة حضرة صاحب المعالى الدكتور طه حسين بك وزير المعارف العمومية فى تأبين المغفور له الدكتور مصطفى مشرفة باشا وذلك فى مساء يوم الأربعاء الموافق ٨ مارس ١٩٥٠" كان مشرفة بالنسبة لطه حسين كما يقول "الصديق الكريم والزميل العزيز والأخ الوفى، الذى لم يعرف إخاؤه ضعفا ولا وهنا على اختلاف الظروف".

أما مشرفة العالم فقد رأى فيه العميد "مثلا قائما للجد والدرس والتضحية فى سبيل العلم، مثابرا على المكروه فى سبيل العلم والطموح المتصل الذى لا يعرف الضعف ولا الوهن فى الوصول إلى المثل العليا، واتخاذ المادة وسيلة لا غاية".

وأما قيمة مشرفة لبلده فهو فيما بدأه "من تكوين لجيل من أجيال الشباب" العلماء بطبيعة الحال.

كما أن قيمته ظهرت فى أن "مصر كلها امتحنت فى علم من أعلامها بل ومن أعظم أعلامها ارتفاعا وبعد ذكر فى الآفاق".

ثم يؤكد طه حسين حقيقة ندرة هذا الصنف من العلماء حين يقول "فأمثال مشرفة من النابغين النابهين الذين يرفعون ذكر أوطانهم والذين يضيئون منار الإنسانية بالعلم والمعرفة - أمثاله قليلون، إذا خسرهم الوطن فلابد له من صبر طويل، وانتظار مستطيل قبل أن يظفر بمن يخلفهم . وإذا فقدهم فلابد له كذلك من الانتظار حتى يجد من يتم ما بدأوه".

أما رسالة د. على مصطفى مشرفة إلى د. طه حسين فعلى قصرها فسوف تكشف لنا عن الكثير.. تاريخ الرسالة "الاثنين ١٨ يوليو ١٩٣٨ ويقول نصها:

سيدى العزيز الدكتور طه بك

أشكرك على مساعدتك القيمة وعلى لطفك الذى لن أنساه.

لم أسمع بعد بنتيجة مسعاى بعد، وقد كتبت اليوم أسأل. على العموم إذا حصلت على الوظيفة فسوف أكتب لك بذلك.

هذا وأنا أتمنى لك أجازة سعيدة وأرجو أن تتقبل تحياتى واحترامى.

المخلص مصطفى مشرفة

أما محتوى الرسالة فيدل على شيئين هما من أخص صفات طه حسين: مساعدته للنابغين ومساعدته للمحتاجين.

وكلا الأمرين شئ واحد تلخصه كلمة "العطاء" فهو فى الجامعة يلتقط النبهاء النابغين. ويأخذ بيدهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، حتى يبرز نبوغهم، وفى خارج الجامعة يقدمهم إلى الناس ويشجعهم بكلماته ويدشن وجودهم، فمن يحتاج إلى بعثة يسهلها له. ومن يحتاج إلى تقديم يقدمه. ومن يحتاج إلى وظيفة يساعده إليها وييسرها له عند أولى الأمر.

وفى حالة د. مصطفى مشرفة فما هو ياترى نوع المساعدة "القيمة" التى قدمها طه حسين لمشرفة. ليس لدينا ما يؤكد نوعية هذه المساعدة ولكن نرجح أنها إما كتاب نادر، أو مجموعة كتب علمية نادرة يبحث عنها مشرفة ، فنجح طه فى العثور عليها له، وإما تعريفه بمجموعة من العلماء الأجانب أفاد منهم مشرفة.

أما الوظيفة التى يتحدث عنها مشرفة فكما هو واضح من الرسالة أن طه حسين قد توسط لأحد ممن يتوسط لهم فى الحصول على وظيفة فى اتجاه قدرة مشرفة على توفيرها. وبين أيدينا رسالتان من الشيخ المراغى، والشيخ الباقورى يجيبان فيها طه حسين إلى وظيفة أرادها لاثنين من تلامذته قد تتوافر لهما مناسبة أخرى فى غير هذا المقام.

وتدل الرسالة الوحيدة النادرة التى أرسلها مشرفة لطه حسين على أن طريق الرسائل لم يكن هو وسيلة التلاقى بين رجل العلم ورجل الأدب. بل كانت الزيارات المتكررة هى الوسيلة الأوفر حظا ونصيبا فى الحوار بين طه حسين ومصطفى مشرفة كما يدل حديث العميد عن آخر عهده بمشرفة قبل رحيله فى النص المجهول المشار إليه سابقا حين يقول مخاطبا مشرفة:

"وإنى لأذكر ذلك الحديث الذى تحدثت به إلىَ فى التليفون ذات مساء حين أخذ النهار ينقضى مجرراً أذياله الشاحبة. وحين أخذ الليل يقبل مرسلا ظلماته القاتمة – دعوتنى فأسرعت

إلى التليفون وتحدثت إليّ .. فكان صوتك بعيدا وكان صوتك ضعيفا . وكان أشبه الأصوات بصوت المتحدث حين يتحرك القطار، يتحدث من النافذة فيسمع إليه الواقفون، وإن حديثه ليتناثر شيئا فشيئا.

كنت ترسل إليّ تحياتك من بعيد، وكنت تنبئنى بأنك مريض، وبأن المرض هو الذى أخر زيارتك لى، وبأنك ترجو أن تخرج غدا أو بعد غد، ثم تزورنى، فما أكثر ما بينك وبينى من حديث.

وكنت ألح عليك فى ألا تتعجل الخروج، فإن خروج المرضى قبل أن يتم لهم البرء خطر بغيض، ثم أُصبح فأسمع نعيك يأتى من بعيد، فيصعقنى ، كما جاءتى أمس تحياتك من بعيد فملأت قلبى حبا وحنانا وذكرى، ثم نسعى فنشيع جنازتك ذاهلين، لتسعى أقدامنا وتتحرك أجسامنا ولا تصدق عقولنا، ثم تمضى الساعات وتمضى الأيام ونفتقدك فلا نراك".

ولكن طه حسين يفرق بين حياتين:

"فإن الأحياء حين يفارقون هذه الدنيا لا يقبرون فى قبورهم وحدها إلا أن يكونوا من الأحياء الذين ليس بين حياتهم وموتهم فرق، فأما الأحياء الذين تنفع حياتهم والذين تعمر حياتهم بالجد والطموح فى المثل الأعلى ، فهؤلاء لا يقبر فى قبورهم إلا أضعف أشخاصهم وهو الجسم، أما قبورهم الخالدة المتجددة الحياة التى توعز وتثير العبرة وتشجع على الحياة وتشجع على احتمال المكاره - قبورهم هذه الخالدة - فهى فى قلوب الذين عرفوهم واتصلوا بهم. وما أشك فى أن لمشرفة فى قلوبنا جميعا مكانا ممتازا من هذه الأمكنة".

محمد عوض محمد ..كن طه حسين!

تعتبر[1] مؤلفاته الجغرافية بمنزلة اللبنات الأولى فى المكتبة العربية الراهنة، بل إنه اشتهر وهو فى مدرسة المعلمين العليا بقصيدة وطنية استلهمها من ثورة ١٩، وحين نشرت فى "الرسالة" علق عليها طه حسين بقوله "إن شعر هذا الجغرافى لا تنقصه الروعة".

وكان مترجما متمكنا أجاد قواعد اللغات الإنجليزية والفرنسية والفارسية والتركية والألمانية التى ترجم منها مباشرة "لفاوست" شعراً كالأصل قال عنه طه حسين أيضا فى مقدمته "لقد بهرتنى الترجمة العربية فما ينقضى إعجابى بها وما أجد إلى تحقيق الثناء عليها سبيلا" وكان د. محمد عوض محمد (مواليد ٣ مارس بالمنصورة ١٨٩٥) عالما باللغة العربية أيضا - كما يقول عنه د. محمد سليمان عضو المجمع اللغوى "وعوض عالم لغوى خبير بالنحو والصرف، متمكن من قواعد اللغة"، وقد انتدب لتدريس الأدب فى معهد الدراسات العربية العالمية.

رشحته مكانته للمشاركة فى وضع ميثاق الأمم المتحدة، وإعلان حقوق الإنسان ، بل عهد إليه بوضع الوثيقة الخاصة بالرق، وتواصل عمله بهذه المنظمة الدولية بانتخابه عضوا بالمجلس التنفيذى لمنظمة اليونسكو، ثم باختياره عضوا بلجنة حقوق الإنسان التابعة لها ، ويجسد اهتمامه العلمى بإفريقيا وشعوبها، بتأسيس معهد الدراسات الأفريقية، بالقاهرة ، ويعين وزيراً للمعارف ١٩٥٤ لفترة قصيرة يعود بعدها للجامعة ، ثم ليقضى سنواته التالية عاكفا على مؤلفاته ومترجماته استكمالا لمشروعه المزدوج فى الجغرافية والأدب، ومن كتبه المهمة فى هذين المجالين : فن المقالة ، فن الترجمة، حديث الشرق والغرب، ملكات الجمال، سكان هذا الكوكب، التوجيه الأدبى (بالاشتراك مع طه حسين) ، الاستعمار والمذاهب الاستعمارية ، نهر النيل.

وقد قال عنه د. مهدى علام أنه "أول من كتب الجغرافية بلغة أدبية".

وفضلا عن هذه الثقافة الموسوعية التى يتمتع بها محمد عوض محمد، فقد كانت له مواقف وطنية وشخصية تعبر بصدق عن مقولة أن : الرجل هو الموقف، فقد اعتقل[2] وهو فى السنة النهائية بمدرسة المعلمين العليا، حيث شارك فى قيادة الطلبة فى مظاهرات ضد الإنجليز قبل ثورة ١٩ بثلاث سنوات، ونفى إلى جزيرة مالطة قبل نفى سعد إليها، ثم عاد ليحصل على دبلوم

---

(١) د. عمر الفاروق - مجلة العربى أغسطس ٩٦، وأهرام ١٩٩٥/٣/٣.

(٢) إبراهيم الأسيوطى هلال إبريل ١٩٧٤.

المعلمين العليا من منازلهم ، ثـم ذهـب فـى بعثـة دراسـية إلى إنجلـترا ليتخصـص فـى الجغرافيـا التـى اختارها بدلا من التاريخ، حيث كانت البعثة المطلوبة لهذين التخصصين فقط، وقد رأى أن تخصصه فى التاريخ فى هذه البعثة سيجعله يدرس تاريخ إنجلترا أكثر من أى تاريخ آخر. كما تقضى المناهج بذلك، فآثر أن يدرس الجغرافيا ، فحصل على البكالوريوس من جامعة "ليفر بول"، ثم حصـل فـى عام واحد (١٩٢٦) على الماجستير ، ودكتوراه الفلسفة من جامعة لندن.

وحينما كان محمـد عـوض محمـد فـى مؤتمـر اليونسـكو لتمثيـل مصـر فـى المجلـس التنفيـذى لليونسكو ، حدث العدوان الثلاثى. فوقف يهاجم هذا العدوان، واستطاع أن يجذب ممثلـى الـدولى الأخرى للتصفيق له ويجعلهم يخطبون منددين بالعدوان ، ولأول مرة فـى تـاريخ اليونسـكو يفشـل ممثلو فرنسا وإنجلترا فى الانتخابات.

وقد اشترك د. محمد عوض محمد مع الدكتور طه حسين فى الجهاد العلمى الأخلاقى بالجامعة وترسيخ تقاليدها، واشترك مع طه حسين فى رفض منح الدكتوراه الفخرية لبعض السياسيين ، مـن كلية الآداب، كما كانت تريد حكومة صدقى، وذلك حفاظا علـى كرامـة الجامعـة وقدسـيتها مـن استخدامها فى السياسة والمجـاملات، وكـان العقـاب لطـه حسـين عميـد كليـة الآداب بإحالتـه إلى التقاعد. والعقاب لمحمد عوض محمد الأستاذ بكلية الآداب، بنقله إلى مدرسة التجارة[١] "فآثر محمد عوض محمد الاستقالة ، ولكن طه حسين رفـض وقـال لـه: لا تقـدم اسـتقالتك يـا عـوض فسـوف نقتسم مرتبك لنعيش منه نحن الاثنان.

وفعلا لم يقدم الدكتور محمد عوض محمد استقالته وظل فى وظيفته يقتسم كل شهر مرتبه مع الدكتور طه حسين".

كن طه حسين [٢]

وأول خطاب من خطابات الدكتور طه حسين كان خطابا أرسله لصديقه من روما وهو يمثـل مصر فى مؤتمر المستشرقين بروما فى ٣١ أغسطس عام ١٩٣٥. والخطاب يعد وصفا فكاهيا لحال أهل بيت طه حسين وهـم يتهيـأون للسـفر، ويطلـب منـه فيـه أن يمثلـه فـى حفـل تكريـم الأسـتاذ "ليتمان" فكتب يقول :

(١) نعم الباز بآخر ساعة ١٣/٦/١٩٧٩.

(٢) المصدر السابق.

أخى العزيز

أدركنى كتابك الطريف صباح اليوم قبل أن ترتحل عن "سالنش" ولست أكتب هذا ردا على ما فى كتابك من فن، فإن ذلك يحتاج إلى هدوء لا سبيل إليه فى يوم تحزم الأمتعة وتتهيأ الأسرة فيه لسفر مهما يكن قصيرا فليس بينه وبين السفر الطويل فرق فيما يمس جمع المتفرق، وتفريق المجتمع، وحمل الأثقال وما يتصل بذلك من الأمر والنهى ومن الزجر والوعيد .

إنما أكتب إليك لأرجو منك مع الشكر الكثير أن تقوم عنى بالرد السريع على الذين يريدون تكريم الأستاذ "ليتمان" ، فأنا حريص جدا على أن أشترك فى هذا التكريم، ولست أدرى كيف أكتب إلى هؤلاء الناس ولا كيف أرسل لهم ، فاكتب إليهم بالنيابة عنى، وتقبل فى سبيل ذلك شكرا كثيراً ، ولكن أحب أن تكتب باسمى أنا لا باسمك أنت، أى تفرض أنك طه حسين. وكم أحب أن يكون هذا الفرض صحيحا ، إذن لاحتملت أثقالا لا أدرى كيف تحتملها ولا كيف تستقبلها، ولكن هذا يصلح موضوعا لقصة طريفة ما أظن أن أحدا يحسن كتابتها غير "أوسكار وايلد" ومهما يكن من شئ فكن طه حسين ساعة من نهار، واكتب إلى هؤلاء الناس فقل لهم: إن كتابهم لم يصل إلىّ إلا بعد أن طوف فى أقطار الشرق والغرب، وإنى أشاركهم بكل قلبى فى تكريم الأستاذ العظيم ، ثم ضع عنوانى فى مؤتمر المستشرقين بروما حتى لا تكتبوا إلىّ فى برلين حيث أنت .

أما بعد فإنى استغفر الله فإنا جميعا آسفون لأنك لاتستطيع أن تلقانا فى أنس.

ولست أدرى لماذا أستقبل مؤتمر المستشرقين كارها له معرضا عنه فى هذه المرة ، ويكفى أنى أهيئ له شيئا، ولعلى لا أهيئ له شيئا، فقد مضى الوقت أو كاد.

وما رأيك فى هذه الحرب المقبلة أتحبها أم تبغضها ؟ أتنتظر منها لمصر خيراً أم شراً؟ أتظن أنها ستضعف الإمبراطورية البريطانية؟ أما أنا فأذكر مقالك الخطير، وألاحظ كل يوم أن جماعة من كبار الساسة الإنجليز يكتبون فى الصحف الإنجليزية مقالات تذكر بهذا المقال التاريخى العظيم الذى يدل على أن نبوءتك لم تكن أدبية ولا فلسفية، وإنما كانت نبوءة عالم يتقن الجغرافية بعض الاتقان، على أنى أكره الحرب وأشفق منها وأتمناها مع ذلك بقوة لأنى أنتظر منها ضعف أوربا. وتقدم الشرق نحو الحرية، فهل ترانى مخطئا؟

وبعد فقد أطلت، ويبقى أن يسافر هذا الكتاب الآن، فتقبل منا جميعا تحية فيها أسف كثير وحب لا حد له ، وسأكتب إليك متى استقر بنا المقام فى آلسن.

طه حسين

وبين أيدينا رسالة للدكتور محمد عوض محمد أرسل بها في ألمانيا سنة ١٩٣٩ والحرب على الأبواب، ومن هناك يصف أجواء الحرب التي تنبأ بها، وهي شهادة هامة جدا من قلب الأحداث المتسارعة. يقول:

في ٢٦ أغسطس

أخي العزيز

تحية صادقة ، وسلاما عظيما

لست أدرى أيهما أكثر تجهما، وتلبدا بالغمام، أجو هذا البلد الأمين، المنعزل عن العالم، أم جد السياسة الحمقاء: الذى يزداد كل يوم تجهما واكفهراراً. ولست أنكر عليك أننى حينما كنت بألمانيا – ولم أبرحها سوى أمس – كان الاستعداد للحرب على قدم وساق. فقد عطلت جميع الأعمال تقريبا والصناعات، مكتفية بربع أو بثلث عمالها، بينما الآخرون يعملون فيما له صلة بالحرب من قريب وبعيد؟ ولقد رأيت أسوار المنازل الحديدية تنتزع ، ويقام مكانها أسوار من الزرع . لأن ألمانيا تريد ألا تترك قطعة من الحديد يمكن الانتفاع بها.

وكان الناس يعطون ربع كيلو – استغفر الله بل مائة وثمانين جراما – من الزبدة كل أسبوع، إذ لابد من التوفير للأيام العصيبة . ولقد رأيت بعينى الشبان حتى طلبة الحربية والبرية يؤتى بهم من أقاصى البلاد للإسراع في جمع المحصول، ولا تزال فى ألمانيا جهات تحتاج إلى بضعة أيام أخرى لكى يتم فيها هذا العمل.

فأمامنا بضعة أيام للتفكير ، قبل أن تقوم الحرب التى لم يعد من قيامها بد.

وقد تركت ألمانيا منذ ثلاثة أيام حينما رأيت الأزمة قد تناولت البنزين الذى تتغذى به أوليفيا. فقد مرت ثلاثة أيام لم ير الناس فيها البنزين إلا شيئا يسيراً ، ثم انفرجت الأزمة يوما أو يومين، وكنت حينئذ على سواحل البحر البلطى، وبينى وبين سويسره ألف كيلو متر ، فقطعتها فى ثلاثة أيام.

وقد ألقيت عصى النسيان هنا، فى بلدة صغيرة، أردت أن استريح فيها أياما قلائل، ولأفكر فيما يجب علينا عمله. وكذلك لأستشفى من السعال الذى لا تزال فى الحلق منه بقية ، وما ينبغى أن نواجه الأيام العصيبة بالسعال والزكام.

هنالك ناحية في الاتفاق الروسى الألمانى، لست أدرى هـل خطرت لـك ولم أرهـا فـى الصحف القليلة التى قرأتها.

ذلك أن الاتفاق قد تم بعد أن أخذت المحادثات الحربية تجرى مجراها. ولابد من الفـرض بأن المفاوضات الألمانية الروسية كانت جارية فى الوقت نفسه؟ أليس من الممكـن أن الـروس قد أرادوا أن يعلموا شيئا عن خطط الحلفاء الحربية ، لكـى تنتفـع روسـيا وحليفتهـا الجديـدة بهذا العلم؟

وهذا يدخلنا فى افتراض جديد ، وهو أن الصداقة الجديدة بين الروسيا وألمانيا ، سـتبنى على خطة مشتركة جديدة، والصحف الألمانية تتحدث جهاراً فى اقتسام بولونيا مرة أخرى.

فإن حدث هذا ، فليس من الضرورى أن تعتـدى ألمانيـا علـى وازاج أو علـى بولونيـا . ويكون الاعتداء من روسيا نفسها! فلا يستطيع الحلفاء أن يفعلوا شيئا.

وهكذا يجنى العالم ثمرة شرمطة الإنجليز! بقى التحدث فيما نحن فى أمـره : لسـت أدرى هل أنت بعد فى كنتال أم فى باريس، وهأنذا أرسل هذا إلى كنتال لعلك تجده قبل أن تسـافر إلى باريس.

من رأيي إذا دام هذا الاكفهرار فى الجو السياسى ألا نظل جامدين، بل نعـود إلى مصـر فوراً.

اما أنت والأسرة الكريمة فمن الصواب أن تفكـروا جديـا فـى إمكـان تعجيـل العـودة، وكذلك يجب التفكير - إذا تلبد الجو تلبدا شـديدا - فـى تعديـل برنـامجكم الخـاص بالأسـتاذ كلود. ورأيي أنا ألقيه بكل تحفظ واحترام: أن يبقى هو وتعود الست معكم.

يؤلمنى أن تكونوا فى باريس فـى هـذا الوقـت العصيـب، فـلا أقـل مـن تطمينـى بكلمـة ترسلها إلىّ بعنوانى (....) بزوريخ.

وأنا شخصيا سأذهب إلى زوريخ يوم الاثنين للسعى فى تعجيل موعد السفر.

وتقبل تحياتى الصادقة وسلامى للأسرة جميعا وللصديق العزيز فريد.

عـــوض

لم أقل كلمة عن حكومتنا الجديدة ، ومن رأيي الضعيف أنهـا أحسـن مـن القديمـة ألـف مرة بالإغاظة فى فريد.

لا كباب ولا عوض

وسندرك كثيرا قيمة د. محمد عوض محمد عند طه حسين حين نقرأ له هذه السطور من رسالة بعثها إلى صديقه الغائب فى فترة إقامته بالسودان، حيث يخبره بحدث ثقافى هام هو ميلاد مجلة "الثقافة" ولكنه يعتبره ميلادا ناقصا فاترا لأن "عوض" لم يشارك فيه، [1]يقول طه حسين: وقد حدث حادث خطير ولكن غيبتك جعلته فاتراً ، فقد ظهرت مجلة الثقافة ، ولو كنت حاضراً لكان ظهورها حرياً أن يعجب ويطرب وأن يغيظ ويحنق، ولكنها من غيرك أشبه شئ بطعام الفرنسيين أو بطعام الإنجليز الذى يخلو من الفلفل وما يشبهه، وقد كدت أشبه الثقافة بالكاروت أو بحساء البوردج فأقوم. فلعلك تستطيع أن تشيع فيها شيئا من القوة والحدة وترد عنها بعض الفتور.

ومن الأحداث الخطيرة عندنا: أن أزمة الخدم مازالت حادة فقد ذهب الطباخ بعد أن ذهب السفرجى، ونحن نستقبل فى كل يوم طارئا يرمينا من الطعام أشكالا وألوانا ، ولو قد شهدت مائدتنا لضحكت وأضحكت ، ولكنك بعيد عنها، فهى مظلمة قاتمة يسودها الغيظ والخصام" "ما أشك فى أنى لست الوحيد الذى يطالبك بهذه العودة ، وما أرى إلا أن أصدقاءك جميعا يكتبون إليك كما أكتب الآن".

"وعلى كل حال فأنا أكتب إليك فى الساعة التى تعودت أن تأتى فيها قبيل عودتهم من السينما (يقصد أسرة طه حسين) وبُعيد الفراغ من ترجمة مقالة الراديو.

وقد سئمت كل شئ حتى العشاء الذى لا سمك فيه ولا كباب ولا عوض"!

* * *

ولمحمد عوض محمد مقال جميل مجهول يحلل فيه شخصية صديقه طه حسين رأيت أن أقدمه كاملا لأنه يقدم شهادة من رأى وسمع، وهى شهادة على عصر بقدر ما هى شهادة على شخص.

---

(١) المصدر السابق.

جن.. طه حسين (*)

هذه الأعوام الطوال، التى تقف بيننا وبين الماضى، كأنها الحجب الكثيفة والأستار المسدلة، وكل عام يزيد فيها حجاباً جديداً وستراً قائماً. أريد اليوم أن اخترقها بضوء الذكرى ، وأعود بنفسى وبالقارئ ، إلى يوم قد مر عليه نيف وعشرون عاما، وأنا إذ ذاك تلميذ أختلف إلى دور العلم إذا أقبل النهار، وأغشى المحافل والمجامع إذا أقبل المساء.

لم أكن أسمع بحفل حافل إلا هرعت إليه، ولا بخطيب ذى خطر إلا احتلت فى الوصول إليه، وما دام الحفل شائقاً والخطيب ذا شأن، فهيهات أن يحول بينى وبينه حاجب سمج أو جندى شديد المراس، وفى إحدى هذه الحفلات ألفيت نفسى فى دار الجامعة المصرية القديمة وسط جموع من الناس قد احتشدت ، وعلى المنبر وزير مصر ثروت باشا ومن حوله جماعة من خيرة رجال مصر، وقد جلسنا صامتين معجبين ، نصغى إلى الخطيب إثر الخطيب، وكل يتحدث إلينا عن فتى من أبناء الجامعة المصرية ، قد منحته الدكتوراه ، فكان أول أبنائها المبرزين.

ثم استطالت الأعناق ، وتحولت الانظار صوب المنبر، وساد الصمت العميق، لأن هذا الفتى، الذى كنت سمعت به ، ولم أكن رأيته من قبل ، قد وقف ليشكر الذين احتفلوا به وكرموه هذا التكريم. فإذا فتى ذو وجه طلق، تكسوه لحية سوداء ذات طول وعرض، وعلى رأسه عمامة أزهرية ، أو ما يشبه العمامة الأزهرية ، وعلى جسده جبة وقفطان أو ما يشبه الجبة والقفطان.. أخذ يتكلم فإذا صوت يجمع بين الشدة والعذوبة ، ولسان عربى قوى ، من ورائه جنان ثابت، وبديهة حاضرة لا تغيب ، هذا الصوت الذى استرعى انتباهى فى ذلك اليوم، قد ألفته فيما بعد فلم أعد أتنبه إليه، ولكن كثيراً من أصدقائى أسروا إلىّ أن هذا الصوت ركن لا يستهان به من أركان هذه الشخصية التى كلفت أن أصفها هنا اليوم.

لقد أخذ الفتى طه يتحدث إلى الناس فى ذلك اليوم ، فلم يحاول أن يستتر وراء غشاء من التواضع الكاذب، بل أخذ يشكر الذين كرموه واحتفلوا به. لا لأنه يستحق التكريم بل لأن فى هذا تكريماً للعلم ، ورفعاً لشأن العلم. وأذكر أنى انطلقت إلى دارى مساء ذلك اليوم، وأنا معجب بما وفق إليه ذلك الطالب فى موقف ليس الكلام فيه بالشئ الهين اليسير.

لم أكن أدرى فى ذلك اليوم – وأنى لآدمى جاهل أن يدرى؟ – أن سيدور الزمان دورته،

(*) هذا مقال مجهول لمحمد عوض محمد بمناسبة احتفال جامعة ليون بفرنسا بتكريم طه حسين ومنحه الدكتوراه الفخرية ، وقد نشر المقال فى عدد الهلال ديسمبر ١٩٣٨، واحتفظ به طه بين أوراقه الخاصة.

وتجمع بينى وبين هذا الفتى المكرم ظروف الحياة، فإذا أنا جرم صغير وسط هذه المجموعة الكوكبية العظيمة ، التى امتلأ بها ذلك الفلك الخطير ، الذى تدعوه كلية الآداب.

إن الذين لا يعلمون عن كلية الآداب سوى أنها إحدى كليات الجامعة ، لم يكلفوا أنفسهم عناء فى تعرف الحياة العلمية والثقافية فى مصر. فإن فى جدران هذا المعهد صفاء وإخلاصاً وإنكاراً للذات يعز عليك أن تجد له نظيراً فى أى معهد آخر. وليس من شك أن هذا البناء الراسخ القواعد، القوى العمد، الذى ضم بين جدرانه أفضل ما فى مصر من جهود وتضحية . لم يكن ليبلغ ما بلغ من قوة ومتانة ، لولا ما بذله طه حسين من خدمة صادقة، وجهود متصلة.

إن ما فى طبع طه من دماثة ورقة ، ومن بعد عن الكبر والغرور، قد جعله قوة تجذب وتقرب، وتؤلف. فلم تكد تستقر قدمه فى معهده هذا حتى أخذ يضم إليه جماعة من خيرة أبناء مصر، وأنبلهم نفساً، وأكرمهم قلباً. وكان شأنه فى هذا كالباحث عن الكنوز، التى لا يعلم سواه مقرها، ولا كلمة السحر التى يجتذبهم بها. وهكذا استطاع هذا الساحر الخلاب أن يضم إليه ما بين عشية وضحاها، أعلاما هائلة مثل أحمد أمين ومصطفى عبد الرازق. فقل لى بحقك فى أى ركن من أركان هذا القطر السعيد كنت تجد نجوما ثلاثة، باهرة النور ساطعة الضياء، مثل طه حسين ومصطفى عبد الرازق وأحمد أمين . ثم لم يمض وقت حتى تلاهم من صفوة أبناء مصر مثل إبراهيم مصطفى وعبد الوهاب عزام وأمين الخولى.

وقد قصرت الكلام على هؤلاء لأنهم جميعاً قد اتفقوا فى صفة واحدة جليلة، لم يدركها ولم يقدرها إلا القليل، ذلك أنهم قد جمعوا إلى الثقافة الإسلامية الخالصة التى أحاطوا بها إحاطة نادرة، ثقافة عصرية غربية، قد تزودوا منها بأقدار متفاوتة، ولكنها أقدار صالحة على كل حال. وإنى - وأنا من الذين حرموا هذه النعمة - أقرر فى غير تردد أن هذه العصبة التى جمعت بين الثقافتين هى خير من يسهر على إرشاد مصر، وتوجيهها فى هذا الوقت العصيب، الذى تتنازعها فيه المؤثرات المتباينة المتنافرة.

أجل، وإن شخصية طه حسين قد كبرت ، وتعددت نواحيها حين ضرب بسهم عظيم فى كلا الثقافتين ، وبلغ فى كل منهما منزلة ليس من السهل على المتخصص المنقطع لإحداهما أن يبلغها ، فإنك قد تجلس إلى الرجل المثقف - وليكن حظه من الذكاء وافراً - وتتحدث إليه، فتراه يدور فى دائرة واحدة لا يستطيع أن يعدوها، فإذا كانت هنالك مواقف جدية، لم يستطع أن ينهض فيها إلا بمقدار محدود. أما طه الذى جمع إلى حدة الذكاء وحضور الذهن - ثقافة الشرقيين والغربيين، فقد أصبح نبوغه متعدد الأركان، مختلف الفنون، فهو الكاتب الذى أسلست له العربية قيادها. والخطيب الذى يجمع إلى البيان النادر، مقدرة مدهشة على اختيار الكلام الذى يلائم كل

موقف، وهو في النضال ذو الحجة القوية ، والموفق في إيجاد حل لكل مشكل. ويبحث الغربيون الذين يفدون إلى ديارنا، عن مصرى يستطلعون من حديثه نواحى النهضة المصرية الحديثة فلا يجدون مثل طه في قوة بيانه إذا تحدث إليهم بلسانهم الأعجمى، فأطلعهم على ثقافة الشرق، وعلى نهضة مصر، وما يجيش بصدرها من آمال، وما تعانيه من صروف. لم يكن - بعد ذلك - بد من أن يسير ذكر طه في الآفاق وأن يسمع به أهل الصين في الصين، وأن تحتفل به معاهد العلم في فرنسا أو غير فرنسا من الأقطار.

ستقول: ما أشبه الليلة بالبارحة، بالأمس البعيد وزير مصرى جليل مثل ثروت ، وجامعة مصرية ناشئة ، تقيم حفلة رائعة لتكريم طه حسين الطالب، وبالأمس القريب وزير فرنسى خطير مثل هريو، وجامعة فرنسية عريقة كجامعة ليون تحتفل بطه حسين الأستاذ.

أجل، ولكن حياة طه حسين لم تكن كلها حفلات تكريم وتقدير. فإن هذه السفينة العجيبة لم تلق بها يد الدهر، في بحر كله هدوء وصفاء، بل كثيراً ما عصفت بها العواصف الهوجاء، وتقاذفها الموج الثائر الأحمق. حتى أشفق عليها محبوها أن ترتطم بصخرقاس، أو يلقى بها في ساحل موحش مقفر.

وفي استطاعتك أن تعجب - ما وسعك العجب - في أن القائمين بالأمر في مصر بدلا من أن يغتبطوا بطه، قد أخذوا يضطهدون طه، ثم يمعنون في اضطهاده إلى درجة يصعب أن يتصورها عقل عاقل. وأكبر مظهر لهذا الاضطهاد ما حدث في ربيع سنة ١٩٣٢ حين أخرج من الجامعة إخراجا، ثم أخرج من خدمة الحكومة إطلاقا، ثم أمعنوا في اضطهاده حتى طلبوا إلى شركة مصر الجديدة أن تخرجه من داره التي يسكنها. فأذعنت الشركة لأمر أولى الأمر، وأبدلت طه من داره داراً أخرى لا تقل عنها رونقاً وجمالا، وإن زادت عليها في الأجر قليلا. ورأى الناس هذا الاضطهاد ، فأخذوا يقللون من التردد على داره. وأخذ بعضهم - حتى من كان يظنهم أصدقاءه - ينتحل ظروفا ويختلقها اختلاقا، لكي يتذرع بها إلى مخاصمته ومغاضبته. فلم يزل حتى قل زائروه وانقطعت تلك الجموع الحاشدة التي كانت تفد إلى داره كالسيل المتدفق.

وأذكر أني قلت لأحمد أمين في ذلك الوقت : إنى لأشتهى اليوم الذى أرى فيه طه وقد عادت إليه الدنيا، وأرى هل تستطيع تلك الوجوه الكالحة أن تتهافت عليه ذلك التهافت القديم، فضحك أحمد أمين ضحكته الفلسفية العظيمة، وقال: يا صديقى ، ما أعظم سذاجتك ، إنك ستراهم يومئذ وقد ازداد تهافتهم عليه وتزاحمهم على داره.

ولقد زرت طه بعد ذلك حين رضى عنه السلطان، وكان اليوم عيداً من الأعياد، فألفيت في داره أكداسا من الهدايا، ورسائل التهنئة. ورأيت صاحبى مكتئباً، فسألته ما خطبك، قال إنى

ذكرت مثل هذا اليوم من العام الماضى، وجعلت أقارن بين اليومين فأحزنتنى المقارنة. ولكن لعل هذا شأن الحياة.

على أن زمن المحنة هذا - الذى دام أعواماً ثلاثة - قد أظهر من أخلاق طه نواحى كانت خافية؟ وبرزت فيه شخصيته القوية فى مظهر لابد للمنصف - مهما كان شعوره نحو طه - من اكباره واجلاله . فلقد كان فى ذلك العهد القاسى عظيما، عظمة لم يبد فى مثلها من قبل ولا من بعد. فى ذلك الزمن الذى انقطع فيه عن طه مورد رزقه الوحيد، وأمعنت دولة ذلك العهد فى اضطهاده، وهجره كثير من أصحابه وأقرانه، لم يمتلئ صدر طه حقداً ولا موجدة على أحد. ولم يكتسب طبعه شيئاً من المرارة، وقد ظن الناس أن طه بعد أن ترك خدمة الحكومة وما تدره من رزق، سيعمد إلى حياة متواضعة، فيسكن فى منزل متواضع، ويكتفى من المعيشة بأخفها وأهونها على الجيب ، وأنه سيأخذ نفسه وأسرته بشئ من الحرمان والاقتصاد، ولكن شيئا من ذلك لم يكن، وظل طه هو طه، ذلك المكساب المتلاف، الذى لا يستقر الدينار فى كفه إلا ريثما يطير عنها. ولم تتغير معيشة طه فى شئ بل ظلت مائدته حافلة غنية، وداره فخمة واسعة، وموقده يبعث بالدفء والحرارة ، وسيارته تقطع الطرقات عدواً. وكأن المقادير شاءت أن تكون أشد عطفاً عليه فى هذه الحال، فكانت لا تدعه فى الضيق إلا ريثما تيسر له طريق السعة. وقد اشتدت الأزمة مرة ثم إذا هى تنفرج بتبوئه عرش الصحافة الوفدية، وبين الوفد والأحرار الدستوريين فى ذلك الوقت صداقة أو ما يشبه الصداقة. ولعل عطف الوفديين على طه فى عهد المحنة هذا، هو الذى أسس بينه وبينهم صداقة ومودة. وبهذا لم يعد طه تابعاً لحزب دون حزب، أو جماعة دون أخرى، والناس فى أمر طه ينقسمون إلى قسمين ، هما كالقطبين بعداً - ولا وسط بينهما - فقسم شديد الحب له والإعجاب به، وفريق يدل مظهره على البغض الشديد له والنقمة عليه. وبعضهم لم يتورع حتى عن ارتكاب الجرائم لإيذائه والإيقاع به. وإذا استثنينا قليلا من الذين أكل قلبهم الحسد لطه على نجاحه وتفوقه ، فإن أكثر الناقمين عليه يصعب أن نجد سبباً لبغضهم ونقمتهم. فهل هذا التناقض الغريب يرجع أمره إلى طه نفسه، أم إلى أخلاق الناس عامة وفى مصر خاصة؟ يغلب على الظن أن الأمر يرجع إلى كلا السببين. فنحن فى مصر - ويا للأسف - يغلب على خلقنا الإسراف، والبعد عن الاعتدال، فنحن نضحك فنسرف فى الضحك ، ونحزن فنسرف فى الحزن. ونحب فنغلو فى الحب، ونبغض فنسرف فى البغض. أليس من الجائز أن هذا هو شأن الناس فى طه، وأن بعدهم عن الاعتدال هو سبب تعصبهم الشديد لطه أو عليه؟ هذا هو الراجح عندى، ولكن من الجائز أيضاً أن شيئاً من هذا يرجع إلى طه نفسه. فإن خلق الشجاعة قد يشرف أحياناً على التهور، وقد عشق طه الصراحة المرة فى أول حياته، واندفع فى سبيلها اندفاعا شديداً لم يقف فيه عند حد، ولم يكن

يعرف، ولم يرد أن يتعلم كيف يدارى ولو قليلا، فإذا خطرت له فكـرة، وأراد أن يدافع عنهـا، أو رأى فى إنسان، أو فى مؤلف، أو فى موضوع، رأياً، لم يتردد فى الجهر بمـا يـراه دون أدنـى تفكير فى العواقب.

ذلك كان عهده فى أول حياته، وقد دفع ثمن هذا حتى وهو طالب بالأزهر، يوم حرم شـهادة العالمية. وقد استغلت الخصومة السياسية هذا الخلق فى طه، وجعل بعـض ذوى الأغـراض ينفخـون فى تلك الجمرة ويمعنون فى إشـعالها. وهـذا الخلـق الثـائر كـان لابـد أن يهـدأ علـى مـدى الزمـن، وتنكسر حدته، ولكن هذا التطور لم يتـم إلا بعـد أن أشـعلت نـيران، أبـت أن تخمـد حتـى بعـد أن أصبح طه بعيداً عن ميادين السياسة، وفى معزل تامعن تلك الخصومات.

من الأسف المؤلم أن السياسة التى أفسدت كل شئ فى مصر، لم تتورع عن أن تقتحـم الحـرم الجامعى، وتعبث يدها الأثيمة بنظم الجامعة واستقلالها، ولم تزل ويا للأسف تثير الضغـائن بـين الأخ وأخيه، فتقيم من الطلاب جماعات تقتتل وتشتجر. وطه يحـاول جهـده أن يقـى الجامعـة – أو علـى الأقل كليته – غوائل السياسة، فيفوز أحياناً ويخذل أحيانا، ولو أن طه فى بلد هادئ آمن، والجامعة تؤدى رسالتها فى أمن وطمأنينة، لجنت من جهوده وجهود أصحابه أضعاف ما تجنيه الآن. وبرغـم هذا كله، فقد استطاع بإخلاصه الشديد للجامعة، وحرصه على خدمتها بكل ما أوتى من قوة ، أن يكون له فيها اليوم مكانة منقطعة النظير، فهو موضع الحب والتقدير من زملائه. وحب الطلبة له – الذى يوشك أن يكون عبادة – ليس مجرد تحمس طائش ، بل مبعثه هذا الحنو الشديد الـذى يحسه نحوهم ، وما يبديه لهم من العطف الذى لا يعرف حداً، والذى يكاد أن يكون ضعفاً . فبالرغم مـن مواقف الحزم التى قد يقفها معهم فى كل ما له صلة بالدرس والتحصيل والسلوك، فإنه لا يستطيع أن يملك نفسه إذا سمع بقصة طالب فقير أو عاطل، أو فى حاجة إلى المعونـة . وقـد أصبحـت كليـة الآداب فى عهد طه وليس فيها من الطلبة من يدفع رسوم الدراسة سوى عدد قليـل لا يكـاد يبلـغ الثلث. ومهما رسب الطالب فى الامتحان، فإن طه لا يستطيع أن يفرض الرسوم على طالب فقير. ولن ترى فى العالم كله معهداً يرسب فيه الطالب عامين متتاليين ثم يتمتع بالمجانية.

وهكذا ترى طه مزيجاً من القـوة، التى تشـرف أحيانـا علـى العنـف، والحنـان المشـرف علـى الضعف، ولقد يسئ إليه المسئ ويمعن فى الإساءة ، ثم يقصده بعد ذلك فى حاجة، فإذا طـه يسـيل رقة وعذوبة، وإذا هو ينهض إلى قضاء حاجة المجرم نهوضاً عجيبـاً، كأنما يسـعى لتأديـة فـرض، أو لمقابلة الجميل بمثله.

وبعد فإنك ستسألنى وأسألك – ويسأل بعضنا بعضاً–: كيف استطاع طه، هذا الذى يتهافت عليه أصحاب الحاجات، والذى تراكمت عليه الواجبات، وكيف يتاح له الوقت لكى يعد الدرس،

ويؤلف المقالات، ويصنف الكتب؟.. إن الجواب عن هذا السؤال ينطوى على سر كبير من أسرار نجاح طه. فإن الذى قضى عليه بهذا العمل الكثير المرهق، فى الجامعة وغير الجامعة، قد رزقه قوة على العمل المتصل ليس من السهل أن تجد لها مثيلا. وليس بالشئ النادر أن تراه يبدأ أعماله إذا أقبل النهار، فلا ينقطع عنه العمل بعد ذلك إلى منتصف الليل، اللهم إلا لحظات قلائل يصيب فيها حظا يسيراً من الطعام والشراب.

ولكن بعد هذا كله لابد من الاعتراف بأن إنتاج طه العقلى، كبير جداً إذا قيس إلى وقت فراغه القليل، والسر فى هذا قد يكون راجعاً إلى توقد ذهنه، وسعة إطلاعه، وامتلاكه ناصية اللغة العربية، بحيث تراه فى تأليفه كمن يغرف من بحر لا كمن ينحت فى صخر. وإلى جانب هذا كله، وفوق هذا كله، تراه يستند فى عمله إلى حظ من الإلهام الغريزى، الذى يسوق إليه الآراء الجديدة سوقا، ويمكنه من أن يولد من الحبة الصغيرة دوحة باسقة، ممتدة الفروع والأغصان.

تقول العامة ان الحديث عن العفاريت إذا ابتدأ فهيهات أن ينتهى، وأصدقاء طه وخلصاؤه مجمعون على أن فى طه عنصراً جنياً لاشك فى وجوده، ولهذا فإن الحديث عنه لا يمكن أن ينتهى إلا إذا قطعناه بالقوة.

وبعد، فهذه صورة مقتضبة قاصرة ناقصة لهذا الإنسان العجيب، الذى مدحه الناس بإسراف، وشتموه بإسراف، وأحبوه بإسراف، وأبغضوه بإسراف، وقل أن تجد شخصاً كرم كما كرم طه، واضطهد كما اضطهد.

فلنتم إذن حديثنا عن طه الممدوح المشتوم، المحبوب المكروه، المكرم المضطهد. طه القوى إلى درجة العنف حين يريد أن يدفع شراً، أو يدافع عن رأى يراه. طه الضعيف الرقيق، إذا قصده المسئ ليعتذر، أو صاحب الحاجة يشكوها له. طه الجليس الممتع، والصديق الوفى، والابن البر، والأب المشفق. طه اللين الجانب الرقيق الحاشية، الخشن الملمس الصعب المراس. طه ذى الكف الناعمة الطرية. والمخالب الحادة القاطعة.

وبعد. فلقد كان برنارد شو غير محبوب كثيراً بين الإنكليز، بعد أن علا نجمه فى كل بلد إلا فى بلده. ثم لم يلبث الإنكليز أن رضوا هم أيضاً عن برنارد شو، فهل ينتهى الأمر بالمصريين أيضاً إلى أن يجمعوا على تقدير طه والاعتراف بفضله، دون أن يكون هنالك ذلك الشذوذ السخيف الذى نسمع به من آن لآن؟.. ذلك ما أعتقده فإن الساخطين على طه قد أخذ عددهم منذ زمن بعيد يقل شيئاً فشيئاً. ولابد أن تذهب ريحهم تماما بعد وقت غير طويل.

محمد عوض محمد

أزمات طه حسين فى الجامعة

واجه طه حسين الكثير من الأزمات، فى الجامعة أهمها وأخطرها ثلاث: أولها أثناء أزمة الشعر الجاهلى التى أثارت عليه عاصفة من الهجوم لأنه حسب من اتهموه يفسد طلابه بأفكاره الهدامة بتجرئه على الثوابت فى الدين والأدب، وكلنا يعلم أن هذه الأزمة قد انتهت لصالح طه حسين بحفظ التحقيق ضده، غير أننا سوف نكشف الآن فقط من خلال أوراق طه حسين التى ننشرها للمرة الأولى أن طه حسين كان قد قدم استقالته من الجامعة ولكنه بتدخل لطفى السيد تم إقناعه بالعدول عنها، أما الأزمة الثانية فمعروفة ومشهورة وهى التى اصطدم فيها مع إسماعيل صدقى وأحيل بعدها إلى التقاعد. ثم كانت الأزمة الثالثة خلال عمادة طه حسين حول كتابين يتم تدريسهما بكلية الآداب واعتبرهما الذين أثاروا الأزمة كتابين يمسان الدين، وقبل الأزمة الأولى وبين الأزمات الثلاث وبعدها حدثت أزمات أخرى كان سببها دائماً طه حسين.

يحدثنا طه حسين الفتى الأزهرى بصدى سماعه لأول مرة عن الجامعة حين يقول: "لم يكد هذا القرن يبلغ السابعة من عمره حتى سمعنا دعوة تقترب فى مصر وتدعو إليها الصحف ويتحدث بها الناس، وهى الدعوة إلى إنشاء جامعة مصرية كالجامعات المعروفة فى أوربا.. وأشهد أننى حينما سمعت هذه الدعوة أول مرة لم استقبلها إلا بالضحك فقد كنا - طلاب الأزهر - لا نعرف إلا الجامع ، أما هذه الجامعة التى كانت تركب لنا مؤنثة ، فكنا نضحك منها ونسأل عما يمكن أن تكون، ثم فهمنا هذه الدعوة إلى الجامعة فاستحال ضحكنا منها إلى رضا عنها وطموح إليها..

جامعة فؤاد فى عهدها الأول

أما كيف نشأت فكرة الجامعة؟

[١]"ففى سبتمبر ١٩٠٦ نشر المرحوم مصطفى كامل الغمراوى بك نداء فى "المؤيد" دعا المصريين فيه إلى إنشاء "جامعة مصرية" وبعد ذلك بأيام كتب سيد أحمد المنشاوى بك يقرر أن والده أحمد المنشاوى باشا تحدث فى الموضوع إلى نفر من أصدقائه منهم سعد زغلول وقاسم أمين، وعرض أن يوقف أربعين فدانا فى جهة "باسوس"، و"أبو الغيط" لتنشأ الجامعة عليها.

(١) الهلال - عدد خاص عن الاحتفال بالعيد الفضى للجامعة - يناير ١٩٥٠.

هكذا برزت الفكرة إلى حيز الوجود، وتحمست لها الصحف تحمسا شديداً ، وعرض الشيخ على يوسف على أصحابها الاجتماع في دار المؤيد، واتخاذها مقرا مؤقتا، ففضلوا الاجتماع في دار سعد زغلول بشارع الإنشا.

وفي ١٢ اكتوبر سنة ١٩٠٦ عقدت الجمعية التأسيسية للجامعة المصرية أول اجتماع لها في بيت سعد في شارع الإنشا بالقاهرة ، وقررت إذاعة بيان على الجمهور وفتح باب الاكتتاب".

ومن بين أوراق طه حسين التي احتفظ بها عثرنا على صفحة مطبوعة من القطع الكبير بعنوان "الجامعة الأهلية" يحتوى على قائمة للتبرعات وأهمها تبرعات الأميرة فاطمة إسماعيل، وصدى ذلك عند الشعراء والزعماء والأدباء ومنهم طه حسين نفسه، حيث تقول هذه الورقة :

الجامعة الأهلية

من التبرعات التي قدمت للجامعة خمسة آلاف جنيه من وزارة الأوقاف ولكن أكثر التبرعات كانت أهلية (بالجنيه) منها:-

حسن جمجوم	١٠٠٠
أحمد حيدر باشا	٥٠٠
مصطفى كامل الغمراوى	٥٠٠ + ٦ أفدنه
الأمير يوسف كمال	١٥٠ فدانا
حسن زايد بك	٥٠ فدانا
سعد زغلول	١٠٠ جنيه
عوض عريان	٧٣ فدانا
حسين عيد	٥٠٠ جنيه

وكان أهم التبرعات تبرع الأميرة فاطمة إسماعيل التي قدمت ستة أفدنة بجوار قصرها في الدقي ، وستمائة فدان للصرف من ريعها على الجامعة ، وجواهر تساوى ١٨ ألف جنيه. وقال أمير الشعراء أحمد شوقي في مدحه للأميرة لهذا الكرم:

كسوتها ، وهي أهل للذى كسيت كما كسا جنبات الكعبة الكاسي

فلا صنيع كصنعك في محاسنه ولا لفضلك في الأجيال من ناسي

أما طه حسين فقال مخاطبا الأميرة في قصيدة نشرتها (الجريدة) بتاريخ ١٩١٣/١١/٩:

عشت للشرق فان الشرق محتاج إليك رفع الله منار العلم فيه ... بيديك

وهبت الجامعة السعد، فنالت نعمتيك فهى فى أمن من الدهر بما فازت لديك

يا مثال الجـــود والبر هنا فـى بلديك إنما الحمد وحسن الذكر موقوف عليك

وأرسل الزعيم مصطفى كامل من باريس خطابا إلى محمد فريد أمين اللجنة التى ألفت لتكريمه عند عودته يشير فيه إلى مشروع إنشاء الجامعة المصرية قائلا: هذه هى (الهدية) الوحيدة التـى يليـق بالوطنيين إهداؤها لمصر والمصريين، فلتنسى الأحـزاب انقسـاماتها ولينـس الصحفيـون خصومـاتهم ولتلق الأحقاد فى هوة لا يسمع فيهـا لعـذر ولا دوى، وتجتمـع الأمـة لإتمام هـذا العمـل الضخـم وتحقيق ذلك المشروع الذى كله خير ونفع عميم.

الأزهريين أكثر استفادة

ويؤكد طه حسين أن الأزهريين الذين دخلوا الجامعة كانوا أكثر استفادة من هـؤلاء الذيـن لم يتعلموا بالأزهر، "وأستطيع أن أقول إن هذا التعليم كان له أثر سريع فى نفوسنا - نحـن الأزهريـين - عن إخواننا الذين درسوا بالمدارس المدنية. وهو قد أتاح لنا أن نلتقى مرات مختلفة فـى الأسبـوع الواحد، بعد أن كنا فى عزلة تامة ، وأتاح لنا أن نتحدث بعضنا إلى بعض وأن نتعـاون وأن نـدرس معاً، وأذكر أنى كنت قد اتفقت مع بعض هؤلاء على أن أعلمه المنطق الذى كنا ندرسه فى الأزهر ويعلمنى هو لغة من اللغات الأجنبية".

ويتذكر طه حسين كيف أنه اضطر إلى الاستدانة ليدخل الجامعة المصريـة القديمـة فـى عهدهـا الأول "وحين تقدمت للجامعة الأهلية كان علىّ أن أدفع جنيها واحداً رسم تسجيل، ولم يكن معـى ما أدفع، فطلبت من الزيات صاحب "الرسالة" أن يدفع هذا الجنيه ولم أرده له ولن أرده".

وتأتى الفرصة لطه حسين ليعبر البحر إلى السوربون فى بعثة على حساب الجامعة إلى فرنسـا، بعد أن استوفى شروطها المطلوبة وحصل على أول دكتوراه عن أول رسالة جامعية تمنح لطالب فى تاريخها، وكانت عن "ذكرى أبو العلاء المعرى" والتى أثارت ضجة وصلت إلى الجمعيـة التشـريعية التى يرأسها سعد زغلول، بعد أن اتهم أحد أعضائها، طه حسين بأنه تجنى على أبى العلاء وأخرجه من دين الإسلام، مما يستوجب حرمانه من حقوقه الجامعية ، وعدم سفره فى البعثة التـى رشـح لها للسفر إلى فرنسا، وذهب هذا النائب إلى حد المغالاة فطالب بإغلاق الجامعة التى منحت طه حسين إجازة الدكتوراه ، واستطاع سعد زغلول أن يقنع هذا النائب بسحب سـؤاله الـذى يعـتزم تقديمـه للجنة التشريعية لأن من شأنه ألا يثير فتنة فى الجامعة فقط بل سيمتد لهيبها إلى الأزهر نفسه الـذى

يقتضى الأمر إغلاقه أيضاً لأن طه حسين كان يدرس فيه قبل الجامعة.

وخمدت الفتنة إلى حين، ليسافر طه حسين إلى فرنسا، ليمكث هناك أكثر من سنة ، ثم يعود مضطراً بعد إفلاس الجامعة التى أعادت مبعوثيها إلى حين تتيسر الأمور، ومر طه حسين بفترة من أقسى فترات حياته التى تحطمت فيها آماله أو كادت، ليقدم هو بنفسه السبب الذى كان سيلغى بعثته نهائياً عندما قارن بين دروس أحد مشايخ الأزهر، ودروس أساتذته بفرنسا، ونشر ذلك على الملأ فى جريدة "السفور" مما جعل هذا الشيخ يشكوه إلى مجلس الجامعة مطالبا بإلغاء بعثته لتطاوله، ولولا أن الذى قام بالتحقيق مع طه حسين بناء على قرار مجلس الجامعة، هو أستاذه أحمد لطفى السيد الذى أنهى المشكلة، لحرم طه حسين من العودة مرة أخرى إلى باريس لاستكمال دراسته، وقد عاد بعدها مظفراً تقيم له الجامعة احتفالا يحضره وجهاء القوم فرحاً بأنجب أبنائها الذى حصل على أول دكتوراه من الخارج .

وقائع الاحتفال بطه حسين

نقرأ من بين أوراق طه حسين خبرا مكتوبا بخط اليد يسبق هذا الاحتفال تقول سطوره:

المحروسة : ٧ ديسمبر ١٩١٩

فى الساعة السادسة بعد ظهر اليوم تحتفل الجامعة المصرية ، ويحتفل معها الشباب المصرى الناهض بافتتاح محاضرات الأستاذ الدكتور طه حسين فى التاريخ القديم، وسيحضر الاحتفال أعضاء مجلس إدارة الجامعة وكثيرون من رجال العلم والأدب فى مصر.

والأستاذ الدكتور طه من خير ما أنجبت مصر علما وخلقا، ومن خير من تنتظر مصر منهم عملا فى سبيل ترقية مستواها العقلى بالطرق العلمية الصحيحة الحديثة التى استقاها من موارد الغرب وأضافها على صفات الثبات والاستمرار والتعمق التى اكتسبها من المدة التى قضاها فى الأزهر بمصر.

ولا يشك عندنا فى أن حفلة اليوم العلمية ستكون فاتحة نهضة علمية مباركة يستفيد منها طلاب العلم: شبابهم وشيوخهم، وتدفع بهم إلى الأمام فى سبيل الرقى والتقدم.

وفى ورقة أخرى نقرأ عن وقائع الحفل بتاريخ اليوم التالى فى ٨ ديسمبر ١٩١٩ المحروسة ، تحت عنوان: الدكتور طه حسين يلقى درسه الافتتاحى بالجامعة المصرية، تقول السطور التى احتفظ بها طه حسين بين أوراقه:

كان أمس موعد إلقاء الدكتور طه حسين أستاذ التاريخ القديم بالجامعة المصرية، أول درس له بعد عودته من أوربا متزودا بالطرائق العلمية وأساليب البحث الحديث. فبدأ شباب مصر يفد على دار الجامعة من الساعة الخامسة بعد الظهر، وكان من مختلف الطبقات، يضم الأستاذ، والمدرس، والمحامي، والطبيب، والصحفي، والأديب. وعند الساعة السادسة أقبل أعضاء مجلس الإدارة يتقدمهم حضرة صاحب المعالي ثروت باشا، الوزير السابق، يتبعه سعادة إسماعيل حسنين باشا وكيل المعارف، ومرقص حنا بك المحامي، وعلى بك بهجت مدير دار الآثار العربية، وشكرى باشا وكيل الحقانية، وحسن سعيد باشا، فتقدم الأستاذ إسماعيل رأفت بك وأخذ بيد الأستاذ طه وقدمه إلى ثروت باشا، ثم ارتقى إلى مقعد المدرس، فقابل الحاضرون الأستاذ الجديد بالتصفيق الطويل، ثم وقف بعد ذلك ثروت باشا وقال:

أيها السادة: فى العام الماضى وفى هذه القاعة افتتح صاحب المعالى زغلول باشا الوكيل الثانى للجامعة المصرية درس آداب اللغة العربية الذى ألقاه الأستاذ الشيخ "أحمد ضيف"، وإننى لسعيد اليوم أن أقدم لحضراتكم الدكتور طه حسين (تصفيق) ابن الجامعة، وأحد متخرجى إرساليتها بفرنسا، وإننى لفى غنى عن تعريفكم بمقام الرجل، ومكانته من العلم والأدب. فالدكتور طه حسين معروف بيننا من قديم بما اشتهر به من النبوغ والذكاء النادر.

حياة الدكتور طه حسين العلمية بدأها طالباً فى الجامعة الأزهرية، ثم انتسب بالجامعة المصرية، وواظب على الحضور فيها سنة ١٩١٤، فتقدم لنيل شهادة الدكتوراة فيها، وذكرى أبى العلاء لا تزال فى أذهاننا جميعا، تلك الرسالة الفلسفية الخطيرة التى تقدم بها لنيل شهادة الدكتوراه، تلك الرسالة التى نالت المنزلة الكبرى والشهرة الفائقة.

كان الأستاذ طه حسين أول عالم شرقى نسج هذا المنوال فى أبحاثه الفلسفية، عندما بحث أطوار فيلسوف الشرق أبا العلاء المعرى. نجح الشيخ طه حسين نجاحا باهرا، فكان أول دكتور أخرجته الجامعة المصرية، وتبينت فيه لمجلس إدارة الجامعة تلك الكفاءات العلمية، وظهرت تلك المقدرة الاستثنائية، فلم ترد أن يقف الشيخ طه حسين إلى هذا الحد، فانتخبته لأن يكون عضوا فى إرسالية الجامعة بفرنسا ليدرس التاريخ فيعود إلى الإفادة فى دار الجامعة. ذهب واشتغل فى كلية الآداب فى السوربون، وحصل على إجازة الليسانس فيها، ثم نال الشهادة العالية فى العلوم التاريخية.

وإنى لأذكر بمزيد من الفخر والإعجاب أن المدة التى قضاها كانت أقصر مدة يمضيها الطالب فى تحصيل ما حصل".

استقالة لم تتم

وأراد طه حسين أن يرتقى بالجامعة المصرية لتكون كمثيلاتها الأوربيات، فأدخل دراسة التاريخ اليونانى إلى الجامعة لأول مرة ، فرضى القليل وسخط الكثيرون الذين رأوا فى هذه الدراسة مضيعة للوقت والجهد فيما لا يفيد، ثم بدأ طه حسين ينحو فى دراسة الأدب منحى جديداً قوامه الشك فى كل الثوابت والمسلمات الموروثة، وليضع بذلك اللبنات الأولى للدراسة العلمية المنهجية للأدب العربى. ولينقل طه حسين منهجه من داخل أسوار الجامعة إلى خارجها بمقالات فى الصحف. والتى توجها بكتابه القنبلة "فى الشعر الجاهلى" والذى تضمن محاضراته التى ألقاها فى الجامعة، لتصبح دراسة الأدب بعد صدور هذا الكتاب ليست كدراسته قبله، وأصبحت قصة هذا الكتاب معروفة ومشهورة تناولتها الكثير من الكتب، ولا نرى داعيا لتكرارها هنا، أما الجديد الذى سوف نكتشفه هنا لأول مرة فهو قرار طه حسين بالاستقالة من الجامعة بعد الضجة التى أثيرت ضده والاتهامات التى علقت برقبته، ولكن أحمد لطفى السيد بالاتفاق مع وزير المعارف نجح فى حفظ هذه الاستقالة كأنها لم تكن ولذلك لم نسمع عنها، وسنجدها فى هذه الوثيقة التى ننشر نصها الذى كتبه مدير الجامعة لطفى السيد:

الجامعة المصرية.

قلم المستخدمين.

المرجو عند الرد ذكر هذا الرقم م١-١٦/١.

القاهرة فى ١١ مايو سنة ١٩٢٧

جناب المحترم ناظر كلية الآداب

جوابا على كتاب الكلية رقم ٥٨ فى ٥ مايو سنة ١٩٢٧ أتشرف بإخبار جنابكم أننا بعد أن قابلنا حضرة صاحب المعالى وزير المعارف استطعنا إقناع حضرة الدكتور طه حسين بأنه لا داعى لاستقالته ، وأن الجامعة تحرص على إبقائه فى كرسيه، ولذلك حفظنا الاستقالة المذكورة ونرجوكم إبلاغ حضرته ذلك.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

مدير الجامعة المصرية

الإمضاء "أحمد لطفى السيد"

الأزمة الكبرى

ولكن العاصفة تعود مرة أخرى للظهور بعد اصطدام طه حسين برئيس الوزراء إسماعيل صدقى وحكومته ، على إثر رفض طه حسين منح الدكتوراه الفخرية لبعض السياسيين، وتظاهر طلبة الجامعة أثناء زيارة الملك فؤاد للجامعة برفقة رئيس وزرائه صدقى باشا احتجاجا على حكومته الديكتاتورية، ثم رفض طه حسين محاولات صدقى لاستمالته لرئاسة تحرير صحيفة حزبه، ولم يكن هناك بد من عقاب طه حسين وإخراجه من الجامعة ونقله إلى ديوان وزارة المعارف وإحالته إلى المعاش بعد ذلك وتجديد فتح ملف قضية الشعر الجاهلى مرة أخرى، ويقوم طلبة كلية الآداب بالإضراب عن الدروس احتجاجا على إخراج أستاذهم وعميدهم، وكان من المشاركين فى هذا الإضراب الطالب نجيب محفوظ بقسم الفلسفة بكلية الآداب. ويرفع طلبة الكلية التماسا إلى الملك فؤاد لإعادة عميدهم إليهم، وأعرب مجلس كلية الآداب عن أسفه ودهشته لهذا القرار الذى لم يعلم به إلا من الصحف، وتتسع دائرة الإضراب لتشمل طلبة كليات العلوم، والحقوق، والطب، كما أضرب طلبة مستشفى قصر العينى.

ووقعت مصادمات خفيفة بين الطلبة والبوليس، أما مدير الجامعة أحمد لطفى السيد فقد كان الجميع يترقبون موقفه، وبدأوا ينحون عليه باللوم لتأخره فى اتخاذ موقف حاسم من إقالة طه حسين من الجامعة.

وتذكر صحف تلك الفترة أن طلبة كلية الآداب "قابلوا مدير الجامعة وأبلغوه احتجاجهم فنصح لهم بالتزام الهدوء واعداً إياهم ببذل قصارى طاقته لحل الإشكال بما يصون كرامة الجامعة ويكفل لها استقلالها.

وللحال شرع حضرته فى مخاطبة ولاة الأمور بالموضوع، فاستنكر الطريقة التى جرت عليها وزارة المعارف فى معاملة الدكتور طه واعتبرها ماسة بكرامته وكرامة الجامعة كلها، وطلب إعادة العميد المنقول إلى كليته فى خلال ٤٨ ساعة.

وطلب أحمد لطفى السيد من ولاة الأمور أن يعتبروه بحكم المستقيل من منصبه إلى أن يسوى الإشكال بما يصون كرامته وكرامة الجامعة، فإذا لم يسو على هذا المنوال استقال من منصبه نهائيا، فرغب إليه ولاة الأمور فى التريث ريثما ينجلى الموقف فأمسك عن إعلان استقالته ولكنه انقطع عن الذهاب إلى مكتبه.

وظن بعضهم يومئذ أن مدير الجامعة تساهل فى حقوقه وفى الدفاع عن كرامة الجامعة، فبدأوا ينحون عليه باللوم، فتحمل لومهم صابراً آملاً أن يوفق إلى حل الإشكال حلا مرضياً.

فاقترح لتقريب شقة الخلاف أن يعود الدكتور طه إلى كلية الآداب أستاذا فلم يقبل اقتراحه وعندئذ صمم حضرته على الاستقالة فأرسلها إلى وزير المعارف مكتوبة قبل ظهر الخميس "١١ مارس ٣٢" ولكى يضع ولاة الأمور أمام الأمر الواقع أرسل صورة منها إلى بعض الصحف فنشرت فيها بعد تسليمها للوزير بساعات. فأثارت استقالته ثائرة طلبة سائر كليات الجامعة ، فاجتمعوا يوم الجمعة.. وقرروا الإضراب يوم السبت احتجاجا . وكانوا قد أضربوا قبل ذلك عقب إذاعة خبر نقل الدكتور طه مشاطرة لزملائهم طلبة كلية الآداب فى إظهار عواطفهم إزاء هذا الحدث".

ولم يتوقف صدى هذا الحدث الذى وصفته الصحف بالمشكلة الخطيرة، داخل الجامعة وخارجها فقط، بل امتد إلى باريس بين الطلبة المصريين المبعوثين هناك، كما سنقرأ ذلك فى وثيقة تكشف عن ردود الفعل هناك لأول مرة ، وهى عبارة عن رسالة بعث بها الطالب محمد مندور عضو البعثة المصرية فى باريس.

انقسام المبعوثين

يقول: أستاذنا العزيز

تحية واحتراما وبعد فقد بلغنا منذ زمن بعيد خبر ما نزل بكم من ظلم صارخ استنزل لعنات الوطن من أدناه إلى أقصاه أرضا، وما كان من صمودكم بالحق وقيامكم على الكرامة، وها نحن نأتيكم بدورنا معاهدين نمد إليكم أيد لن تضطرب فى الذود عن رجل طالما أحسن لذويها وغمرهم بفضله ، ويا عجبا كيف ننساك وقد حملتنا من محبتك ما تجيش به قلوبنا وتنطق عنه حواسنا وهل من سبيل إلى الفرار عن واجبنا المقدس فى الاحتجاج على ما نزل بمعهدنا الكريم – وطننا الثانى – من اعتداء صارخ كان لسوء حظنا أن نفذ فى شخصكم المحبوب مما ضاعف الجرم وبالغ فى وقع الجريمة، وهل أقل من أن نقول للظالم أنك قد ظلمت ، أما وا لله أن الذل عار وقبيح بمن يرض به.

منذ أن وصلنا الخبر المشئوم اجتمعت بزميلى شعيرة أفندى وتحدثنا فيما يجب علينا عمله ، وبسرعة اتفقنا على إرسال تلغراف للوزير نحتج فيه على الاعتداء على استقلال

الجامعة الذاتى فى شخصكم ، ونطلب إعادتكم إلى العمادة وبالفعل وضعنا الصيغة كالأتى حرفيا من "مبعوثو كلية الآداب يحتجون من الضرر الواقع على استقلال بيتهم فى شخص عميدهم المحبوب ويرجون إعادة النظر فى هذا القرار".

وتركنا لفظة "نرجو" لنستبدلها بلفظة "نطلب". حسب رأى الأغلبية ، ولما كان من الصعب التقاؤنا جميعا فى مكان واحد كتب شعيرة أفندى الصيغة مع استبدال لفظة "نرجو" بلفظة "نطلب" ليكون لنا الخيار عند الإرسال باعتبار أن من يقبل الأكثر شدة يقبل الأقل بالأولوية. ومر شعيرة على إخواننا أعضاء البعثة لأخذ امضاءاتهم ، وبالفعل أمضى عزت والخضيرى ونجم والشحات أيوب وعثمان أمين وعلى حافظ وشعيرة وأنا طبعا، ألا أنه كما لا يخفى عليكم أخذ إخواننا الأفاضل فى التفكير فى سطوة الحكومة، وما الجبن كما تعلمون إلا نتيجة التفكير الطويل، وبالفعل جاء عزت بعد أن أمضى بنحو ساعتين أو ثلاثة وجاء ومعه عثمان أمين حيث كنا مجتمعين: شعيرة والشحات وأنا وأخبرونا بعدولهم عن رأيهم هم والخضيرى ، وبأنهم لا يريدون الاستهداف للخطر، فرأيت حسما للنزاع ورغبة فى عدم انشقاق الكلمة أن نستبدل كلمة يحتجون ، بكلمة "يأسفون".

وبهذا لا يكون التلغراف إلا عبارة عن أسف ورجاء ، وبعد أخذ ورد لاحت منهم الموافقة، وانفض المجلس على ذلك ، وبالفعل أرسل شعيرة التلغراف بعد أن دفعوا جميعا الاشتراك فى أجرته، وأرسله بالصيغة الخفيفة، مع أنهم أمضوا على أشد صيغة ، ومرت الأيام حتى كان أول إبريل، وذهبنا إلى مكتب البعثة لأخذ الشيك ، فإذا بالديوانى بك يدعونى إليه ثم يسألنى عن التلغراف ولماذا أرسلناه، وتناقشت معه طويلا فى: هل يجب أن يكون للجامعة استقلال ذاتى أم لا ؟ وهل للجامعات فى أوربا هذا الاستقلال أم لا؟

وفى هذه الأثناء جاء "عزت" فسأله الديوانى بك عن نفس التلغراف فإذا بعزت يصيح بأنه غير موافق على إرسال تلغرافات وأنه لم يرسل شيئا، وإنما أنا وشعيرة اللذان أرسلا التلغراف، فسألته أمام الديوانى بك : هل أمضى على التلغراف أم لا ؟ فأجاب بالإثبات ولكنه عاد فقال: ولكن عدت فعدلت، ثم قال: وها هو الدليل على استنكارنا للتلغراف وعدم موافقتنا عليه . وفعلا قدم للديوانى بك ورقة بهذا المعنى وفى أوقح الألفاظ وعليها إمضاؤه كزعيم للجبن والانحطاط – وأستميحكم عذراً فى استعمال هذه الألفاظ فهى جديرة بهم – ومعه إمضاء الخضيرى طبعا وعثمان أمين وحسين نجم، فغلا الدم فى رأسى ووصفته بما هو جدير به من ضعف الأخلاق ونحافة التربية، وقلت للديوانى بك : إن قطع رأسى عن بدنى أهون إلىّ من الإمضاء على هذه الورقة. فألح فى أن أرجع عن رأيي فأبيت ، وما كنت

أستطيع غير ذلك، وافترقنا على هذا.

هذا ولا يغيب عنكم أن الديوانى بك لم يتلق أى خبر من مصر عن هذا التلغراف، وإنما هم إخواننا الأفاضل هم الذين وشوا إليه بالتلغراف، وبصيغة التلغراف، ويرى الديوانى بك أن فى قولنا "نأسف على الاعتداء على استقلال الجامعة" جرحا للوزير ، وهو تفكير غريب، وبفرض صحته فنحن نتحمل مسئوليته، وها هو ينتظر ما سوف يكون من الوزارة.

والغريب أن عزت وإخوانه يتحدوننا بالثبات على مبدئنا، لأنهم يظنون أن فى ذلك هلاكنا الأكيد ، حيث ننفرد بالمسئولية، وعندئذ لا تجبن الوزارة عن رفتنا، وهو ظن خاطئ منهم، لأننا لا نعبأ بالوزارة ولا برفتها ما دمنا على حق، ومادامت أخلاقنا سليمة من هذا الجبن الشائن، ولقد ذكرتنى هذه الحادثة بعبد الظاهر السملوطى وغيره ممن يسمونهم فى مصر بشاهد الملك ، حيث يتسلل أحد ضعاف النفوس وينبرى جريا وراء منفعة فانية لينزل الشر بزملائه، وهو انحطاط أخلاقى لو كنت قاضيا وكان القانون طوع أمرى لأنزلت بهم عقوبة الإعدام فى غير رحمة ولا أسف.

ولَكم كان عزيزا على نفسى أن أذكرهم أن الدكتور طه الذى ينفرون من حوله الآن ويخشون من الانضمام إلى صفه كان صاحب الفضل فى إيصالهم إلى ما يحرصون عليه الآن حرص الكلاب على الجيف، والعياذ با لله، وأنه لولاك لظلوا بمصر صياحا يتضورون جوعا، وهب أننا لا نحكم على الأمر إلا من الناحية الأخلاقية البحتة، أينتظر من ناس كهؤلاء عملا كهذا.

لقد قلت لعزت أمام الديوانى بك أنه لا يجوز له أن يطمئن أن الديوانى بك يتسم له بإخلاص ، بل على العكس الديوانى بك كوزير المعارف، وكأى إنسان عدو أو حبيب لاشك يحتقر أمثال هذه الحشرات ، وإن ابتسم لها فى الظاهر بحكم الوظيفة أو المنفعة، وقلت أكثر من ذلك وهو صحيح ومنطبق على هؤلاء الكلاب.

أما وا لله إننى على أتم استعداد للعودة إلى مصر إذا كانت الوزارة تأبى علىّ أن أقول كلمة الحق فى سبيل رجل أنا مدين له بما لا قبل لى بوفائه، وأكبر دليل على ذلك هو أننى لم أكتف بالتلغراف بل أرسلت مقالة لجريدة السياسة منذ زمن بعيد ولعلها نشرتها، وعنوانها (من هى كلية الآداب ومن عميدها)، ومنذ يومين أرسلت لنفس الجريدة مقالة أخرى عن (استقلال الجامعات) ولو كنت فى مصر لملأت بقاع الأرض بصيحات الحق تدوى فى آذان الظلمة وتهز من عروشهم.

وهكذا يا سيدى الأستاذ ترى الغدر وانحطاط الأخلاق حتى بين الشباب الذى كنا

للأسف نرجو منه الخير لهذا الوطن المكين ، ولكن لا تأسوا ولا تحزنوا فسوف تكون الكلمة لنا لأننا على حق، ولأننا نسعى وراء نفع هذا الوطن ونفع ذويه ، فلنصبر على ضيمهم قليلا حتى يأتى العدل والحرية ، وعندئذ نضع على الظلم قيودا متينة لا انفكاك لها، كما أتوسل إليكم فى الاعتماد على إخلاصنا إلى النهاية ، فإننا وإن كنا لا نزال فى مقتبل العمر ولا يزال صوتنا غير مسموع ، فسوف يأتى يوم نصيح فيه بالحق، وإذ ذاك ننشر مالكم من فضل، ونتم ما بدأ تم من عمل صالح لنؤدى بعض ما هو واجب علينا لكم وجوباً أبديا لا أداء له بغير الصبر على محبتكم والإخلاص لشخصكم المحبوب مهما نزلت بنا من صروف ، وعليكم من تلميذكم المحب المخلص سلام الله وتحيته.

مندور

فــلاح مغفل

ويعتبر الدكتور مندور من أبرز تلامذة طه حسين ، ويروى هو بنفسه قصة تعرفه على طه حسين فيقول[1]

"فتحت الجامعة الجديدة أبوابها سنة ١٩٢٥.. وتقدمت ضمن أول دفعة التحقت بكلية الحقوق، وكانت هناك سنة إعدادية تعد الطلبة للالتحاق بكليتى الحقوق والآداب.. وأول يوم فى السنة ألقى علينا د. طه حسين محاضرة عن "الشعوبية وانتحال الشعر" ثم طلب منا أن نلخصها فى خمس دقائق، وعندما قرأ الدكتور تلخيصى للمحاضرة قال لى :

أنت يا ولد باين عليك ممتاز ، رايح تخش كلية إيه؟

قلت: كلية الحقوق .. أصلى عاوز أبقى وكيل نيابة. فشخط فيّ وقال : أصلك فلاح مغفل.. أدخل كلية الآداب يا غبى وانت تبقى طالب ممتاز وتسافر أوربا.

وسمعت كلام الدكتور طه.. كنت أدرس الحقوق الصبح وأدرس الآداب بعد الظهر.. وحصلت على ليسانس الآداب قسم اللغة العربية واللغات السامية سنة ٢٩، وفى العام التالى نجحت فى ليسانس الحقوق.

---

(١) "عصير حياتى" لعبد التواب عبد الحى - ١٩٦٦.

كتبوا اسمى ضمن بعثة مسافرة إلى فرنسا ، ولكنى رسبت فى الكشف الطبى ، وكنت قد كتبت بحثا عن الشعر الجاهلى وأعجب به طه حسين فأخذه إلى حلمى عيسى باشا ، ناظر المعارف، وقال له: "اقرأ هذا البحث"، وأصدر ناظر المعارف قرارا بإعفائى من الكشف الطبى، وسافرت لأدرس فى السوربون.

وفى السوربون حصلت على ليسانس فى الأدب الفرنسى واليونانى وفقه اللغة وعلم الأصوات اللغوية ، وهو علم يبحث فى أصوات اللغة وموسيقاها ويحلل الموجات الصوتية وكمها ودرجة الارتكاز اللغوى فيها، ودرست أيضا التشريع المالى والمذاهب الاقتصادية السياسية ، وحصلت على دبلوم فيها. وقامت الحرب، فرجعت من فرنسا لأعمل مدرسا مساعداً فى كلية الآداب، أدرس للطلبة "الترجمة الإنجليزى"، وقدمت رسالة عن "تاريخ النقد المنهجى عند العرب" وحصلت على الدكتوراة فى الأدب العربى.. وعندما افتتحت جامعة فاروق فى الإسكندرية نقلونى إليها مدرسا للأدب العربى، وهناك قابلت إحدى طالباتى - اسمها "ملك عبد العزيز"، كانت تقول الشعر وتنجح بامتياز فتزوجتها".

هذا نموذج لتلاميذ طه حسين الذى تسلح بالثقافة والعلم على أعلى مستوى قبل أن يتصدى للنقد الذى صار أحد المبرزين فيه، فقد تخرج من مدرسة طه حسين الجامعية، ويالها من مدرسة.

تهنئة "مى"

نعود إلى طه حسين فى الجامعة ، وعودته بعد زوال عصر صدقى ، ليهنئه الكثيرون بالعودة، ومنهم الآنسة "مي" أديبة أديبات عصرها (التى دق لها قلب طه حسين حين سمع صوتها لأول مرة) التى نلمح سعادتها فى هذه الرسالة القصيرة الطريفة المعبرة ، فتقول:ناديتُ بالتليفون ثلاث مرات لأطلب موعدا للزيارة لعلمى أن الدار مزدحمة دائما بالزائرين ، وأنا أبتعد عن الازدحام ، ولكن التليفون طبعا مشغول لأن تليفون العميد عميد التليفونات، كم أنا سعيدة بزيارة وبدون زيارة، أرجو أن يعود لطفى بك قريبا إلى الجامعة "ليستقر الحق فى نصابه"، على نحو تعبير كاهن أوزوريس. مع التهنئة بعيد الفطر المبارك.

"مي"

أزمـــة جـــديدة

وتأتى سنة ١٩٣٩ لتشهد أزمة جديدة بخصوص كتابين يدرسان فـى كليـة الآداب . ولنـترك طه حسين بنفسه يروى قصة الأزمة فى نص تقريره الذى رفعه إلى مدير الجامعة أحمد لطفى السـيد، وما انتهى إليه مجلس الكلية بشأن ما أثارتـه الصحـف حـول الكتـابين ، فيمـا تضمنـاه مـن مسـاس بالدين والرسول.

يقول نص تقرير طه حسين.

كلية الآداب

١٤ مارس ١٩٣٩

حضرة صاحب المعالى مدير جامعة فؤاد الأول

تفضلتم فتحدثتم إلىّ فى شأن ما أثير من لغط فى الصحف حول كتابين يقرؤهما طلاب السنة الثالثة بقسم اللغة الإنكليزية.

فأتشرف بأن أرفع إلى معاليكم أن مجلس الكلية اجتمع فى يوم ١٣ مارس سنة ١٩٣٩ وعنى بدرس هذا الموضوع. وسمع فيـه البيـان الـذى أدلى بـه رئيـس قسـم اللغـة الإنكليزيـة. وراجع الكتابين المذكورين. فتبين ما يأتى:-

١ -أن الكتابين اللذين أثير حولهما اللغط هما كتاب محادثات خيالية تـأليف و. س. لانـدر، والرواية التمثيلية "جان دارك" من تأليف برنـارد شـو. ولابـد هنـا مـن الإشـارة إلى أن الكلية لا تصرف للطلبة كتبا، وإنمـا يشـير الأسـاتذة بمطالعـة فصـول خاصـة أو مؤلـف خاص ، فيستطيع الطالب أن يستعير الكتاب مـن مكتبـة الجامعـة، أو يقتنيـه لنفسـه إذا شاء.

٢ -فأما الكتاب الأول فهو عبارة عن محادثـات خياليـة كـل محادثـة منهـا تتنـاول موضوعـا خاصا، وكل منها مستقل عن الآخر تمـام الاسـتقلال. هـذه المحادثـات تبلـغ نيفـا ومائـة محادثة. وقد كلف الطلبة أن يطالعوا المحادثات الآتية:-

١) محادثة بين أيسوب وردوبى

٢) محادثة أخرى بين أيسوب وردوبى

وموضوع هاتين المحادثين (الحياة الأغريقية، وخرافات اليونان).

٣) محادثة بين إسكندر المقدونى وكاهن آمون.

وموضوع الحديث – القرابة ، والفضيلة، وحياة الإسكندر.

٤) محادثة بين اللورد بيرون وريشارد هوكر

موضوعها مسلك المرء فى وقت الشدة، وقيمة العلم والحكمة.

٥) محادثة بين أوليفر كرمويل والترنوبل .

تدور حول موقف كرمويل من الملك شارل الأول.

٦) محادثة بين لويس الرابع عشر والأب لاشيز .

وموضوعها عقلية الفاتحين.

٧) محادثة بين الجنرال كليبر وأحد الضباط الفرنسيين

وموضوعها نهضة مصر

هذه المحادثات التى كلف الطلبة دراستها ليس فيها أدنى إشارة للإسلام ولا للنبى عليه السلام، ولا تمس الدين من قريب أو بعيد.

فالشكوى من هذه الفصول باطلة لا أساس لها.

٣- الكتاب الثانى مسرحية جان دارك لبرنارد شو من الكتب التى يطالعها الطلاب فى الكلية منذ ستة أعوام. وقد ترجمت إلى اللغة العربية ، وتداولها الناس ، دون أن تحدث ضجة أو تثير احتجاجا.

والقطعة المعترض عليها عبارة وردت فى حديث الأسقف كوشون ، فى الفصل الرابع وهو يخاطب الإيرل ورك ، أراد المؤلف أن يصور هذا الرجل بالتعصب الأعمى والغباوة فأجرى على لسانه عبارة يقارن فيها بين أعمال جان دارك وأعمال محمد (عليه السلام) الذى وصفه بالمروق ، وبأنه عدو المسيح.

وقد رد عليه محاوره بأنه عرف المسلمين فرآهم قوما كراما، بل إنهم يفضلون قومه من نواح كثيرة.

من هذا يبدو أن المؤلف لم يرد أن يطعن فى الإسلام أو أن يؤذى النبى صلى الله عليه وسلم وإنما أراد تصوير أسقف متعصب جاهل من أساقفة العصور الوسطى ، ثم رد عليه بعد ذلك.

ولسنا نرى بأسا في شيء من هذا فقد حكى القرآن الكريم أقوال المشركين الذين كانوا يصفون النبي بالسحر والكهانة والجنون والكذب ثم رد عليهم.

بهذا لا تجد الكلية بأسا في قراءة هذه القصة ولو رأت الكلية فيها أو في غيرها أدنى مساس بالدين لمنعت دراستها منعا باتا. فهي حريصة كل الحرص على ألا يساء أحد في شعوره الديني لأنها إنما أنشئت للعناية بالعلم وبالعلم وحده وهي ترى أنها قادرة على التفريق بين ما ينفع الطلاب وما يضرهم وأنها خليقة أن تكون موضع الثقة التامة في هذا كله وأنها في غير حاجة إلى أن تدخل هيئات غير جامعية في شئونها التعليمية.

وتفضلوا يا معالي المدير بقبول وافر احترامي ...

عميد كلية الآداب

(طه حسين)

ورغم اقتناع لطفي السيد بما جاء في التقرير الذي رفعه إلى وزير المعارف وأقره عليه. إلا أن الجميع يفاجأ بأن رئيس الوزراء قد أبلغ شيخ الأزهر بأن أمر "بمنع قراءة الكتابين وجمعهما من أيدي الطلاب. ومع رغبة رئيس الوزراء في إرضاء الأزهر تراجع لطفي السيد عن تضامنه مع مجلس الكلية. وعدل وزير المعارف د. محمد حسين هيكل عن موقفه المؤيد أيضا. ويتصاعد الأمر باعتداء طلبة من كليات أخرى على كلية الآداب مصدر الأزمة. بل ويعتدون على مكتب العميد نفسه.

اقتحام كلية الآداب

التفاصيل نقرؤها في رسالة طه حسين إلى لطفي السيد:

حضرة صاحب المعالي مدير الجامعة المصرية

أتشرف بأن أرفع إلى معاليكم ما يأتي: عندما تحدثتم إليّ بشأن شكوى بعض الناس من قراءة كتابي: جان دارك لبرناردشو. وأحاديث خيالية لـ (لندر). وعدت معاليكم بأني سأنظر في الأمر. وبأني لن أتردد في أن أطلب إلى مجلس الكلية منع قراءة هذين الكتابين إن كان فيهما شيء يجرح الشعور الديني أو يهين الإسلام. ثم تحدث إليّ معالي الوزير فجددت له هذا الوعد. ولم تنقض ساعات حتى علمت منكم ثم من الصحف أن سلطة غير جامعية (الأزهر)

تدخلت في الأمر واحتجت عند حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس الوزراء .

فلما كان الغد عرضت الأمر على مجلس الكلية فسمع بيان الأستاذ المختص، ونظر بنفسه في الكتابين، ورأى أن ليس على الكلية بأس من قراءة قصة جان دارك لأن كاتبها لم يرد إيذاء الإسلام، وإنما صور رأى أسقف، متعصب جاهل من أساقفة القرون الوسطى ، ثم رد عليه . ورأى المجلس كذلك أن الفصول التى تقرأ من كتاب أحاديث خيالية لا تمس الإسلام من قريب ولا من بعيد، واعتبر الأمر منتهيا، ورفعت إلى معاليكم تقرير المجلس . فوافقتم عليه كتابة وأرسلتموه مع موافقتكم إلى حضرة صاحب المعالى الوزير ، وقد صرحتم لى ولغيرى من الزملاء بأنكم ترون رأى الكلية، وتتضامنون مع المجلس فيما اتخذ من قرار، ولا تسمحون بالتدخل فى الشئون التعليمية للجامعة بحال من الأحوال، وقد صرح معالى الوزير لى ولغيرى من الزملاء بأنه لا يرى غبارا على تصرف الكلية.

واعتقدنا أن الأمر قد انتهى، ولكنى علمت أمس من معاليكم ، ومن معالى الوزير أن حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس الوزراء قد كتب إلى الأزهر ينبئه بأنه أمر بمنع قراءة الكتابين وبجمعهما من أيدى الطلاب.

ولم يكن مقامه الرفيع قد تحدث إليكم أو إلىّ فى شئ من ذلك أيضا. وقد رغبتم فى مقابلة مقامه الرفيع مع معالى الوزير لإقناعه بوجهة نظر الكلية ، فلم تتيسر هذه المقابلة، ثم أصبحنا، فإذا طلاب من كليات غير كلية الآداب يقتحمون الكلية وينتهكون فيها حرمات الدرس، ويخرجون الطلاب من دروسهم، يصطنعون فى ذلك العنف والقسوة، ويعتدون على الطالبات بما يجب أن تعف عنه الألسنة النزيهة، ثم يهينون العميد ، ويهجمون على غرفته ثم يتفرقون دون أن يعنى أحد بحماية الكلية أوردهم عنها.

ثم دعيت إلى مكتب معالى الوزير فعلمت من معاليكم ومن الوزير نفسه أن حضرة صاحب المقام الرفيع مصمم على تنفيذ ما كتب به إلى الأزهر، وطلبتما إلىّ أن أعرض الأمر على مجلس الكلية لعله يغير رأيه ، فاعتذرت من ذلك. وقد بينتما لى أن الظروف الحاضرة لا تسمح بالإغضاء عن هذه الفتنة التى تثار . فقلت: إن كلية الآداب لم تثرها، وإن من حق الحكومة أن تصنع ما تراه خيراً لحماية النظام واتقاء الفتنة.

وقد رأيت من معاليكم رجوعا عما سجلتم من التضامن مع مجلس الكلية ، ورأيت من معالى الوزير عدولا عن موقفه الأول أيضا، وكنت أنتظر أن ما كان من اعتداء على الكلية يجب أن يقمع قبل كل شئ، لا أن يبدأ بالتسليم للمعتدين.

من أجل هـذا كلـه أتشـرف بـأن أرجـو مـن معـاليكم أن تتفضلـوا فـترفعوا إلى حضـرة صاحب المعالى الوزير استقالتى من منصب العميد، كما أتشرف بأن أبلغ معاليكم أنى مستعد لأداء ما يجب على الأستاذ من إلقاء الدرس يوم تستطيع الجامعة أن تحمى الأساتذة والطـلاب فى كلية الآداب من مثل هذا الاعتداء الذى حصل اليوم.

وتفضلوا بقبول تحيتى وإجلالى

استقالتى

وهذا هو نص استقالة طه حسين احتجاجا على الموقف السلبى لوزير المعارف ومدير الجامعة من الاعتداء على كلية الآداب وعميدها.

يقول طه حسين:

حضرة صاحب المعالى مدير الجامعة المصرية أتشرف بأن أرفع إلى معاليكم أن طلابا مـن غير كلية الآداب قد أغاروا صباح اليوم على الكلية ، جماعات ، فانتهكوا حرمـات الـدرس. وأهانوا الأساتذة واعتدوا بالضرب على الطلاب. وآذوا الطالبات بسب يجب أن ترتفع عنـه الألسنة النزيهة. ونادوا بسقوط العميد وهجموا على غرفته. وتفرقوا بعد ذلك دون أن تعنى الجامعة بحماية الكلية أو ردهم عنها.

وكان مصدر هذا العدوان ما أثير من لغط حول كتابين يقرآن فى قسم اللغة الإنجليزية. ومعاليكم تعلمون أن مجلس الكلية قد نظـر فـى هـذا الأمـر ورأى أن ليـس فيمـا يـدرس فـى الكلية ما يجرح الشعور الدينى أو يؤذى الإسلام أو ينال مـن شـخص النبـى صلـى الله عليـه وسلم.

وقد رفعت الكلية فى ذلك إليكم تقريرا قبلتموه وسجلتم موافقتكـم عليـه وتضـامنكم مع أساتذة الكلية.

على أنى رأيت اليوم حين التقينا عند معالى الوزير أنكم قد غيرتم رأيكم وقبلتم أن تمنـع قراءة الكتابين نظرا للظروف.

وكنت أظن أن أول شئ كانت تجب العناية به هو حمايـة الكليـة مـن العـدوان. ومعاتبـة المعتدين عليها، وتمكين الأساتذة والطلاب من أداء واجبهم العلمى.

لهذا كله أرجو أن تتفضلوا فترفعوا إلى معالى الوزير استقالتى من منصب العميد. وأنا بالطبع مستعد لأداء واجبات الأستاذ كلها يوم يحمى الأساتذة والطلاب فى كلية الآداب من مثل العدوان الذى حصل اليوم.

وتفضلوا بقبول تحيتى وإجلالى.

طه حسين

٢١ مارس ١٩٣٩

رد الاستقالة

ولكن لطفى السيد مدير الجامعة يرد الاستقالة إلى طه حسين قائلاً له فى الرسالة التالية:

جامعة فؤاد الأول

الجيزة فى ٢٦ مارس ١٩٣٩

حضرة صاحب العزة الدكتور طه حسين بك

عميد كلية الآداب

تحية وسلاما

اطلعت على استقالتكم التى حررتموها بتاريخ ٢١ مارس سنة ١٩٣٩ وقد أسفت أشد الأسف للحوادث التى دعتكم إلى تقديمها.

ويسرنى كل السرور أن أعيد إليكم هذه الاستقالة راجيا أن تعودوا إلى عملكم فى الكلية بما أعرفه لكم من كفاية وإخلاص.

وتفضلوا عزتكم بقبول احترامى

مدير الجامعة

أحمد لطفى السيد

لن أرشح نفسى

ويبدو أن لطفى السيد قد نجح كعادته فى إقناع طه حسين بالعدول عن استقالته، ولكنه بعد شهرين من استقالته التى لم تتم، سوف تجبره حكومة محمد محمود باشا على الاستقالة بعد أن أعيد انتخابه عميدا فى مايو من نفس السنة ١٩٣٩، التى جرت فيها أحداث الأزمة السابقة التى لم

تكن الحكومة فيها راضية عن أدائه لمواجهة ما رأت أنه فتنة ، فاسترضت الأزهر، وتخلى وزير المعارف ومدير الجامعة عن طه حسين وكلية الآداب، مما كان ينذر بأن طه حسين لن ترض عنه الحكومة عميدا، رغم إعادة انتخابه بالإجماع، فاضطر للاستقالة من العمادة ليبقى أستاذا بالجامعة. ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يجبر فيها طه حسين على الاستقالة، فقد سبق أن عين عميدا لكلية الآداب ١٩٢٨ خلفا لعميدها الفرنسى ، ولكن وزير المعارف الوفدى يتدخل لكى لا يتم هذا التعيين ، باعتبار أن طه حسين محسوب على الأحرار الدستوريين وهم على طرفى النقيض مع الوفد الذى يبغضهم ويبغضونه ، ولم يجد طه حسين مفرا من الخضوع للعاصفة التى كادت أن تهب مثيرة أزمة سياسية، وحفظا لإراقة ماء الوجه طلب طه حسين أن يعين أولا ثم يستقيل. فوقع بعض الأوراق ، ثم قدم استقالته ليعود العميد الفرنسى إلى كلية الآداب مرة أخرى.

وحين يختار طه حسين عميدا بعد انتهاء مدة العميد الفرنسى ، ولم يكد يمر يومان على تعيينه. حتى يطلب إليه وزير المعارف فى حكومة صدقى ، أن يستقيل ليتفرغ لرئاسة تحرير صحيفة حزب رئيس الوزراء إسماعيل صدقى ، ويعتذر طه حسين، ثم يحرج الحكومة حين يرفض منح الدكتوراة الفخرية لبعض السياسيين، وتم نقله إلى وزارة المعارف، ثم إحالته إلى المعاش بعد ذلك . إلى نهاية القصة المعروفة حتى عودته ١٩٣٤. ومنذ أن أجبر طه حسين على استقالته الأخيرة ١٩٣٩، اعتذر بعد ذلك عن أى ترشيح لمنصب العميد، كما سنلاحظ فى رسالته إلى عميد كلية الآداب ١٩٤٠ والذى دعاه مع بقية الأساتذة للتشاور فى مسألة الترشيح للعميد ، فيقول فى رسالته:

صديقى الأستاذ العميد

كنت أود أن أحضر الاجتماع الذى دعوتنا إليه، ولكنى مضطر إلى أن أذهب إلى الوزارة لموعد ضرب بينى وبين الوكيل للقاء رئيس مجلس الشيوخ، وربما كان التحرير فى بعض المسائل خير من التقرير.

فأرجو أن تقرأ على الزملاء تحيتى وأن تبلغهم أنى لن أرشح نفسى لمنصب العميد ولن أقبله إذا عرض علىّ مهما تكن الظروف. فالخير ألا يفكروا فى ذلك، وسأحضر الجلسة المقبلة للمشاركة فى الانتخاب إن شاء الله.

ولك أصدق التحيات

٢٧ مارس ١٩٤٠

ويظل طه حسين أستاذا يلقى المحاضرات بالجامعة ثم يعينه نجيب الهلالى مستشارا فنيا لوزارة المعارف التى يرأسها، وينتدبه مديرا لجامعة الإسكندرية التى ساهم بنصيب وافر فى إنشائها، ثم يصل طه حسين بعد ذلك إلى أرفع مناصب التعليم كوزير للمعارف فى حكومة الوفد الأخيرة.

ليظل أستاذ الجامعة الذى لا ينسى، والعميد الذى لا يغيب عن الذاكرة ، ووزير المعارف الذى لا نتذكر من وزراء المعارف، ثم التعليم ، سواه. كأن وزارة التعليم لم يشغلها عبر تاريخها سوى وزير واحد هو طه حسين.

نضع أنفسنا حيث تريد لنا المروءة
لا حيث تريد لنا المنفعة

ولا ينسى طه حسين أن يخص بالشكر والتحية كل الذين وقفوا إلى جانبه فى أزماته سواء داخل الجامعة من أساتذة أو طلبة، أو خارجها من الطلبة المبعوثين فى الخارج . كما لا ينسى دور الصحافة التى وقفت بجواره مشجعة مؤيدة. وبين أيدينا صفحة وبعض صفحة من أوراق طه حسين. غير مؤرخة . ولكن مضمونها يدل على أن سطورها قد تحدث بها طه حسين إلى طلبته داخل قاعة المحاضرات وربما كانت فى منزله تحية للذين أتوا لمؤازرته من طلبته أثناء أزمة أو محنة - كما أسماها - إخراجه من الجامعة كما تدل عليها تحيته إلى لطفى السيد، الذى قدم استقالته احتجاجا على ما حدث . ورغم أن طه حسين كان لا يحب التحدث فى السياسة داخل قاعات الدرس – إذا كانت كلمته قد ألقاها بالجامعة – إلا أن الحدث الذى شهد فيه طه حسين مساندة كبرى جعلته يخرج عن تقاليده بشأن إبعاد السياسة عن الجامعة، وألقى هذه الكلمة المعبرة عن سعادته بمن ساندوه حفاظا على كرامة الجامعة:

يقول طه حسين مستفتحا بأبيات من الشعر:

لقد زادنى حبا لنفسى أننى	بغيض إلى كل امرئ غير طائل
وإنى شقى باللئام ولا أرى	شقيابهم إلا كريم الشمائل
إذا ما رآنى قطع الطرف بينه	وبينى فعل العارف المتجاهل

عند هذه الأبيات من شعر الطرماح ابن حكيم، انتهى بنا الدرس صباح الخميس الثالث من هذا الشهر[*]. وقد استعدناها واستجدناها . وكأنما كنا نحس أن صباح ذلك اليوم كان

[*] ربما كانت هذه الكلمات فى ذكرى الأزمة التى عاد منها منتصرا مواكبة لنفس الشهر الذى وقعت فيه. أو كان هو يتحدث إلى من استقبلهم فى بيته من طلبته فى نفس الشهر الذى وقعت فيه المحنة.

ينذرنا بما سيحمل إلينا مساءه من تلك المحنة الجامعيــة التى ذقناها فبلونـا منهـا الحلـو والمـر، ووجدنا منها الخير والشر. وعرفنا منها أن فينا والحمد لله نفوسا أبية، وأنوفـا حميـة ، وقلوبـا تعرف كيف تستقبل الخير وتحتمل المكروه.

نعم وكأنما كنا ونحن نستعيد هذه الأبيات ونستجيدها نتواصى بالخير والصبـر، ويعـاهد بعضنا بعض على الوفاء والبر، ويقسم بعضنا لبعض لنكونن رجالا نعرف الكرامـة ونقدرهـا، ونضع أنفسنا حيث تريد لنا المروءة لا حيث تريد لنا المنفعة.

لقد افترقنا بعد الدرس هادئين باسمين نفكر فى الدرس الذى يليه ، ثم لم نلتق بعـد ذلـك فى درس ولا بحث . وإنما التقينا فى حب ومودة ، وفى نصح وتعزية وفى عواطف كلها تمـيز الكرام من اللئام.

أفيؤذن لى بأن أهدى أصدق التحية وأجمل الشـكر إلى أولئـك الذيـن تفضلـوا بـالغضب للجامعة ولنا، والعطف على الجامعة وعلينا، من أعلام هذا البلد وقادة الرأى فيه.

أفيؤذن لى أن أشرك معهم هذه الصحف الكريمة التى آذرتنا وناصرتنـا ولم تبخـل علينـا بتشجيع ولا تأييد. ثم أفيؤذن لى أن أخص الأستاذ الجليل أحمد لطفى السيد بك بتحية الابـن البار والتلميذ المخلص والصديق الحميم.

أما أنتم أيها الأصدقاء الأعزاء من طلاب الجامعة عامة، وكلية الآداب خاصة فـأذنوا لى فى أن أقول لكم ما قاله النبى صلـى ا لله عليـه وسـلم للأنصـار فـى حديـث جـرى : "إنكـم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع". فحيا ا لله هذا الثمر الكريم لهـذا الغـرس الكريـم، ولكم علىّ العهد أن أبذل ما أملك من قوة، وما أستطيع مـن جهـد لأكـون عنـد ظنكـم بـى ورأيكم فىّ.

أقبلوا على دروسكم كراما أعزاء ، وابسموا لحياتكم الجامعية ، فقـد أنشـأتموها كريمـة عزيزة، وليكن بيننـا موثـق مـن ا لله ألا نؤمـن إلا بـالحق ولا نخلـص إلا للعلـم ولا نرضـى إلا بالكرامة. وإلى اللقاء.



من محمد فريد أبو حديد رائد الرواية التاريخية

إلى طه وزير الفلاحين

الاسم ثنائي "محمد فريد" واللقب "أبو حديد" والمولد في أول يوليو ١٨٩٢ في إحدى قرى دمنهور بمحافظة البحيرة. وقيمته الأدبية مجهولة وإن كانت كبيرة ، حيث يعتبره النقاد "رائد الرواية التاريخية في مصر" وبذلك أصبحت "القصة التاريخية" على يد فريد أبو حديد "منهجا بين حقيقة التاريخ وقدرة الإبداع الفني" وذلك حسب تعبير لجنة فحص إبداعات أبو حديد لترشيحه لجائزة الدولة التي حصل عليها في الآداب".

ومن إبداعاته : إبنة المملوك ، زنوبيا ملكة تدمر. أبو الفوارس عنترة بن شداد. المهلهل بن أبي ربيعة . أنا الشعب، وغيرها. ولأبو حديد دراسات تاريخية مهمة عن: عمر مكرم ، صلاح الدين الأيوبي، علي مبارك.

وله في الشعر المرسل إنتاج وافر مثل: مقتل سيدنا عثمان، ميسون الغجرية، خسرو وشيرين.

فضلا عن بعض الترجمات.

وهو صاحب فكرة سلسلة "أولادنا" للأطفال.

وهو من مؤسسي مجلتي "الرسالة، والثقافة" في عهدهما الأول.

وعمل سكرتيرا عاما لجامعة الإسكندرية عند إنشائها، وشغل منصب وكيل وزارة التعليم، ومستشارا فنيا للوزارة ، كما عمل بالرقابة على الصحف واستبعد بسبب مقال لتوفيق الحكيم قام بتمريره رغم ما به من تعريض بالحكومة وإن صيغ في شكل أدبي. وأسهم أبو حديد في الحركة التعليمية بالمغرب، وليبيا مساهما في إنشاء جامعة طرابلس. ومن العجيب أن مشاركة محمد فريد أبو حديد في مجال التعليم بمصر والعالم العربي كانت تقوم على الحب والإخلاص في كافة المواقع التي تولاها رغم أنه دخل كلية المعلمين على غير رغبته وتخرج منها ١٩١٤ واشتغل بعدها بتدريس المواد الاجتماعية ومنها التاريخ الذي لم يكن يخرج في مادته قبل سنوات قليلة عن التاريخ الإسلامي.

وقد أراد محمد فريد أبو حديد أن يرضي حبه للقانون الذي حرم من دراسته بدخول كلية المعلمين ، فقام بإشباع رغبته في دراسة القانون وتخرج من مدرسة الحقوق ١٩٢٤ .

ولأبو حديد خبرة في التعليم أراد أن يستفيد بها المعلمون ، ومن خلاصة تجاربه[١] التي ركز

---

(١) الهلال عدد فبراير ١٩٥٦ .

فيها على أهمية دور المعلم، قال:

- السر الأعظم الذى يجعل للتربية أثرها هو مقدار ما تبلغ به من النجاح فى تحريك عقول الأبناء ومشاعرهم.
- إن المعلم هو العنصر الفعال والعنصر الجوهرى فى التربية
- إن من واجب المعلم أن يؤدى حق كل فرد من تلاميذه بمعرفته معرفة تامة والعناية به كأنه ولده.
- المعلم للتلميذ الصغير رجل عظيم، ولذلك كان على المعلم أن يكون عظيما وأن يكون له قلب كبير.
- المعلم الصالح هو الذى يعد تلاميذه أصدقاء له.

ويتذكر أبو حديد أنه حين أساء إلى أحد تلاميذه فى لحظة غضب، عاد فاعتذر لتلميذه فصار صديقا له.

وفى المقابل قام تلميذ آخر بعد ذلك موجها لأستاذه أبو حديد عبارات قاسية فتعجب لأنه لم يتعمد الإساءة إليه فقال له : أنا آسف لمسلكك وغاضب عليك ، فصمت تلاميذ الفصل جميعا. ثم قدموا له جميعا الاعتذار عن زميلهم الذى صار لأستاذه صديقا.

وعندما تولى طه حسين وزارة المعارف بدا اهتمام أبو حديد كبيرا واتسعت آماله فى تطوير التعليم، وإن أبدى بعض المخاوف مما نشرته بعض الصحف عن بعض التراجعات الخاصة بالتعليم. ولكن أبو حديد طمأن نفسه بوجود طه حسين والذى لن يسمح بمرور شئ ضد مكاسب التعليم. وأبدى بعض الملاحظات على نظم التعليم السائدة آنذاك ورغبته فى تطويرها.. فيقول فى رسالته:

هؤلاء الفلاحين

حضرة صاحب المعالى الدكتور طه حسين بك

وزير المعارف العمومية

تحية مباركة خالصة وبعد.

فإنى أكتب هذا إلى الصديق الكريم والأديب الألمعى لا إلى الوزير وحده. ولهذا كان كتابا خاصا آثرت أن أبعث به نجوى، بعد تردد طويل بين أن يكون حديثى خاصا وبين أن يكون على صفحة الثقافة. وتحاشيت آخر الأمر أن أكتب فى الصحيفة حتى لا يتطرق إلى أحد شك فى نيتى .

فما أردت إلا أن أبلغ كلمتى إليك خاصة لأطلعك على أمر إن كان فيـه خير فقد بلغت القصد وإن كان بعد أن ننظر فيه لايبدو لك صوابا، فقد أديت واجبى نحـوك ونحو التعليـم الـذى خدمته حياتى ولا أستطيع إلا أن أؤدى فيه واجبى ما حييت وإن لم أسأل عن رأيي.

أحب أيها الصديق الكريم - وأنت رجل فكر وقلب كبير أن أبين لك أن نظام التعليم القـائم إن كان ينطوى على مواضع تستوجب الإصلاح ، لم يكن وليد نزوات طائشة ولا بـدوات طارئـة. بل أحب أن أبين لك أنه لم يكن وليد رأى القائمين على أمر وزارة المعارف فى الديوان العـام كما يظن البعض.

لقد كان رأى أولى السلطة فى الوزارة منـذ سنوات - فى أول الأمر - أن يقصـروا تعليم الكافة على مرحلة قصيرة وهى مرحلة ذات أربع سنوات وكان يراد بها أن تكون المرحلة الأولى - بين السادسة والعاشرة - وكانوا يرون أن يختار من بين من يتعلمون فـى هـذه المرحلـة قـدر محدود يمضى إلى التعليم المتوسط فالثانوى فالعالى إذا أهلتهم لذلك طبيعتهم.

ورأينا نحن المعلمين - وكنت إذ ذاك رئيساً لجمعية المعلمين - أن فى هـذا رجوعـا إلى الـوراء فى تعليم الكافة . فناقشنا الرأى، واحتدم بيننا الخلاف فى المجالس الخاصـة والمجـالس الرسميـة حتى انتهى الأمر بأن تحدينا هذا الرأى فى مؤتمر عام أقيم فى سنة ١٩٤٥ . وقد درس ذلك المؤتمر كـل مسائل التعليم ، وأعد القائمون عليه تقريرا وافيا بما استقر عليه الـرأى فـى شـتى المسـائل المتصلـة بالتعليم العام.

ولم يجد الوزير إذ ذاك بدا من النظر فى الأمر علـى ضـوء مـا أُبـدى مـن الآراء، وعقـد لجانا استشارية عدة، وكانت النتيجة هذا النظام القائم .

والذى يمكن أن يعد أساسيا فى هذا النظام القائم هو ما يأتى:

أولا: وهذه أكبر مسألة نعدها نصرا كبيرا أن التعليم الأولى ، أى تعليـم المرحلـة الأولى قطع شوطا كبيراً نحو التوحيد. ذلـك بـأن اعـترف النظـام للمـدارس الأوليـة بحـق التقـدم لتلاميذهـا إلى الامتحان الذى يؤهل للمضى فى الدراسة إلى التعليم الثانوى وما بعده إذا كان التلاميـذ أهـلا فـى الاستعداد للمضى فى الدراسة النظرية . وأعطى بذلك لتلاميذ المدارس الأولية الحق فى أن يسـووا بسائر أبناء البـلاد مـن حيـث الاسـتطاعة ، وكسـبوا حـق التعليـم فـى المـدارس الثانويـة أو الفنيـة المتوسطة، وحق مواصلة الدرس إلى الجامعة إذا كانوا لتلك الدراسة أهلا بطبيعتهم . وكـانت اللغـة الأجنبية أكبر مشكلة فى هذا الأمر. فأعطى تلاميذ المدارس الأولية حق التقـدم لامتحـان الشـهادة الابتدائية بغير الإلمام باللغة الأجنبية على أن يستأنفوا دراستها فى المرحلة الثانوية.

وقد اعتبرنا هذه الخطوة نصرا عظيما للديمقراطية ولتكافؤ الفرص، ورأينا أنها قد أتاحت الفرصة للعمل على توحيد التعليم فى المرحلة الأولى توحيدا تاما فى المستقبل القريب. وكانت هزة الفرح فينا عظيمة أننا حققنا بهذا الانتصار أملا كنا نتعلق به منذ ١٩٢٤ عندما عقدنا مؤتمر التعليم الأولى الكبير أيام أن كان المغفور له الشيخ جاويش مراقبا للتعليم الأولى. فقد كنا نطمع منذ ذلك التاريخ فى توحيد المرحلة الأولى، ولكن الظروف لم تواتنا فلم نستطع الاقتراب من الأمل المرجو حتى ظفرنا بهذه الخطوة عام ١٩٤٥.

فهل هناك تفكير فى النكوص عن هذه الخطوة؟

إننى كصديق. وكمصرى وكأديب ممن يخلصون لك ويحبون لك التوفيق والخير كله، وكرجل يقدر تفكيرك حق قدره، ويهتز عندما يقرأ أدبك الناطق بالعاطفة الإنسانية الخالصة - أسأل الله أن يكون خوفى من هذه الناحية وهما بعيدا عن الحقيقة.

والذى يدعونى إلى الخشية أننى قرأت فى الصحف كثيرا من التلميح إلى فكرة العودة إلى ما يطلق عليه اسم التعليم الريفى فى القرى. وقد فُهم هذا التعليم الريفى على غير وجهه من الكثيرين، بل لقد سمعت ممن هم أعضاء فى لجان إعادة النظر فى النظم القائمة ما يدل على أنهم يحسبون الخير فى العودة إلى تعليم ريفى يقر الفلاحين فى بيئهم الريفية، ويجعلهم طائفة ليس لها من الأمل فى الحياة إلا أن يفلحوا الأرض فى قراهم ولا يخرجون منها إلى مرحلة أخرى من مراحل التعليم بحال من الأحوال. بل إنى قرأت هذا فى بعض التقارير الرسمية وناقشت فيها أصحابها. ويؤسفنى أن أقول أن هؤلاء الذين يفهمون من التعليم الريفى أنه وسيلة لقصر الفلاحين على أعمال الحقول والصناعات الريفية، لا يعرفون معنى التعليم الريفى كما هو مفهوم فى البلاد الأوربية أو الأمريكية، وهى البلاد التى بدأت إصلاح التعليم على أساس المدارس الريفية.

فالمدارس الريفية عند هؤلاء ما هى سوى مدارس من صميم التعليم العام وإن كانت تتوسل فى تعليمها وتربية أبنائها بالبيئة الريفية المحيطة بالمدارس. فهى تستخدم الحقل والمصنع الريفى للسمو بمدارك التلاميذ، ولتفتيح أذهان التلاميذ على الحقائق الطبيعية والإنسانية التى حولهم بصفتها وسائل تعليمية. ولكن تلاميذ المدارس الريفية فى تلك البلاد لا يقصرون على مرحلة دون أخرى ولا يُمَيَّزون عن سائر زملائهم فى المدن الكبرى. ولا يحجبون عن مواصلة الدرس كما يواصله زملاؤهم وبنو أوطانهم فى غير البيئة الريفية، ولهذا أعود فأقول إنى أسأل الله أيها الصديق النبيل القلب ألا تعود البلاد إلى الوراء فى عهد توليك الوزارة بل أسأله تعالى إلى أن يوفقك إلى أن تأخذ بيد أبناء الريف وهم صلب الأمة المصرية لتجذبهم إلى التيار التعليمى الأقوى وتمد بهم الذكاء المصرى والمقدرة المصرية والخلق المصرى عامة.

ثانيا: عمد النظام القائم إلى إطالة مدة التوجه إلى الدراسة الجامعية فجعلها سنتين بعد أن كانت سنة واحدة كما أنه جعل السنة الثالثة من التعليم الثانوى إرهاصا لهذا التوجيه.

ثالثا: جمع بين الذكور والإناث فى مدة التعليم الثانوى وجعلها خمس سنوات للجميع.

رابعا: جعل السنتين الأولى والثانية من التعليم الثانوى مرحلة اختبار لمواهب التلاميذ واستعدادهم.

خامسا: جعل أساسه أن السنتين الأولين من التعليم الثانوى مرحلة وسطى تتشعب بعدها الدراسة بحسب استعداد التلاميذ، فكل يتجه إلى ما يحسنه فى مستقبله.

سادسا: جعل التعليم الثانوى خاصا بمن تهيئهم طبيعتهم للدراسات النظرية التى هى الدراسات الرئيسية فى المرحلة العليا من التعليم.

سابعا: حاول النظام الجديد أن يحدد الفروق فى الأسنان بين تلاميذ المرحلة الثانوية. فإن لكل سن من الأسنان طبيعة تستوجب طبيعة خاصة فى المعالجة. وما ينبغى أن تعالج بطريقة واحدة مجموعة مكونة من طبقات متباعدة فى السن.

وقد كان فى ذهن واضعى هذا النظام أنه قد آن الأوان للعدول عن الطريقة القديمة التى تجعل مراحل التعليم محددة بعدد من سنوات الدراسة كأن تجعل التعليم الابتدائى مكونا من أربع سنوات دراسية ، والتعليم الثانوى مكون من خمس سنوات يقضيها الطلاب بحسب ما يستطيعون فى أعوام قد تبلغ ضعف السنوات الدراسية فيرسبون عاما بعد عام فى الفرقة الواحدة حتى يستطيعوا آخر الأمر النجاح فى الامتحان.

كانوا يفسرون الرغبة فى العدول عن هذا النظام إلى ما هو متبع فى البلاد الأخرى، وذلك بأن تحدد المراحل بأسنان التلاميذ فيكون التعليم فى المرحلة الأولى بين السابعة مثلا والحادية عشرة، والمرحلة الثانية بين الثانية عشرة والسابعة عشرة بغير أن يعطل التلاميذ وبغير أن يسمح لهم بالرسوب عاما بعد عام.

وقد كان هذا الأمل يتطلب لتحقيقه قلبا للنظام كله وتغييراً جوهريا فى الأساس القائم على الامتحان السنوى، فرؤى فى هذه الخطوة أن يكتفى بالتقريب بين طلاب المرحلة الثانوية الأميرية فى السن على أن يرجأ تحقيق الأمل الأكبر إلى أن تهيأ له ظروفه.

فالنظام القائم أيضا أيها الصديق الكريم لم يكن إملاء من أصحاب السلطة فى الوزارة بل كان وليد تفكير شارك فيه جمهور رجال التعليم . وكان منهم من وهب قلبه وحياته لخدمة التعليم مخلصا. فإذا كان فى هذا النظام مواضع للنقد - وهذا أمر لا يخلو منه نظام - فإنى أظن أن الخير فى أن التغيير ينبغى أن يكون بعد تحديد مواطن النقص فى إخلاص وأناة، وأن يقوم بذلك قوم قد

أشربت قلوبهم محبة المصلحة والإخلاص للتعليم وسعة الأفق والعلم بما هو بسبيله من البحث.

وإنى واثق بأن الأمور سوف تؤول إليك آخر الأمر لترى فيها رأيك . ولهذا فأنا مطمئن إلى أنها ستجد فيك صاحب الرأى الحر الثاقب، وستجد فيك الرجل الأديب المتزن الذى لا يقيم وزنا إلا لما يحقق مصلحة أبناء الأمة. والذى لا ينظر إلى عامة الشعب إلا أنهم عصب الأمة. والذى يحمل لفلاحى القرى ما يحمله من الحب لسائر أبناء مصر. بل لعله أكثر إيمانا بهؤلاء الفلاحين والعامة، ممن حملوا أمانة التعليم إلى اليوم.

ولقد كنت أيها الصديق الكريم أوثرلو استطعت أن أشافهك بهذا الحديث لولا علمى بأن وقتك يضيق عن مجالس المشافهة. فلعلك إذا خلوت ساعة قرأت هذا الكتاب وهو إلمام ببعض ما فى النفس. وإذا رأيت متفضلا أن تخصص لى ساعة أخلو فيها بك لنتحدث فى مثل هذا الأمر كان ذلك فضلا كبيراً. والسلام عليك ورحمة الله من المخلص.

محمد فريد أبو حديد
١٩٥٠/٣/٢٩

محمد كامل حسين

صاحب الكتاب الذى لم يرح صاحبه وقارئه !

قال عنه "جاك بيرك" المستشرق الفرنسى "إنه أحصى عشرة مفكرين فى العالم فكان د. محمد كامل حسين من بينهم" .

إن عالمنا وأديبنا من مواليد ٢٠ مارس ١٩٠١ بالمنوفية فى قرية "سبك الضحاك". وقد وضع أخيه الأكبر محمد الصادق حسين فى الأربعينات كتابا يـؤرخ لعلمـاء "أسـرة السـبكى" نشـره طـه حسين فى مطبوعات مجلة "الكاتب المصرى" التى كان يتولى رئاسة تحريرها.

يصف بداياته ومواقف صديقه فى الطب والأدب والحياة. السندباد : د. حسين فـوزى[1] "لم أعرفه غاضبا إلا فى ليلة من ليالينا فى صحن الجامع الأزهر الشريف إبان ثـورة ١٩، وقـد ذهبـت جماعتنا لمقاومة خطيب من خطباء الحفل يزمع إثارة الخلاف بين الوفد المصـرى والأحـزاب البـائدة" وقام كامل من قرفصائه غاضبا يحرك خيرزانة ليسـت لـه ، ويعلـن بـأن الخطيـب لا يفهـم شـيئا مما يتحرص به. وهاج القوم وأزاحوا الخطيب عن منبره.

ويضيف السندباد: نعم أذكر أول يوم لكامل بمدرسة الطب المصرية وقد خرجنا مـن محـاضرة الكيمياء للمرحوم الدكتور محمد شمس الدين. ركب كامل دراجته بعد أن رتب كتبه على حاملها الخلفى ويمم شطر منزلهم بالحلمية القديمة قبل أن ينتقلوا فيما بعد إلى حلمية الزيتون" وكـان محمـد كامل حسين هو أول مدير لجامعة عين شمس باختيار طه حسين. وهو عضو المجمع اللغوى. والمجمع العلمى. ومجمع الجراحة بباريس . والجمعية البريطانية لجراحة العظـام. وحـائز علـى جـائزة الدولـة التقديرية مرتين : لإنشائه قسم جراحة العظام فى مصر. والثانية عـن كتابـه الأشـهر :"قريـة ظالمـة" الذى ترجم لأكثر من سبع لغات . ومن الطريف أن نجيب محفوظ قد فاز بجائزة الدولة فـى الآداب "عن قصر الشوق" فى نفس السنة (١٩٥٧) التى حصل فيها محمد كامل حسين على الجائزة التـى كان من المقرر تقسيمها بينهما . ولكن تقرر منحها كاملة لكل منهمـا بصفـة اسـتثنائية. أمـا الـذى يريده محمد كامل حسين من قرية ظالمه. فهو كما يقول "قدمت المسيح الإنسـان الـذى يعمـل مـن أجل الإنسانية . كان يريد أن يضع الضمير فوق التدين . ولكن أهـل التديـن قضـوا عليـه قبـل أن

(١) أهرام ١٢ ٣ ١٩٧٧.

ينقذه أهل الضمير. كان يريد أن يرفع الإنسانية فوق الوطنية والقومية، ولكن الوطنية قضت عليه قبل أن تنقذه الإنسانية . إنه لم يؤذ أى فرد من بنى إسرائيل، ولم يكن أى فرد منهم ليؤذيه، ولكنه يؤذى إسرائيل مجتمعة. وجماعتهم هى التى انتقمت منه.

لقد كان يريد أن يرتفع الإنسان درجة عن حب الوطن كما ارتفع الإنسان من قبله درجة عن حب القبيلة ، وكما ارتفع من قبل ذلك درجة عن حب الأسرة، وكما ارتفع أيام البدائية الأولى عن حب الذات .. عن الأنانية".

ويقول عنه طه حسين إنه "كتاب لم يرح كاتبه" قد أهدى لنا فيه خلاصة حياته وصفو تجاربه، ونتيجة جهوده المتصلة التى أنفقها دارساً للطب والجراحة، معالجا للمرضى، مبتليا أخبار الناس وأسرارهم، ممتحنا ما يكون من سيرتهم أفرادا وجماعات حين يعرف بعضهم بعضا ، وحين ينكر بعضهم بعضا، وحين يمكر بعضهم ببعض، وحين يسعى بعضهم إلى بعض بالخير والمودة" .

وفى عام ١٩٦٢ نشأت بين د. محمد كامل حسين ، والعقاد معركة حول كتاب الأول "وحدة المعرفة" حين اتهمه الثانى بنقله عن كتاب آخر باسم "المكان والزمان والربوبية" للفيلسوف الإنجليزى "صمويل الكسندر"، لقد أراد محمد كامل حسين أن يقول لنا فى كتابه : إن المذهب العلمى يمكن أن يهدينا إلى الحق إذا امتد إلى ميدان الفلسفة والدين ، كما أنه يحاول أن يقدم تفسيراً علميا للقضاء والقدر، ويبحث عن الفجوات بين القوانين ، وغيرها.

وقد رد د. كامل حسين على اتهام العقاد له قائلا:

إن الأستاذ العقاد صادق الحس فى الشعر والأدب ولكنه ليس صادق الحس فى البحوث العلمية وما يقوم عليها. فرد عليه العقاد ساخراً: إن هناك تشابها تاما بين مبتكراتك ومنتحلات الصمويل قبلك، ثم تقول أنت أنه جهل بالتميز بين المذاهب والآراء، لأن هذا التميز يحتاج إلى زمن طويل ويشترط فيه البدء بالقدرة على تجبير العظام، ثم لا يكفى فيه أكثر من قراءة خمسين سنة، وأكثر من عشرين بحثا وكتابا فى مذاهب الفلاسفة والمفكرين، ثم لاغنى فيه عن طريقة واحدة من البحث هى طريقتك فى بحث دوائر المعارف ومراجع العلوم.. يا دكتور إن كنت بعدها لا تحس حاجتك إلى التميز الذى جردتنا منه فأنت أسعد خلق الله".

ويصف طه حسين قراءات د. محمد كامل حسين بانها "متنوعة أشد التنوع، فهو يقرأ فى الطب والجراحة، كما تفرض عليه صناعته، ويقرأ فى العلم والفلسفة كما يفرض عليه عقله بطبيعته، ويقرأ فى الأدب القديم والحديث، العربى والأجنبى، كما يفرض عليه مزاجه، وهو لا يقرأ بعقله وحده، ولا يقرأ بقلبه وحده، وإنما يقرأ بهما جميعا".

قصة إلى مؤنس طه حسين

وفي رسالة د. محمد كامل إلى طه حسين يهدى قصة طريفة إلى إبنه مؤنس ، يقول فيها:

٣٢ شارع جامع شركس

١٦ أغسطس ٥٤

عزيزى الدكتور

يقضى عليّ واجب الإخلاص أن أكتب إليك، ويقضى واجب الفن أن أكتب إلى مدام طه، ولما كنت لا أعلم أن الإخلاص يتقدم على الفن فى أى وقت من الأوقات فقد رأيت أن أكتب إليها أولا، ثم غلبت عليّ الرغبة أن أُغلب الإخلاص على الفن فلم أستطع، ثم خطر لى أن هذا التغليب سيعطينى فرصة كبرى للتفوق الفنى حين يحين وقت الاعتذار إليها، وعند ذلك يظهر نبوغى، وعلى ذلك سأبدأ بالكتابة إليك.

وأنا أفهم تماما فرح الأجداد بأحفادهم ، ولم أكن أعلم أن أمينة ستلقاكم فى أوربا ، وأنا أخشى عليها "التأمرك" وأرحب بعودتها إلى الدنيا القديمة لتبرأ من أدواء المدينة الأمريكية التى لم أستطع لها فهما حتى الآن، وأكون سعيدا لو أبلغتها وزوجها خالص تحياتى.

قضيت هذا الصيف أو أنا أقضيه فى القاهرة بين الحر والرطوبة ، ولم أعد أشعر بكثير من الضيق من هذا الذى أعانيه من الجو. وقد خلت القاهرة من كل من أحب وليس لى عمل إلا أن أقضى الصباح فى المنزل وأذهب إلى عملى مساء، وأصبحت لا أجد فى ذلك بأسا.

وأدهشنى صدق حدسك – وإن كان ذلك غير غريب منك – فإنى أقرأ فى تاريخ الفلسفة وفلسفة التاريخ ، وبدا لى أن هناك عهودا يكون خير شئ فيها أن ينصرف الإنسان عن ما يشغل الناس جميعا ويتفرغ إلى ما لا يعنى به أحد ومالا فائدة فيه، على ما قد يتعرض له الإنسان من نقد الناقدين الذين يرون جبنا وخور عزيمة أن لايدلى الإنسان بدلوه وأن لا يحس بالحياة حوله إحساسا يجعله يتعرض لأخطارها ولذة الكفاح فيها. على أنى قد أكون كافحت كفاحا يتفق وما فى نفسى من قوة أو ضعف، وأرانى كالذى يصعد فى الجبل يجد نفسه وقد خف الهواء حوله حتى أصبح أقل جهد يرهقه ويقطع أنفاسه . ولعل ذلك لا يدعوك إلى سوء الظن بى حين ترى عظم كفاحك وقلة جهدى.

وأرجو أن تكون مدام طه فى أحسن صحة وعافية وأن تظل بعيدة عن جونا هذا إلى

أقصى وقت ممكن، ولعل المطر لم يغمر إيطاليا كما غمر غيرها من البلاد، ولعلك تخبرهـا عـن مقالة قرأتها عن فيضان الدانوب جاء فيها أن الأميركان أرسلوا هليكوبترات وأكياس ورمـل وجرارات لمساعدة الأهالى وتم ذلك كله، ولكن الطائرات كانت تعمل فى مكان، والأكياس توجد فى مكان آخر، والرمل فى مكان ثالث، والجرارات فى مكان رابـع، وكـان الطيـارون يلقون أكياسا فارغة ، وأصحاب الرمل ينتظرونها فى مكان آخر، والجرارات تنتظر أن تنقـل شيئا إلى المطارات ، أما الإنجليز فأرسلوا خبيراً لمقاومة المد وفيضانه، وصل بعد انتهاء الفيضان بيومين . والفرنسيون أرسلوا اثنى عشر مهندسا، أبلغهم أهل المدن المصابة أنهم فى حاجة إلى كل شئ إلا المهندسين !

وأنا أعلم أن هذا الوصف يلذ لمؤنس لأنه يعطيه فرصة للتشنيع لا شك أنه يرحـب بهـا ولعله يوافينى بأمثال هذه الوقائع.

أما فريد فأبلغه سلامى ورجائى أن يختار للخطابات ورقا أقل شفوفا فإن قراءة الخطـاب احتاجت إلى حيلة خاصة.

وأتمنى لكم جميعا وقتا سعيدا ولك خاصة راحة البال وإنتاجا كالذى عهدناه.

المخلص

محمد كامل حسين

إحسان عبد القدوس.. أمام النيابة

إحسان محمد عبد القدوس(*) هو ابن الشيخ أحمد رضوان من علماء الأزهر، وجده الذى يعمل بالمحاكم الشرعية هو الذى أشرف على ترتيبه حتى دخوله الجامعة، حيث أنه عندما وعى الدنيا كان أباه قد انفصل عن أمه، وفى ظل رجل الدين عاش إحسان إلى أن مات جده، فانتقل إلى الإقامة مع عمته حتى بلغ الثامنة عشرة، وعندما دخل الجامعة عاش مع أمه روز اليوسف، التى كانت تدربه للإشراف على المجلة التىاشتهرت باسمها، وبرزت موهبته ككاتب قصة واستطاع أن يكون لنفسه اسما منفصلا عن والدته الشهيرة، ووالده محمد عبد القدوس الكاتب والممثل المسرحى، وقد لعبت المرأة دورا هاما فى حياته وفى قصصه، منذ طفولته حيث أن اسمه المؤنث (إحسان) قد سبب له أول عقدة فى حياته حيث يطارده الأطفال ويعايرونه بالبنوته، يقول "كنت أعود إلى المنزل باكيا وألقى اللوم على أمى وأبى لأنهما سميانى إحسان.. ولكن هذا فجر بداخلى قوة دافعة جعلتنى أثبت دائما أننى رجل".

بل إن إحسان على الجانب الآخر راح يثبت فى قصصه أن المرأة كالرجل لا حدود ولا تقاليد فيقول "أطلقت المرأة كما أُطلق أى رجل فى الحياة، وهذا أعطانى القدرة على أن أعبر عن حقيقة مشاعرها، ولم يغب عن بالى ، وأنا أخوض هذه التجربة أننى سأواجه بكثير من الصياح والضجيج وقذف الطوب.

رأى الحكومة إيه

وفى رسالته إلى طه حسين يحكى إحدى أزماته الكبرى مع إحدى قصصه والتى أثارت ضجة وصلت إلى مجلس الأمة، وكاد إحسان أن يحقق معه فى نيابة الآداب بسببها. فيقول:

أستاذى الكبير الدكتور طه حسين

تحية حب كبير واقتناع بك

قرأت فى روز اليوسف كلمة عتاب وجهتها لى لأنى لا أرسل لك كتبى.. وهو عتاب

(*) مواليد ٣١ ديسمبر ١٩١٩ بكفر مأمونة مركز شبرا اليمن زفتى محافظة الغربية.

شرفنى وأفرحنى.. والواقع أنه لم يصدر لى كتاب جديد منذ أكثر من عامين .. وقصتى الأخيرة التى تحمل اسم "أنف وثلاث عيون" رفضت الدولة التصريح بنشرها فى كتاب إلا بعد أن أحذف منها وأعدل فيها، ورفضت أنا الحذف والتعديل، وبالتالى لم ينشر الكتاب.. ولكن ليست هذه هى المشكلة.. مشكلتى الحقيقية أننى منذ عامين وقد فقدت ثقتى فى نفسى إلى حد أنى لم أعد مقتنعا بأن لى إنتاجا أدبيا يستحق أن يقرأه أستاذى الكبير طه حسين.. ووجدت نفسى صريع أزمة نفسية قاسية أبعدتنى عن كل الناس ، وكل مراكز الحركة، وكل من أحبهم.. واكتشفت فى نفسى أنى إنسان ضعيف.. غاية الضعف، بل اقتنعت أنى كنت دائما ومنذ أن ولدت، هذا الإنسان الضعيف.. أحمل ضعفى فى داخلى، وأحاول أن أخفيه تحت ستار من العناد الكاذب ، والغرور المفتعل.. ولم أكن طول عمرى أستطيع أن أهرب من هذا الإحساس بالضعف، إلا عندما أمسك بقلمى وأكتب.. وقد كنت دائما أتحمل معاناة هائلة حتى أستطيع أن أهرب من ضعفى وأكتب.. ولكن فى السنتين الأخيرتين أصبحت هذه المعاناة أكبر من أن تحتمل .. وأكبر من أن أتغلب عليها.. فاستسلمت لضعفى، ولم أكتب خلال هذه الفترة سوى عدد قليل من القصص القصيرة.

لماذا؟

ماذا حدث لى؟

ربما كانت هذه الحملة المجهولة الظالمة التى وجهت ضدى وأنا أنشر قصة "أنف وثلاث عيون" مسلسلة فى مجلة روز اليوسف.. ولم تكن حملة أدبية، ولم يقم بها أدباء ، ولا حتى أنصاف أدباء ، إنما قام بها بعض كتاب الصحف المشوهين، فى وقت كانت حالة الصحافة تبيح فيه لمثل هذه الأقلام أن تكتب فيه ما تشاء.. وكانت الحملة - كما هى العادة - تقوم على إتهامى بالإثارة الجنسية.. واحترت ماذا أفعل إزاءها فالذين يكتبون ليسوا من الشخصيات المحترمة الذين يستحقون الرد عليهم.. وما يكتبونه ليس مناقشة موضوعية تستحق أن أشترك فيها. إنما هى حملة موجهة إلى شخصى.. فلم أجد إلا أن اسكت .. ولكن هذا السكوت أطمع فىّ صغار الكتاب ، فاشتدت الحملة.. ثم أحاطتها ظروف كثيرة انتهت بأن قدم أحد أعضاء مجلس الأمة سؤالا عن القصة إلى الوزير المختص.. ولم يكن حضرة النائب أديبا بل إنه اعترف لى بأنه لم يقرأ القصة أصلا، ولكن قدمت له بعض فقرات منها.. إنه نائب كان يسعى لنشر اسمه فى الصحف.. فقط.

وفى هذا الوقت ذهبت إلى الأستاذ توفيق الحكيم وهو مجتمعا بأعضاء لجنة القصة التابعة للمجلس الأعلى للفنون والآداب ، وعرضت عليه الموضوع كله.. وقلت له : إن

القضية قضية أدبية، وأن لجنة القصة هى صاحبة الحق فى أن تبدى رأيها فى هذا الاتجاه الأدبى، فإذا وجدت أنه اتجاه ليس من الأدب فى شئ، أو أن نشره يعارض المصلحة العامة، توقفت عن السير فيه ، رغم إيمانى به.. لأن الرأى هنا سيكون رأى لجنة من المختصين .. ثم إنى لا أكتب فى هذا الاتجاه فحسب، ولكن معظم قصصى بعيدة كل البعد عن هذا الاتجاه، ورغم هذا فلو كان هذا الاتجاه صالحا للنشر فإن من حقى أن أسير فيه.. و.. و..

تكلمت كثيراً.. وتفضل أعضاء اللجنة والأستاذ توفيق الحكيم ، وأيدوا هذا الاتجاه، بل وهنأونى عليه فى حماس كبير.. فطلبت منهم أن يسجلوا رأيهم هذا فى محضر الجلسة، لا للنشر فى الصحف ، ولكن فقط لألجأ إليه فى حالة تقديمى للمحاكمة إذا حدث وقدمت. وهنا تراجع الأستاذ توفيق الحكيم، وفهمت منه أنه لا يستطيع أن يسجل هذا الرأى الأدبى المحض، إلا بعد استشارة الأستاذ يوسف السباعى.. وكان يقصد استشارة الحكومة وخرجت من اجتماع اللجنة.. لست غاضبا، ولكن يائسا.. وأرسلت خطابا إلى الأستاذ توفيق الحكيم أعتذر له عن التجائى للجنة.

ولعل سيادتك تذكر أن مثل هذه الضجة أثيرت عندما كتبت قصة "لا أنام"، والتجأت يومها إليك عندما كنت مجتمعا بأعضاء نادى القصة ، وتفضلت أيامها وأيدت موقفى وشجعتنى عليه.. وكان التأييد الأدبى أيامها يكفى، ولكن فى هذه الحملة الأخيرة لم يكن التأييد الأدبى يكفى، لأن الحملة خرجت عن النشر فى الصحف إلى العرض فى ساحة مجلس الأمة.

ثم..

حدثت فى وسط هذه الأزمة، أن أعفيت من منصب رئيس مجلس إدارة مؤسسة روز اليوسف ، ورغم أن السيد الرئيس أرسل إلىّ متفضلا ، من يقول لى إن إعفائى ليس متعلقا بشخصى ولا يمس ثقته بى ، إنما هو متعلق بظروف بعيدة عنه كل البعد، إلا أننى ظللت مقتنعا بأن موقفى من الاتجاهات الأدبية كان له دخل فى إعفائى .. ولم يكن إعفائى فى حد ذاته يهمنى، فقد كنت أسعى منذ وقت طويل لإعفاء نفسى من كل المسئوليات الإدارية، ولكن كان كل ما يهمنى هو ألا يكون لإنتاجى الأدبى دخل فى هذا الإعفاء.

ثم..

تطوع بعض الناس اندفاعا وراء شهوة الظهور على صفحات الصحف ، إلى تقديم بلاغ ضدى فى النيابة للتحقيق فى القصة التى كتبتها.. وحققت معى النيابة فعلا.

ثم..

أحيل التحقيق إلى نيابة الآداب.. وهنا لم أعقل.. لم أعقل أن يحاسب أديب في عصرنا هذا أمام نيابة الآداب، كالعاهرات، وكالقوادين.. واتصلت بالأستاذ يوسف السباعي، وقلت له: أني لو ذهبت إلى نيابة الآداب، فسيذهب بعدى كل الأدباء.. وتفضل يوسف واتصل برئاسة الجمهورية التى أمرت في الحال بوقف تحويل القضية إلى نيابة الآداب، ثم حفظتها النيابة العامة.

كل هذا دون أن تناقش القضية مناقشة موضوعية من أساسها. لم تناقش الاتجاهات الأدبية.

ولا حرية الأديب.

ولا حق الأديب في التعبير عن الإنسان داخل مجتمعه

لا مناقشة إطلاقا .

وأحسست بنفسي وحيدا.. وحيدا.. بعيدا.. بعيد عن الحياة كلها.. وشعرت ببرودة شديدة تسرى في عروقي.. برودة كأنها وخز الإبر.. وأرتعش وأنكمش على نفسي أبحث عن الدفء في داخلي .. ولكن البرودة في نفسي كانت أشد.

ولعلك يا أستاذى الكبير تذكر أني في آخر مرة زرتك فيها بصحبة أعضاء جمعية الأدباء، أني ملت على أذنك ، وقلت لك إنى في حاجة إليك، فإنى أجتاز حالة نفسية تدفعنى إلى الاستجارة بك.. وتفضلت سيادتك بأن وعدتنى بأن تحدد لى موعدا عندما أتصل بك تليفونيا.

ولم أتصل بك .. عدت إلى نفسي فأحسست أني تافه.. تافه إلى حد لا أستحق أن آخذ من وقتك شيئا.

أســــتاذى

أخشى أن تظن أني أخضر العود. أشكو كل هذه الشكوى من حملة أثيرت عليّ، في الوقت الذى تعرضت فيه أنت إلى حملات ربما كانت أشد وأقسى.. لا يا أستاذى.. لقد تعرضت أنا من قبل لحملات أشد، منذ بدأت أكتب في الصحف، وأنا أتحمل أكبر نصيب من الحملات الضارة.. حملات سياسية، وحملات أدبية.. ولكن كل هذه الحملات لم تكن تؤثر فيّ مثلما أثرت الحملة الأخيرة.. ذلك لأني لم أشعر أبداً – خصوصا قبل الثورة – بأني أقف وحدى، كان الناس ينقسمون إزاء كل حملة.. ناس يقفون معى، وناس يقفون ضدى..

وكان الناس الذين يقفون معى يكفوننى لشد أزرى على الناس الذين يقفون ضدى.. ولكن.. الدنيا تغيرت .. الناس الآن.. أقصد الذين يتكلمون بصوت عال، لا يقولون رأيهم، ولكنهم يسألون عن رأى الحكومة ، ولا يحددون موقفهم من القضايا العامة أو الخاصة، ولكنهم يبحثون عن موقف الحكومة، فإذا لم يكن للحكومة رأى ولا موقف، أصبح لا رأى لهم ولا موقف.

وهذا هو ما أشاع اليأس فى نفسى. هذا هو ما جعلنى أشعر بالوحدة، والبرودة، والإنطواء.. ولا أريد أن أقول القرف. وبعد يا أستاذى.

إنى اليوم أحس بقوتك وفضلك ، أكثر مما أحسست بهما فى أى يوم مضى، فقد احتملت أنت.. أما أنا..

وتسألنى ماذا أريد؟

لاشئ..

لاشئ إطلاقا..

إنى فقط أعتذر لك عن عدم إرسال كتبى إليك.

وأشكرك لأنك أتحت لى فرصة للتفريج عن نفسى ، وأشكرك مرة ثانية لأنى بالأمس فقط قرأت – ربما للمرة العاشرة – أحلام شهر زاد.. وربما كانت قراءتى لها هى التى دفعتنى إلى الإطالة عليك، عشت لنا طويلا.

مع كل حبى واقتناعى ، وأطيب تمنياتى،

المخلص

إحسان عبد القدوس

١٩٦٦/٣/٤



من أمين يوسف غراب موباسان الشرق
إلى أبى طه حسين

حين قررت الدولة أول جائزة للقصة، فاز بها أمين يوسف غراب عن قصته "أشياء لا تشترى" وكان أول من نشر له، محمد التابعى بآخر ساعة، وأول من بشر به طه حسين حين قال عنه:

> إن أمين يوسف غراب لا يقل براعة ومقدرة فى ميدان القصة العربية الحديثة عن زميله الأديب الفرنسى جى دى موباسان". رغم أنه ليست له ثقافته ولا تعليمه. وحين يقدم طه حسين بعض مجموعاته القصصية يقول عنه[1] "لم يتخرج فى الجامعة ولا فى الأزهر، ولم يختلف إلى المدارس ولم يجلس إلى الأساتذة والمؤدبين، وإنما علم نفسه فأحسن تعليمها، وأخذها بفنون من العنف حتى انقادت له ، فأحسنت الانقياد، وقرأت على ما أرادها على أن تقرأه فعرفت كيف تقرأ وكيف تفهم وكيف تسيغ ما تقرؤه وما تفهمه ، وكيف تتمثله ثم ترده بعد ذلك أدباً طريفا، فيه كثير من روعة، وفيه كثير من جمال، لأنها أضافت إليه من خلاصة طبعها ما أسبغ عليه سذاجة حلوة، وأجرى فيه روحا مصرياً عذبا".

لقد استطاع أمين يوسف غراب[*] ابن عمدة شرنوب بمحافظة البحيرة أن يحول محنته إلى استفادة عظمى. لقد اعتمد أمين على ثراء والده فلم يتعلم حتى ذهب الثراء ولم يعد لأسرته حول ولا قوة، فعمل أمين بأرشيف مكتبة البلدية، ولم يستطع أن يتعلم القراءة والكتابة إلا فى الخامسة عشرة من عمره. ولما غضب عليه رئيسه نقله للعمل بمكتبة البلدية بدمنهور ، وهنا تلعب الأقدار دورها ، ينكب أمين على الكتب يقرأ ويلتهم ما يقرؤه ويفرزه على الورق، لا شئ يوقفه، إنه يحول النقمة إلى نعمة ، ويكتشف فى نفسه موهبة الكتابة ليكون فى مقدمة الصفوف بين الأدباء من كاتبى القصة ، ومن أشهر قصصه : شباب امرأة، ومن رواياته: الأبواب المغلقة، ومن مسرحياته: ست البنات. وهو متهم كزميله إحسان عبد القدوس بسيطرة الجنس على أدبه.

يعتبر طه حسين أباه الروحى ، وإذا صافحه انحنى يقبل يده.

---

(١) أهرام ١٩٥٢/١١/٢٩.

(*) مواليد ٣١ مارس ١٩١٢.

إنه يقول عنه "أنا أدين لطه حسين بكل كلمة أكتبها" وفى رسائله المفعمة بالحب والاعتراف بالفضل تجد أمين يوسف غراب يعتبر نفسه ابنا لطه حسين، ويعتبر طه حسين أباه ، ومعلمه الأول.

فى رسالته التالية يحكى قصة ولادة هذه الأبوة التى شعر بها، كما يحكى كيف استطاع طه حسين أن يغير نظرته المنكرة للإمام على رضى الله عنه.

قصتى مع الأبوة

أبى العزيز

ياخلاص أقول لك لم يدر بخلدى يوما، أننى سأتشرف بالكتابة إليك، لأننى ما تعودت أبدا أن أكتب إلى رجل لا أعرفه حتى ولو كان هذا الرجل هو "طه حسين" وهذه عادة لا أدرى أصالحة هى أم غير صالحة، ولكن الذى أدريه هو أننى فلاح نشأت فى بيت أضاع كل ما كانت تمتلئ به حجراته العديدة من متاع، فى سبيل ما يسمونه العزة والكرامة والأنفة، وما إلى ذلك من مسميات ومشتقات ، حتى ضاع كل شئ. ضاع البيت وضاعت حجراته أيضا، ولم يبق إلا هذه السلعة التى كلما ذكرتها سألت نفسى أيهما الذى ربح: المتاع الذى أضعناه ، أم الوهم الذى اشتريناه.

لهذا أيها الوالد العزيز لم أتشرف بالكتابة إليك من قبل ، رغم ما كان بيننا على البعد، ورغم ما أسديته إلىّ من حسنات وأى حسنات.

أما الآن وقد أسعدنى الحظ وتشرفت بالمثول بين يديك . فها أنذا أتشرف أيضا بالكتابة إلى شخصكم الكريم . وكل الذى أرجوه أن تصدقنى إذا قلت لك أننى أحببتك. وأنا لم أحبك لأنك طه حسين وحسب ، ولم أحبك لأنك المعلم الأول الذى علمتنى ما لم أكن أعلم ، والذى لولاه كما قلت لك يوما، لظللت كما نشأت لا أعرف كيف أرسم اسمى على الورق. وأنا أيضا لم أحبك يوم أن أظلنى عطفك الذى أستشعره قلبى وكان فى حاجة إليه.. لا ولم أحبك كذلك لأنك تفضلت وكتبت عنى ما كتبت فخلقتنى بما كتبت خلقاً جديدا – كما قلت لك يومها – وأسديت إلىّ بهذا الذى كتبت الكثير والكثير جدا من الأفضال ، منها ما هو أدبى ومنها ما هو مادى، ومنها ما حدثتك عنبعضه ، ومنها ما سوف أحدثك عن بعضه الآخر إن شاء الله، وكذلك أنا لم أحبك لأن إحساسك المرهف وعطفك الجميل وكرمك الزائد ، كل ذلك أحس بما كان يعتمل فى قلبى من أمانى هى عند الأديب غاية ما

يصبوا إليه ، فحققتها لى وحققها عن طيب خاطر يـوم أن تنـازلت ورضيـت أن تتـوج أدبى بمقدمة تتفضل بها على كتاب من كتبى .. لا . لا لم أحبك لشئ من هذا كله . وإنما أحببتـك لما هو أثمن عندى من هذا كله ، وأسمى من هذا كله ، وأعز علـى الإنسـان مـن هـذا كلـه .. أحببتك للأبوة الصادقة التى وجدتها فيك ، وكنت أبحث عنهـا مـن يـوم أن افتقدتهـا. أجـل أحببتك لأنك أبى ، وبإخلاص أقول لك – أبى – وبـإخلاص أيضـا أقـص عليـك قصـة هـذه الأبوة الكريمة.

فقد أحسستها أول الأمر فلم أصدقها وأنكرتها، ثم أحسست بها ثانية فأنكرتها أيضـا، ومعذرة فى ذلك ، فما كنت أعرف أن السماء تعود فتعطى الـذى أخذتـه ، ثـم عـدت مـرة أخرى وأحسست بها، ففكرت فيها وتدبرتها ، ثم إذا بى ذات ليلـة أستشـعرها كمـا كنـت استشعرها من قبل صادقة نقية طاهرة فياضة بالعطف زاخرة بالحنان مليئة بالحب، فلم أنكرها ولم أتدبرها ، وإنما خررت لها ساجدا سجدة الإيمان.

الإيمان العذب الحلو الذى لا يتذوق حلاوته ولا عذوبته إلا كل من أمن بما آمن. ويعلم الله كيف أسعدنى هذا الإيمان وكيف أراح قلبى ليلتئذ .. ليلة لم أنم فيها من ثقـل الفرحـة . ومعذرة إذا قلت ثقل الفرحة فكم تحمل الفرحة صاحبها أحيانا ما لم يحتمل أو يكن يظـن أنـه يحتمل.

وهل يحتمل الإنسان أن يعيش ليلة فى السماء، بينما جسمه فى الأرض. كان ذلك أيها الوالد العزيز ليلة أن شرفت دار الأوبرا لمشاهدة "ست البنات" أحسست هذا وأنا أجلس إلى جوارك، وأنا أتطلع إلى جمهور النظارة ، وكلما أراد أن يستمع استمتع بمشاهدتك أنـت. أمـا أنا فكنت أجلس معك بجسمى فقط، أما ما أودعه الله هذا الجسـم مـن عواطـف وأحاسـيس وعقل وقلب، أما كل ذلك فكان عند الله يشكر له هذا الصنيع الذى لا يقدره إلا هو. فهـو وحده الذى علم كم تضرعت إلى السماء ذات ليلة لكى لا تحرمنى أبى. فقـد كنـت أتصـور كل شئ إلا أن أحرم من ذلك الأب. ولذلك لما لم تسـتجب السـماء إلى دعـائى ثـرت عليهـا ثورة عنيفة واتهمتها بالعقوق والجور والقسوة والظلم الذى تنهانا عنه فى الأرض.

وما كنت أدرى وأنا كذلك أنها إنما تنفـذ مشـيئتها فقـط وأنهـا تدخـر لى نفـس الأب، ليعطف علىّ نفس العطف، ويحبنى نفس الحب، ويرعانى نفس الرعاية.

وعندما أيقنت ذلك كان لزاما علىّ أن أشكر الله من قلبى . فلم أجد غير يدك الكريمـة أقبلها وأمسح عليها بشفتى، ولعلك تذكر أنهـا كـانت أول مـرة قبلـت فيهـا يـدك الكريمـة، ولعلنى أذكر ويذكر الله معى أنها كانت أول يد أقبلها بعد عشر سـنين وسـتة أشـهر ، وهـو

تاريخ ما كان لى أن أنساه، ولن أنساه.

لست أدرى أيها الوالد العزيز لماذا أقص عليك هذا كله؟ إنك ولاشك تعرفه أكثر منى لأنك أنت الذى أعطيتنيه. بل ولست أدرى لماذا أكتب هذه الرسالة وليس هناك ما يدعو إليها؟

أغلب الظن أننى أكتبها بسبب الوحشة التى استشعرتها بعد سفرك. بل التى أحسستها عندما علمت نبأ سفرك المفاجئ وكنت لا أعلم به، والتى تحققت منها عندما تشرفت بالذهاب إليك لأقبل يدك مودعا ليلة السفر.

لقد ظللت طيلة الجلسة أفكر كيف ستغيب عنا ثلاثة أشهر كاملة؟

وكنت كلما طال بى الوقت أو امتلأت الحجرة بالزائرين وأحاول أن أنصرف، إما أن يستبد بى هذا الفكر فأجلس، وإما أن يستبقينى الأخ الكريم فريد، فأشعر بالغبطة والسرور لأنه بذلك يحقق لى ما أريد وهو أن أجلس فى حضرتك أكبر وقت ممكن، وصدقنى لولا أنك صرفتنا لبقيت فى حضرتك إلى ما شاء الله.

وعندما ذهبت إلى دارى بعد منتصف الليل أحسست برغبة صادقة فى أن أجلس إليك بقية الليل فجلست إليك مع "على" وصدقنى إذا قلت إننى جلست إلى "على" متأدبا جداً فى آخر الليل، كما كنت أجلس إليك متأدبا جدا فى أول الليل. وأخذت أقرأ، ولعل ما قرأته كان من الأسباب التىدفعتنى للكتابة إليك، وقبل أن أحدثك عن بعض تلك الأسباب أعترف لك أننى لم أقرأ كثيرا فى تاريخنا الإسلامى، فأنا أضيق بالكتب القديمة وما تمتلئ به من حوقلة وبسملة وعنعنة أيضا، وما كتبه المحدثون فلم يقع فى يدى منه شئ يذكر اللهم إلا ما كتبه العقاد وأحمد أمين، وبينى وبين الاثنين من الاستلطاف ما لا يشجعنى على أن أقرأ لأحدهما.

فالعقاد قد أبى الله تعالت قدرته إلا أن يجعل أدبه كإسمه عقد وتعقيد، فأنا لا أفهمه مهما حاولت أن أفهمه، ويعلم الله كم حاولت أن أفهمه وحملت نفسى ما لا تطيق لكى تفهمه، ولكنها والله لم تفهمه. لذلك أشفقت على نفسى منه، فلم أقرأ له شيئا، وأرجو الله تعالى أن لا أقرأ له شيئا.

أما أحمد أمين فمثله فى كتبه كمثل ضارب الطوب - كما قلت له يوما عندما أنشأ الثقافة - يصنع الآلاف ولكن كلها طين. لهذا أنا لم أقرأ فى السيرة غير بعض الكتب اليسيرة جداً، ثم عثمان، ثم قرأت "على". ومعذرة إذا قلت إننى عندما أقبلت على ،"على" أقبلت

عليه إقبال المكره لا البطل، لأن فكرتي عن "علي" كانت تختلف الاختلاف كله عن الحقيقة التي جلوتها لنا.

فقد عشت زمنا أكره هذا الرجل وأتهمه بالقسوة والظلم والأنانية وحب الذات ، فلولا ولاية "علي"، وتشبث "علي" بهذه الولاية لما وقع للمسلمين ما وقع عندما ولي "علي"، ولما حدثت الفرقة بينهم بسبب هذه الولاية ، ولما لاقت أم المؤمنين وهي زوجة رسول الله ما لاقت، بسبب هذه الولاية ، ولولا ولاية "علي" ما قتل ما قتل من المسلمين ما قتل وكانوا أعوان رسول الله، ولولا ولاية "علي" ما قتل من المؤمنين ما قتل وكانوا يدعون إلى كتاب الله ، ولولا ولايته لما كان ذلك اليوم الذي رآه المسلمون ، فلم يروا مثله – شناعة ولا بشاعة ولا نكرا – أجل عشت زمنا أكره هذا الرجل وأتهمه بالظلم والقسوة وغلظة القلب، وبانه أذاق عائشة من القسوة ما لم تذق امرأة غيرها من قبل ، وعائشة قبل أن تكون زوج رسول الله وقبل أن تكون أم المؤمنين فهي امرأة، ومع ذلك – قالوا لي – إن عليا عقر جملها وراش عضدها، ثم ذهب هو بنفسه وضرب هو وجهها برمحه. ثم لم يكفه ذلك فينتهك عليها حرمتها، ثم لم يشف غليله ذلك فيذهب إليها في دار عبد الله بن خلف التي امتلأت حجراتها بجثث قتلاه ، لا ليعتذر لها عما فعل ، وإنما ليتندر بما فعل..

لهذا كنت أكره هذا الرجل وكنت أقول عنه كما قالت صفية بنت الحارث: يا قاتل الأحبة ويا مفرق الجماعة، أيتم الله بنيك منك ، كما أيتمت بني عبد الله"

هذا ما كنت أعرفه عن "علي" قبل أن أقرأ "علي" أما الآن وقد قرأته، أما الآن وقد فهمته ، فإني أشعر بكثير من الألم على ما تورطت فيه حينا من ظن آثم، فلقد أقنعتني حقيقة بأني كنت على خطأين ، وبأني كنت على جهل كبير . وهذه ميزة ميزك الله بها دون أهل الأرض جميعا وهي إخراج الناس من الظلمات إلى النور، كما أخرجتني من الظلام الذي كنت أعيش فيه إلى هذا النور الذي أصبحت أعيش فيه. إنك بهذا الكتاب قد أنصفت عليا، وهذه حقيقة لاشك فيها، وما كان لغيرك أن ينصفه، صدقني إذا قلت لك ذلك ، وصدقني أيضا إذا قلت : إن الله تعالى له اليد الطولى على هذا الكتاب ، وأنت تمليه لأنه هو الآخر أراد أن ينصف عليا فلم يجد غيرك يعطيه هذا الحق الذي كان التاريخ نفسه أوشك أن يحرمه منه، كما حرمه بعض الجهلاء الذين كتبوا عنه من قبل ، وكما حرمه أيضا بعض الجهلاء الذين قرأوا عنه من قبل فتورطوا في الجهل الذي تورطت فيه يوما..

لذلك أقول إن الله كانت له اليد الطولى على هذا الكتاب الذي جاء في حقيقته أكبر من أن يمليه إنسان ، وأكبر أيضا من أن يقدر عليه إنسان ، لهذا فأنا أشكر الله وأضرع إليه

أن يحفظ ذاتك الكريمة ، وأن يعيدك إلينا على خير ما ترجوه الأبناء للآباء . كما أضرع إليه أيضا أن يظلنى رضاك دائما، وأن تكلأنى رعايتك دائما، وأن يتيح لى من عطفك ورضاك ما أنا فى حاجة إليه.

ابنك البار

أمين يوسف غراب

٥٣/٧/٢٨

أسرار فى قلب إحسان عبد القدوس

وفى رسالة أخرى يتحدث أمين يوسف غراب عن أمنياته التى لا تتحقق، وانفراد عقد الأدباء بغير وجود طه حسين وركود سوق التوزيع لبعض الأدباء الكبار، فيقول :

ابى العزيز

تلقيت بفرحة كبيرة كتابكم الكريم ، وكم تمنيت أن أكون من الذين وهبهم الله القدرة على تصوير ما يعتمل فى النفس والقلب من أحاسيس ونزعات ، إذن لحدثتكم عن أشياء كثيرة تسركم. فإنى لا أعرف شيئا يسر النفس الكريمة ، ويرضى القلب الكبير ، مثلما يسرها ويرضيه العمل على ما فيه الخير والأمن والاطمئنان للناس ، ولذلك لا يسعنى إلا أن أضرع إلى الله أن يجزيكم عن هذه الحسنة حسنات، وعن هذه المكرمة الخير والمثوبة.

غير أن الذى أريد أن أؤكده، هو أننى لم أخطئ فى الحكم، ولم أخطئ أيضا فى التقدير، لأننى لم أحكم ولم أقدر . وإنما أنا رجل كانت حياته أشبه ما تكون بالساعة المعطلة دائما - فمرت عليها لحظة كانت فيها أضبط ساعات العالم، وهذه رحمة من الله يتصدق بها أحيانا على الذين لا حول لهم ولا قوة.

تمنيت لى أيها الوالد العزيز أن يتاح لى فى يوم من الأيام أن أعبر البحر، وأطوف بتلك البلاد الأوربية، وأن أعيش حينا بين السهل والجبل، وحينا بين البحر والبحيرة، وأن أرى من ألوان الحضارة ما يشوق ويروق، وهذه أمنية طيبة لا تصدر إلا عن قلب كبير، ومع ذلك وقفت عندها طويلا. فأنا أسرف فى كل شئ إلا فى الأمانى. ولذلك ما تمنيت يوما أكثر من أن أقطع الصحراء إلى مرسى مطروح صيفا، أو أقطع الطريق إلى أسوان شتاء. ومع ذلك مر صيف وصيف ، وأعقبه شتاء وشتاء ، وسيمر صيف وصيف، وسيعقبه شتاء وشتاء، ولن يحقق هذه الأمنية العزيزة، أقصد واحدة منها، وكيف تتحقق أمنية صغرت أو كبرت، وقد

قـدر لنـا أن لا نظفـر حتـى بـالخبز إلا عـن طريـق ذلـك العـرق الأسـود - الـذى نسـود بــه الصفحات، فيسود علينا حياتنا أحيانا.

أقول ذلك بمناسبة قصة نشرت لى من أيام فى "آخر ساعة" فرأيت - وكـان هـذا سـوء حظ - أن أقرأها بعد نشرها ، وإذا بى من شدة ما لاقيت من خيبة أضحـك دون مـا سـبب، ولعل هذا هو البكاء ، أو هو شر أنواع البكاء . فقد قرأت شـيئا تافهـا. تافهـا إلى أقصـى مـا تنطوى عليه كلمة تفاهة من تفاهة. وكذلـك ظللـت يومهـا أضحـك وأضحـك ، إلى أن زال الضحك ورجع إلىّ صوابى ، إن صح أن الصواب يرجع ثانية. وكـان ذلـك عندمـا تذكـرت الظروف التى كتبتها فيها، ثم تلك القوة الخفية التى دفعتنى إلى نشرها. تذكـرت ذلـك كلـه وتذكرت معه قولكم الكريم عنى فى "الأهرام"، وكأنكم كنتم معى وفى حياتى.

"وهو قاص مقصر إلى الآن، لم يحاول أن يطيـل القصـص فيمـا أعلـم ، وأكـبر الظـن أن الوقت لم يتح له كما لم يتح له فراغ البال، وأنه إنما يكتب هذا القصص القصير مستجيبا لفنه من ناحية ولضرورات الإنتاج السريع المنتظم من جهة أخرى".

ومع ذلك أصدقكم القول وما كان لى إلا أن أصدقكم القول دائما، أنه لـو لم تنشـر لى تلك القصة فى الوقت الذى نشرت فيه لكان حزنى على عدم نشرها لا يقل عن ذلك الحزن الذى لاقيته بعد النشر.

وهكذا نعيش، وهكذا نكتب، وهكذا أيضـا تكـون الضـراء التى نحمـد الله عليهـا، ألم يطالبنا بأن نحمده فى الضراء كما نحمده فى السـراء. ولذلـك فأنـا أحمـده كثـيرا، وأحمـده كثـيرا جداً، هذا ما أقطع به وأؤكده، ولكـن الـذى أسـتطيع أن لا أقطـع بـه ولا أسـتطيع أيضـا أن أؤكده، هو هل سأحمده فى السراء بنفس الإخلاص الذى أحمـده بـه فى الضـراء؟ هـذا مـالا أعرفه، لأننى لم أجربه ، وأغلب الظن أننى لن أجربه ، ومع ذلك فأنا أسأل نفسى، تـرى هـل يصدر هذا الشكر من الأعماق؟

علماء الدين يقولون ذلك وأنا أيضا أقول ذلـك . كـان بـودى أن لا أقـول مـا قلـت ، ولكن إن لم يقل الابن لأبيه كل شئ فلمن يقول؟

الأبناء جميعا فى نادى القصـة وفـى غـيره يقبلـون أيـاديكم الكريمـة، ويتمنـون لمعـاليكم وللأسرة الكريمة وافر الصحة وموفور الرضاء، وإنـى ألتقـى كثـيرا بالأسـتاذين حسـن عـزت وإبراهيم الإبيارى، وهما فى صحة جيدة والحمد لله، ويقبلون أياديكم .

أما نحن فى نادى القصة فقد تفرق الشمل أو كاد بعد سفركم ، فأصبحنـا لا نلتقـى إلا نادرا. وإذا اجتمعنا فعلى غير موعد . فقد اتضح أن الذى كان يجمعنا هو تشريفكم والحرص

على المتول بين أيديكم. هذا وقد سافر إلى الإسكندرية الأستاذ توفيق الحكيم من شهر تقريبا. والأستاذ تيمور يقيم هناك بصفة دائمة. وسيسافر فى نهاية هذا الأسبوع إلى سويسرا للاستشفاء مع السيدة حرمه. وسافر إلى لندن من أسبوع صلاح ذهني، وسافر في حالة سيئة للغاية وهو من شدة المرض الذى حار فيه الأطباء فى مصر يكاد يكون بين الحياة والموت. وا لله يوفق الطبيب الذى سافر إليه في لندن.

هذا وقد نال جائزة الدولة للأدب هذا العام وهى المعروفة بجائزة فؤاد سابقا. الأستاذ الزيات عن كتابه الجزء الرابع "من وحى الرسالة" رحمهما ا لله. والأستاذ محمد عبد الحليم عبد ا لله عن قصته الأخيرة "شمس الخريف". وقسمت الجنيهات الألف بين الاثنين بالتساوى، قسمها عليهما حضرة وزير المعارف الذى استشف أدبا رفيعا فى الكتابين ، أو فى الأديبين ، أو كما قال .

قابلت إحسان أول من أمس وحدثنى بلسان الناشر حديثا طويلا عن سوء تقديره للأمور وكيف أنه لم يطبع من "شجرة البؤس" غير ١٨ ألف نسخة نفذت عن آخرها عند صدورها، حتى الـ ١٥٠ نسخة التى ترسل بالمجان إلى المعلنين اضطر إلى بيعها، هذا خلاف الطلبات الكثيرة التى ترد إليه من بعض المكتبات فى الأقطار العربية والتى مازالت تلح فى طلب الكتاب . ولما أفهمته أنه كان يجب أن يطبع من شجرة البؤس أضعاف ما يطبع من كتب السلسلة قال لى أشياء غريبة جدا عززها بالأرقام، وهى أن كتب الأساتذة توفيق الحكيم وتيمور وفريد أبو حديد وهم – الثلاثة الكبار – كما تطلق عليهم السيدة روز اليوسف مغيظة حانقة ، قد فشلت فشلا ذريعا لا يتصوره عقل؟ فأزهار الشوك للأستاذ فريد أبو حديد طبع منه ١٦ وزع ٥,٤٠٠ وكذلك تقريبا كتاب الأستاذ توفيق الحكيم ، ولست أدرى سر هذه الظاهرة الغريبة فى كتب الأستاذ توفيق الحكيم هذا العام، فقد أصدر ثلاثة كتب لاقت جميعها نفس المصير، فدار أخبار اليوم تشكو مر الشكوى من كتابه "المرأة الجديدة" ، وكذلك كتابه "عصا الحكيم" الذى أصدرته دار الهلال، وهذا هو كتابه "شجرة الحكم". وهذه ظاهرة فى الحقيقة تبعث على الدهشة كما قلت لإحسان الذى اتضح أنه يحمل هذه الأسرار فى قلبه على مضض ولا يبوح بها لأحد.

مرة أخرى أقبل أياديكم الكريمة ، ومرة أخرى أعتذر عن هذه الإطالة التى سوف لا أحيد عنها طالما هى تسعدنى كل هذه السعادة.

ابنكم البار

أمين يوسف غراب

الجمهورية المصرية فى ٥٣/٧/٢٨

لا أستحق الشتم فقط

وفي رسالته الأخيرة يستعرض أمين يوسف غراب بعض الأخبار العامة والخاصة فيقول:

أبى العزيز الدكتور طه حسين

أقبل أياديكم الكريمة، وأرجو الله أن يمتع سيادتكم والأسرة الكريمة جميعا بالهناء الدائم، وإنى أنتهز هذه المناسبة. مناسبة عيد الأضحى المبارك ، وأكرر الرجاء لله عز وجل أن يعيده عليكم جميعا بالخير والهناء، وأن يحفظ لنا حياتكم الغالية وأن تعودوا إن شاء الله في يمن وصحة وهناء بال.

تسلمت بطاقة سيادتكم الكريمة. وبهذه المناسبة أقول أنه من نعمة الله على بعض الناس أحيانا أن يتيح لهم من أسباب شقائهم ما يسعدهم ويرضيهم . فأنا دائما في شهور الصيف أكثر شقاء وذلك لعدة أسباب أهمها بل يكاد يكون كلها بسبب سفر سيادتكم هذا الطويل الذى يشعرنى دائما بالألم لا لشئ ولا لسبب ، وإنما هكذا أنا دائما أثناء غياب سيادتكم في الخارج.

فقد كان يمضى الأسبوع بل وأكثر بكثير ولم أتشرف برؤية سيادتكم أثناء وجودكم في القاهرة ، ولكن هناك إيمان، وهناك اطمئنان ، بأنى في كنفكم دائما، ومعكم دائما وأراكم في أى لحظة أشاء.

أما إذا جاء الصيف وجاء معه السفر، فإنما يصير كل ذلك إلى العكس، ويصبح الاطمئنان قلقا، والإيمان شكا، وأحس دائما بالوحدة وأشعر بحقيقة بؤس الإنسان الذى لا حد له.

وهذا شقاء ما في ذلك شك، أما السعادة التى تشتق من هذا الشقاء كما قلت، فهى مثلا عندما وصلتنى بطاقتكم الكريمة، وعندما عرفت العنوان، وعندما فكرت في الكتابة إلى سيادتكم، وعندما أكتب الآن، و.. أرانى سأطيل وسأتفلسف وسينتهى الأمر بأن أشتم من سيادتكم كالعادة ، ولهذا سأسكت ، ثم أقول:

أولا: كل ما في الوطن العزيز بخير، وقد مرت فترة الانتخابات بسلام، ولم يحدث ما يستحق الذكر.

ثانيا: عقد مجلس الفنون والآداب جلسته الأخيرة هذا العام مساء السبت الماضى ، وقد

اعتذر عن الحضور السيد وزير التربية والتعليم، وأناب عنه وزيــر الإرشـاد الـذى رأس الجلسة ولم ينظر فى شئ ذى بال ، وقد أجلت أكثر المواضيع الهامـة إلى الـدورة المقبلـة بعد الصيف إن شاء ا لله.

ثالثا: أنا والأسرة جميعا بخير والحمد لله، وإبراهيـم نجح فـى النقـل مـن أولى إعـدادى وكـان ترتيبه الأول، وكان أول ما أراد أن يفعل أن يذهب إلى سيادتكم ليبلـغ سـيادتكم النبأ بنفسه، ولكنه أسف عندما علم أن سيادتكم فى الخارج، وطلـب منـى العنـوان ليكتـب لسيادتكم ، ولكن أنكرته منه لماذا لا أدرى.

رابعا: كما سبق وقلت لمعاليكم أنا أكتب الآن قصة طويلة وقد أوشكت على نهايتها. وأقول من الآن مقدما أنها سوف لا تكون عند حسن ظن سيادتكم لسبب بسيط وهى أن كل صفحة كنت أكتبها أتمثل شـخصكم الكريـم وكـأنى فـى حضرتكـم الكريمـة. فأخـاف وأضطرب وأرجع إلى ما كتبت أزيـد وأنقـص وأنقـص وأزيـد، وإلى الآن مـازلت أزيـد وأنقص وأزيد.

خامسا: أعرف جيدا أننى أطلت جدا وأننى لا استحق الشتم فقط ولكنى أسـتحق الضـرب. وأنا أعترف بذلك واعتذر عنه.

مرة أخرى أقبل أياديكم الكريمة وأرجو للجميع ولسيادتكم الصحة والهنـاء والسـعادة. والتفضل بالكتابة إلىّ لأظفر أنا الآخر بشئ من هذه السعادة .

ابنكم البار

أمين يوسف غراب

من العقاد لطه :

أنت تحتاج إلى شجاعة للكف عن الشجاعة!

يصف طه حسين العقاد بأنه "كان لى صديقا حميما وأخا كريما"[١]. ويقول "إن أثر العقاد فى الأدب الحديث ضخم جدا لا يمارى فى ذلك أحد"[٢].

وقد كان بين الأديبين الكبيرين علاقة أدبية ، وعلاقة إنسانية أيضا على عكس ما قد يبدو للناس مما يستنتجونه أحيانا من عنف المعارك الأدبية بينهما ، مما دعا طه حسين إلى أن يقول "قد يظن بعض الناس أنه كانت بينى وبين العقاد قطيعة ، وهذا غير صحيح ، فلا أعرف أن خلافا كان بينى وبين العقاد، وإنما كان العقاد لى صديقاً حميما وأخا كريماً"[٣]. والرسائل المتبادلة بين الصديقين هى أكبر شاهد وأعظم دليل.

والرسالة التى أرسلها العقاد ١٩٢٥ إلى طه حسين يناقشه فيها رأى كلاهما فى "أدب المعرى" وحظ هذا الأدب من الخيال، ويبدو أن أبو العلاء ، سيكون موضع مناقشة فيما بينهما، فيما بعد حين يجمعهما مجمع اللغة العربية ، حيث حدث (يقول طه حسين): "مرة والمجمع يستعد لمؤتمره السنوى اقترح الدكتور منصور فهمى أن أعد محاضرة عن أبى العلاء للمؤتمر ، وقد قال فى مجلس المجمع وهو يقدم اقتراحه : إن الدكتور طه أعرف الناس بأبى العلاء، وما كاد الأستاذ العقاد يسمع هذا حتى اندفع قائلا: بأنه يعرف عن أبى العلاء ما لا يعرفه طه حسين وغيره، وهو أقدر الناس على الحديث فى هذا الموضوع. ويقول الدكتور طه : حاولت تهدئة الأستاذ العقاد، وأبديت له رغبتى فى عدم الحديث فى هذا الموضوع"[٤].

وفى العشرينات كتب كلاهما مقالا عن أبو العلاء وإن تجاهل طه حسين ما كتبه العقاد، فرد عليه رداً ساخرا فى نهاية خطابه الذى اتفق فيه مع الكثير مما نشره طه فى مقاله وأثار اهتمامه فكتب له هذا الخطاب:

---

(١) طه حسين يتحدث عن أعلام عصره – د. محمد الدسوقى.

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

السخرية العلائية

حضرة الأستاذ القدير الدكتور طه حسين

أشكرلك ثناءك واهتمامك وأبادلك التحية مدحا وقدحاً بالصاع صاعين وبالباع باعين! وأعجب بشجاعتك في تقريظ كتابي ونقده في صحيفة "السياسة" وإن كنت أسأل نفسي : هل هي شجاعة حقا!!

فإن الشجاعة هي معالجة المكروه والإقدام على المحذور ، ولا أظنك إلا ملتذا بما في شجاعتك الأدبية من إيذاء عقائد الناس وإحراج صدورهم ، ولو كانوا من أنصارك وأصحابك ! فهي شجاعة حبيبة إلى نفسك تقدم بك على ما تهوى لا على ما تكره ، وتجنح بك إلى ما ينيلك لذة وسرورا لا إلى ما يكلفك جهداً وصبراً، وكأنك تحتاج أحيانا إلى شجاعة للكف عن هذه الشجاعة.. ولا أزيد على ذلك فنخوض في غموض الفلسفة التي قلت إنك لا تسيغها (وربما ذلك لأنك تقرأها قراءة متفرج لا قراءة من يهتم بموضوعاتها ويشغل خاطره بالبحث عن أسرارها).

أما كلامك عن الخيال في "رسالة الغفران" ، فأنا أوافقك أولا على تعريف الخيال وأرى معك أنه ملكة "تستمد الصور والنتائج من الأشياء الموجودة وتؤلف بينها تأليفا غريبا يبهر النفس ويفتنها" وعلى هذا التعريف لا أرى للمعرى في رسالة الغفران حظا من ذلك التأليف الغريب الذى يبهر النفس ويفتنها، أكبر من حظ الراوية الذى يسرد الأخبار المسموعة ، والقاص الذى يعيد النوادر المحفوظة.

وقد سألت "ماذا يلذنا في رسالة الغفران؟" فأقول: إنما أكبر ما يلذنا في هذه القصة معدنها لا صورها الفنية . وأزيد ذلك إيضاحا فأقول: إن قطعة الذهب مثلا لها قيمتها التجارية، ولكن قطعة الذهب المصوغة في شكل تمثال جميل أنيق لها هذه القيمة التجارية ، وقيمة أخرى هي القيمة الفنية الجمالية ! فهذه القيمة الفنية قليلة رخيصة في رسالة الغفران لا تضيف شيئا كثيرا إلى ما فيها من متعة القصص والفكاهة والصور التي تبادر الذهن عفوا عند ذكر الجنة والنار وما فيهما من أسباب النعيم والعذاب.

فإذا كان في الرسالة متعة فوق متعة القصص والفكاهة المنقولة ، فالفضل فيها للسخر السخي الذى تفيض به الرسالة لا للخيال الضعيف الذى يظهر فيها حينا بعد حين، كما

يظهر الوشل المنقطع بين الرمال. ولا أدرى كيف يخطر لك أن تقرن قصيدة دانتى إلى رسالة المعرى، وبينهما فرق بعيد يكاد يكون كالفرق بين الشعر والتاريخ حيث يتناولان الموضوع الواحد؟ وأحسب رأيك هذا فى خيال المعرى جديداً لم تكن تراه حين كتبت "ذكرى أبى العلاء" فإنى أذكر أنك جردته - إلا قليلا - من الخيال فى شعره . ولو كانت "الرسالة" بين يدى الساعة لنقلت لك كلامك فى هذا الصدد ، ولكنك فى غنى عن نقله . فإن لم تخنى الذاكرة فأنت تقول معى : إن الخيال لم يكن من الملكات التى امتاز بها المعرى وإلا لما تركه فى الشعر وهو أحجى بأن تتبع فيه منادح التخيل والتصوير والشعور.

وقد وددت لو ذهبت فى تحليل السخرية العلائية إلى أقصى ما تنتهى إليه حرية البحث، لأن أبا العلاء لم يكن يسخر من لذات الناس وشهواتهم وإنما كان يسخر بهذه وبعقائدهم وأديانهم كذلك، وأخالنى قد فعلت ما وددته - وإن لم أتوسع فى هذا البحث - فقلت إن المعرى "كان يبتسم من آمال الناس فى الدنيا والآخرة ثم يعود فيبتسم من ابتسامه، ويعبث بالكافرين ويعرض بهم فى ظاهر القول وهو بالمؤمنين أشد عبثا وأبلغ تعريضا" ولم أبعد فى هذا المنزع لأننى أرى بعض الحماقات كبعض الدمامات أقل من أن يُضحك منها أو تنال بأذى السخرية.

وبعد فلست أعتقد أنك من ضعف الذاكرة بحيث أردت أن تظهر لنا فى مقالك . فأنت تزعم أنك لم تقرأ "البلاغ" وقد رددتَ عليه مراراً فكيف اتفق هذا؟ ألعلك ترد على ما لم تقرأ أو لعلك قد نسيت بإرادتك ؟ وقد ينسى الإنسان بإرادته فى بعض الأحايين!

وأقول لك أخيراً "حسبك فقد عرفت صوت نفسك" وإنه لصوت يُسمع على ما فيه من النشوز. وتقبل منى التحية والسلام .

عباس محمود العقاد

٢١ يناير ١٩٢٥

الإسرائيلى المعجل

وفى خطاب آخر دال على تبادل الصديقين للرسائل والكتب فيما بينهما كهدايا، يتفلسف العقاد بأن كتابه القادم عن "ابن الرومى" لن يهديه لطه بل سيعطيه له قرضا ، وهى مداعبة تدلنا على الوجه الآخر السمح الطلق للعقاد غير وجهه الذى عرف واشتهر به.

يقول فى رسالته لطه:

سيدى الدكتور الأجل

تلقيت رسالتك وشكرت تهنئتك وإن قدرى لهذه التهنئة لكبير واغتباطى بما حوته من دلائل العطف النبيل لعميق. وقد تفضلت فذكرت كتبى الأدبية فيسرنى أن يوافق ذلك قرب الفراغ من كتاب "ابن الرومى" الذى شرعت فى طبعه قبل سنة وأرجو أن يتم طبعه بعد أسبوعين . وسأرسله إليك ولكن لا هدية.. بل قرضا أسمح لنفسى أن أصفه بالإسرائيلى المعجل.. لأننى أنتظر سداده من آثارك الأدبية فى وقت قريب. والتحيات لك والإجلال.
المخلص

عباس محمود العقاد

٨ أغسطس ١٩٣١

مطلوب عمل

ومما يدل على عمق الصداقة بين الرجلين أن كبرياء العقاد لم تمنعه من أن يتوسط لدى طه حسين ليعمل معه أحد الأدباء فى جريدة "الوادى" التى اشترى طه حسين امتيازها ليديرها ويرأس تحريرها فى الفترة التى طرده فيها إسماعيل صدقى رئيس الوزراء من الجامعة وأمعن فى إيذائه والتضييق عليه، فعمل فى جريدة "كوكب الشرق" أولا بطلب من النحاس باشا لمساعدته فى الخروج من أزمته كما ذكرنا سابقا . يقول العقاد:

تحريرا فى ٢٢ مايو ١٩٣٤.

حضرة الأستاذ العالم الجليل

أهنئكم بما صحت عليه عزيمتكم فى إصدار "الوادى" وأرجو له النجاح الذى يحقق رجاءنا ورجاءكم .

وبعد فلا أحسبنى أزيدكم علما بالأديب مصطفى كامل الشناوى بعد ما خبرتموه فى رئاسة تصحيح الكوكب وفى تحريره ولكنى اكتفى بأن أذكركم به وأود لو يكون له نصيب فى العمل معكم إذا كان مجاله خاليا فى الوادى، ولكم الشكر والتحية والاحترام.
المخلص

عباس محمود العقاد

مع طه فى محنته

وقد كانَ العقاد نفسه أشد الذين وقفوا بجانب طه حسين فى محنتـه التى كـانت تمثـل اعتـداء على الجامعة واستقلالها حين طلبت حكومة صدقى باشا من طه حسين أن تمنـح كلية الآداب التى هو عميدها ، الدكتوراة الفخرية لبعـض السياسـيين ، فلمـا رفـض ، قـام وزيـر المعـارف آنـذاك – حلمى عيسى باشا – بإقالة طه حسين ، فاستقال مدير الجامعة أحمد لطفى السيد احتجاجـا وتظـاهر الطلبة من أجل عميدهم ، وكتب العقاد منددا بهذا التصرف قائلاً: حتى مع الفرض بأن "الدكتور طه حسين مخطئ كل الخطأ فى الأسباب التى عزيت إليه فإن ذلك لا يغير وصف المسألة ولا يفهمنا ما هى الضرورة التى أرغمت الوزارة إرغاما على أن تسلك هذا المسـلك دون غـيره، وأن تتعجـل هذا التعجل ، وتتظاهر هذا التظاهر وتعالج المسألة هذا العلاج العسـكرى المبرم كأنهـا فـى ميـدان قتال تخشى فيه زحف عدو مغير أو تتصرف وهى مقدمة على خط النار!!".

ولا يرى العقاد حلا "للإشكال الذى وقعت فيه هذه الوزارة – بسوء رأيها – إلا أن يسـتقيل وزير المعارف وتعود الأمور إلى نصابها، فإن استقالته هى التكفير الوحيد لخطئه السخيف".

وفى خطاب من العقاد يعتذر فيه لطه حسـين عـن إلقـاء محـاضرات فيمـا يبـدو أنـه قـد طلـب منـه إلقاءها، ويزيد الأمر غموضا أن طه حسين كان آنذاك خارج الجامعة، حيث كان يمكن القبول بأن طه قد دعا العقاد لإلقاء سلسلة من المحاضرات فى الجامعة على طلبة كلية الآداب، ولما كـان ذلـك غير ممكن فى هذه الفترة التى أخرج فيها طه من الجامعة فإن الأمر يبدو أكثر غرابة. ولنقرأ سـطور خطاب العقاد إلى طه حسين:

أخى العلامة الفاضل

تحية وإجلالا. وبعد فإنى أعانى ضعفا فى الصحة أعالجه ولا أتغلب عليه. ويكاد يلجئنى إلى الراحة الطويلة لولا أن للعمل فريضة لا تنسى ، وأرانى مضطرا إلى الاكتفاء بأيسر العمل الذى لا محيص عنـه. فـأرجو أن تقبلـوا عـذرى إذا أنـا لم أجـد بـداً مـن التخلـف عـن إلقـاء المحاضرات التـى تفضلتـم فحدثتمونـى فـى شـأنها. وإنـى أعتـذر أسـفا وأرجـو قبـول التحيـة والاحترام.

عباس محمود العقاد

٢٥ أكتوبر ١٩٣٢

خدموا العلم فتخلفوا

ويطلب العقاد من طه حسين في رسالة أخرى أن يعمل لإنصاف بعض الأدباء الشبان الذين "خدموا العلم فتخلفوا ، كما يقول العقاد مقارنا بينهم وبين زملائهم الذين عملوا في مجالات أخرى فسبقوهم، مما يثير قضية غياب قيمة العلم في بلادنا منذ فترة طويلة ، أما لماذا اتجه العقاد إلى طه لإنصاف هؤلاء الشبان ، فلأن طه حسين قد صار مراقبا للثقافة في وزارة المعارف مما يتيح له أن ينصف هؤلاء الشبان، يقول العقاد :

حضرة الأخ العلامة الدكتور طه حسين بك

أحييكم تحية الإخاء والإجلال

وأتجه إلى إنصافكم في أمر لا أعلم منه فوق ما تعلمون، وهو أمر الشبان الأدباء الذين يقومون على ترجمة وزارة المعارف الإسلامية ، وقد سلخوا الآن في عملهم هذا عشر سنين لو سلخوا بعضها في طلب نصر علمي لأدركوه وأدركوا معه منفعته وفخره ، أو في طلب مال لحصلوا منه ما يغني ، ولكنهم خدموا العلم فتخلفوا ، وفاتهم باسم العلم زملاء لهم لم يخدموه مثل خدمتهم، ومن حقهم أن يطمعوا في رعايتكم ويثقوا في معونتكم، ولهم اليوم كما فهمت مسألة معروضة عليكم، فيها ما يعوضهم ويرجى منه تحسين أحوالهم. فلا أزيد على الإشارة إليها وفيها عندكم الكفاية، ولكم تحياتي وشكري والسلام.

المخلص

عباس محمود العقاد

٩ سبتمبر ١٩٤٢

عظيم من جميع الجوانب

ولما كان العقاد وطه يتبادلان إهداء كتبهما فمن المهم أن نتعرف على آرائهما فيما يكتب الآخر، وهذه رسالة من طه حسين إلى العقاد يحييه فيها على كتابه "عبقرية محمد" ويشكره على احتفائه بكتابه "الحب الضائع" لطه حسين، في مجلة الرسالة.

يقول طه حسين:

فرغت الساعة من قراءة كتابك الممتع "عبقرية محمد"، ولست أكتب إليك الآن لأصور لك رأيي في هذا الكتاب أو إعجابي به، فما أنت في حاجة إلى هذا الرأي وما أنت في حاجة إلى هذا الإعجاب، وما ينبغي أن يصور لك أنت هذا أو ذاك، إنما ينبغي أن يصور للناس الذين يقرأون والذين لا يقرأون.

وأنا أرجو أن تتيح لي الظروف قريبا أداء هذا الحق لا إليك ولكن إلى الكتاب نفسه فهو يقتضيني هذا الحق، وإلى القراء فهم يقتضونني إياه أيضا، لم أكتب إليك إذن لأحدثك عن هذا الكتاب، وإنما أكتب إليك مهديا أجمل الشكر وأصدقه، وأخلص التحية وأطيبها بعد أن قرأت فضلك الكريم الذي تفضلت به على "الحب الضائع" في "الرسالة"، وهو فضل منك جديد يضاف إلى فضل منك قديم (لعله يشير إلى وقوفه بجانبه في محنته) مهما أقل فلن أؤدي حقه من الشكر والاعتراف بالجميل، ولكني أرى فيك ما كان "المبرد" يراه في "البحتري" إن صدقتني الذاكرة حين قال له:

أبى الله إلا أن تكون عظيما من جميع جوانبك

فتقبل شكري الخالص وتحيتي الصادقة وأعذر ما اضطر إليه من قصور أو تقصير عن النهوض بحق هذا الشكر كما ينبغي".

لماذا تراجع طه؟

ولا ندري بعد هذا الإعجاب، بـ "عبقرية محمد" وصاحبها، ما الذي دعا طه حسين في ندوة "تليفزيونية" بعد وفاة العقاد، أن يعترف بأنه لم يفهم بعض العبقريات ومنها "عبقرية محمد" التي أبدى استمتاعه بها في رسالة للعقاد. والذي بايعه في حياته بإمارة الشعر حين ألقى خطابه بمسرح الأزبكية ١٩٤٥، حين قال "ضعوا لواء الشعر في يد العقاد وقولوا للأدباء والشعراء: أسرعوا واستظلوا بهذا اللواء فقد رفعه لكم صاحبه"، ثم عاد طه حسين ليسحب مبايعته للعقاد بعد رحيله حين قال: "أحب أن أؤكد أنني لم أبايع العقاد إمارة الشعر، وما كان لي أن أبايعه لأنني لم أكن شاعرا"!

فهل كان طه يصرح بغير ما يضمر، أم هي تقلبات النفوس البشرية يستوي في ذلك العاديون من البشر، والعباقرة، أم أن طه كان يتقي قلم العقاد الحاد ويصانعه، على أية حال فقد كان العقاد

صادقا فى مشاعره نحو طه حسين ، وبدا ذلك فى أكثر من أزمة صحية ألمت بطه حسين، فنجده يسارع بإرسال تلغرافاته الجميلة الحانية على صديقه، ولنقرأ بعض هذه التلغرافات:

• الدكتور طه حسين .. مستشفى الطيران - العباسية.

فى رعاية الله الكريم وعناية الطب القدير، قوام يعتدل به قوام الأدب والبيان. ويهنأ بسلامه عالم الفكر السليم والفهم القويم.

عباس العقاد

• تحية الغبطة والتهنئة بالشفاء عاكف على المنزل - أياما - بين يدى وافدة الشفاء، ولولا اتقاء الإرهاق من المقابلة لسبقت كتابى وبطاقتى إلى الدار منذ حين.

العقاد ١٩٦٢/١١/٢٧

• الدكتور طه حسين .. شارع الهرم - الجيزة غاشية بعدها شافية واقية بنعمة وعافية.

عباس العقاد

• الدكتور طه حسين.. شارع الهرم نسأل عن صحتكم ونرجو أن يكون بقاؤكم فى ميادين عملكم جواب السؤال عنكم.

عباس العقاد

طه يقنع عبد الوهاب بالغناء فى أزمته!

بداية تعرف عبد الوهاب على طه حسين كانت عن طريق أحمد شوقى أستاذه فى الفن والحياة والذى كان يقوم بتعريفه بنجوم الأدب والفن والسياسة، وكان طه حسين ممن عرفهم شوقى ، لعبد الوهاب، حينما كان يزوره أثناء رئاسته لتحرير جريدة "كوكب الشرق" ، وقد أحس عبد الوهاب بموسيقية بيان طه حسين التى تهم فنانا مثله[1]، ولا ينسى عبد الوهاب كيف حضر طه حسين تسجيل أول قصيدة ملحنة له وهى "الجندول" ، يقول عبد الوهاب "ويومها اعتبر تلحين قصيدة الجندول علامة جديدة من علامات الفن العربى وانطلاقه"[2] ولا ينسى عبد الوهاب كذلك واقعة تدل على قوة إقناع طه حسين للآخرين فى أحلك حالاتهم شدة وقسوة.

ولم يكن أصعب من فراق الأحباء، شدة وقسوة، ومع ذلك كان طه حسين يرى فى مثل هذه الأمور دعوة للصبر والاحتمال واستلهام القوة على منازلة الشدائد ، وليس أدل على ذلك من اقناعه للموسيقار محمد عبد الوهاب فى حضور أمير الشعراء أحمد شوقى، (وكانوا يصطافون فى لبنان ١٩٢٧) بان يغنى يوم إبلاغه بوفاة والده، بعد أن كان عبد الوهاب قد قام بتأجيل الحفل الذى كان من المفترض أن يقوم بإحيائه فى نفس اليوم، فعاد عبد الوهاب ليلغى التأجيل ويغنى بناء على نصيحة طه حسين: غنى كما تحس حزنا أو فرحا.

وليلتها شعر عبد الوهاب أنه كان فى أحسن حالاته من ناحية قدرته على الإجادة فى الغناء.

ولم يكن مستغربا بعد ذلك ألا يتأخر عبد الوهاب عن طه حسين فى إجابة أى مطلب له ، فهو القادر على إقناعه حتى بما لم يكن مقتنعا به، وسنلحظ أثر ذلك فى خطاب غامض المضمون كتبه عبد الوهاب إلى طه حسين على إثر حفل غنائى كان المفترض أن يحييه عبد الوهاب فى الزقازيق بناء على طلب من أحد أساتذة الجامعة ، ولا نعرف لأى غرض، ولكن يبدو أن ذلك الأستاذ قد طلب إحياء هذا الحفل بناء على التدخل لدى د. طه حسين وهو أحد أساتذة الجامعة لإقناع عبد الوهاب، وفيما يبدو فقد تأجل الحفل، الذى يبدى موسيقار الأجيال أسفه لعدم إتمامه، بل ويسميه "الحفلة النادرة"!

يقول عبد الوهاب فى خطابه الغامض إلى طه حسين بدون تاريخ.

---

(١) قاهر الظلام.. لكمال الملاخ.

(٢) السابق.

سيدى الأستاذ

تحية واحتراما وبعد

توجهت إلى الجامعة لغرض لقائك ولكنى آسف لعدم وجودكم، وقد وصلنى أمس خطاب من الدكتور برادة الذى اتفقت معه على إحياء حفلة مساء الأحد بالزقازيق ، وما كنت أدرى أن أحدا تكلم معه بشأن تأجيل تلك الحفلة إلا أمس من شخص يتكلم معى بالتليفون ، وإنى أرسل إليكم خطابى هذا لتعلموا مبلغ إحراج مركزى مع تقديم أسفى على حرمانى شخصيا من تلك الحفلة النادرة.

وتفضلوا بقبول فائق تحياتى

عبد الوهاب

الصراحة التى تحدثت بها سوزان زوجة طه حسين فى كتابها "معك"، والتى جعلتها تروى قصة مفاتحة طه حسين لها بالحب، وتذكر أنها ردت عليه "بفظاظة": أنها لا تحبه ، تجعلنا نصدقها حين تتحدث عن السلوك الإسلامى لطه حسين فى بيتهما. تقول مخاطبة طه حسين بعد رحيله "أفكر فى هذا التوافق الخفى الذى وحدنا دوما فى احترام كل منا لدين الآخر . لقد دهش البعض من ذلك ، فى حين فهم البعض الآخر، إذ رأى أن بوسعى أن أردد صلاتى على حين تستمع إلى القرآن فى الغرفة المجاورة. ويصدفنى اليوم أن أفتح المذياع لأستمع إلى القرآن عندما أبدأ تسبيحى، بل إنى لأسمعه على كل حال فى أعماق نفسى . كنت غالبا ما تحدثنى عن القرآن، وتردد لى البسملة التى كنت تحبها بوجه خاص. وكنتَ تقرأ التوراة ، وكنت أتحدث عن يسوع. كنت تردد فى كثير من الأحيان أننا لا نكذب على الله، وويل للمكذبين".

هكذا كان يحترم كلاهما "طه وسوزان" دين الآخر فى تسامح هو من روح الإسلام الحنيف.

وتقول سوزان "ففى كثير من المرات التى كنا نتحدث فيها، كان يستشهد ببيت من الشعر، أو بمثل أو بآية من القرآن الذى كان يحب أن يقرأه، وأن يترجمه لى.

أما أبناء طه حسين، أمينة ، ومؤنس، أو "كلود"، و"مرجريت" فالذين يحسنون الظن يرون أنها أسماء تدليل لهما من أمهما، والذين يسيئون الظن يحملون المسائل أكثر مما تحتمل ، ولكننا نريد أن نصل إلى الجوهر فى السلوك العام والخاص بأبناء طه حسين فهو أكثر دلالة وإقناعا من أى حديث أو تبرير.

يتحدث طه حسين عن وداع إبنته أمينة فى إحدى مرات سفرها مع زوجها، فيقول "فلما همت أن تنصرف ألقت فى يدى شيئا صغيرا وتولت وهى تقول : "اجعل هذا وقاء لك من شر من تحصن إليه. ونظرت فإذا هو مصحف دقيق. لك العهد يا إبنتى: لا يفارقنى مصحفك الدقيق حيا أو ميتا".

أما مؤنس فقد كان "يجاهد فى اليونسكو لنقل آثار العرب وعلماء المسلمين إلى لغات الغرب" وكان موضوع رسالته للدكتوراه عن "تأثير الآداب الإسلامية فى الأدب الفرنسى". ونعود إلى "سوزان" التى تحدثنا عن أثر حدث خطير فى حياة زوجها طه حسين فتقول "وما كان يواسيه شئ لو لم يتمكن من رؤية المدينة المنورة. وأعرف كم كان منفعلا عندما يقول لى : حقا إن

(*) مجلة الشموع – العدد ١٥ – أكتوبر . نوفمبر . ديسمبر ١٩٨٩.

الإسلام دين الصفاء والتسامح".

لقد كان طه يهفو إلى زيارة الأراضى المقدسة وكانت الأراضى المقدسة تهفو إليه. كانت تهفو إليه حين تصدى أحدأبنائها مدافعا عن طه حسين وهو مجحود الفضل فى وطنه، وكانت تهفـو إليـه وأحد أبنائها يدعوه لزيارتها.

بين أوراق طه حسين قصاصـات ورق صحـف بـلا تحديـد للسـنة ، وكتـب بجانبهـا "البـلاغ" ٥/١٩، نقرأ فيها دفاعا حارا عن طه حسين ضد إحدى الصحف التى تقولت عليه فى نزاهته بعـد أن ترك وزارة المعارف، وهى صحيفة "الأساس"، يقول أحمد عبد الغفور عطار من مكة المكرمة:

"لشد ما يؤلمنا نحن أبناء الأقطار العربية الشقيقة أن نرى فى مصر ظاهرة تحمـل المخلصـين لها على أن يألموا ويشفقوا . وهذه الظاهرة هى رمى البارزين فيها بما هم براء منه مما لا يتفق مـع الكرامة الإنسانية ولا الشهرة الصحيحة التى استحقوها عن كفاية واقتدار" طه حسين الـذى يدخل الوزارة فقيرا ثم يغادرها وهو فقير أيضا ، بل مدين.

طه حسين الذى لو أراد أن يأخذ تلقاء قطرة من قلمه يسـكبها علـى الـورق آلافـا مـن الجنيهات لكان له ذلك. طه حسين الذى يستطيع بكلمة واحدة أن يملأ الخزائن بالمال، يزهـد وهو قادر، ويعيش وهو فقير مرفوع الرأس موفور الكرامة.

هذا الرجل العظيم الكبير الذى فرض زعامة مصر على الشرق العربى والإسلامى بفنـه وأدبه وعلمه وكتبه".

"هذا الرجل الذى حمل الناس فى الشرق والغرب أن يحدقوا فى مصر طويـلا ، وحملهـم على الهتاف باسمها والتصفيق لها وتأييدها . هذا الرجل الذى دان مصر دينا ثقيـلا لا يقضـى، يثار أمامه غبار من بعض عارفى فضله، وممن لطه عليهم فضل أى فضل".

"وإذا أردنا أن نعرف فضل طه على مصر والشرق العربى وما صنع لهما فلنفرض أنه لم يوجد، ثم لننظر ماذا يكون حالهما، أعتقد – والحق معى – أنه لو لم يكن طـه لتأخرت مصـر والشرق العربى فى الثقافة – على الأقل – تأخرا كثيرا".

"هذا مما نأخذه على بعض إخواننا المصريين الذين يتنكرون لمن كـانوا سـبب مجـد مصـر وزعامتها، وهؤلاء – كما أظن – يجهلون أن فى تنكرهم هـذا حرمانـا لأنفسـهم مـن الفخـار الذى لا يشترى بكل أموال مصر".

لقد احتفظ طه حسين بهذه الكلمات التى خطها شاب عربى من مكة المكرمة يعـترف لطـه حسـين بأنه "هو الذى دفع شباب العرب إلى أن يفكروا تفكيرا حرا مستقلا".

يحتفظ طه حسين بتلك الرسالة المنشورة ، كما يحتفظ برسالة أخرى سبقتها بحوالى عشر سنوات (٢٠ يناير ١٩٤٢) وكاتبها أيضا شاب عربى هو محمد سرور الصبان الذى حرص على أن يسجلها من "مكة المكرمة إلى مصر المحروسة" ، قائلا لطه حسين:

"يسرنى أن أقدم لكم تحايا شباب العرب فى هذه البلاد المقدسة الكريمة التى تقدر أدبكم القيم الرائع حق قدره والتى تعرفكم معرفة الروح" "وهذه البلاد التى تحفل بآثار سيد الخلق ورسول الإسلام والتى ألهمت الأستاذ سفره النفيس (على هامش السيرة) من حقها أن ترى الأستاذ الكبير ، ومن حقه أن يفد إليها حاجا وزائرا ومستلهما للتاريخ ومستوحيا للديار والآثار".

ولقد كان أهل "هذه البلاد المقدسة الكريمة" مشوقين إلى طه، وكان طه مشوقا إلى بلادهم، وقد جاءته الفرصة حينما صار رئيسا للجنة الثقافية بجامعة الدول العربية ، بل إنه لم يكن ليقبل اختياره لهذا المنصب لولا أنه علم أن دورة هذه اللجنة ستنعقد فى المملكة العربية السعودية، وقد عبر عن ذلك فى حفل افتتاح دورة اللجنة الثقافية التاسعة التى عقدت فى "جدة" فقال[١]

"حين شرفنى مجلس الجامعة العربية باختيارى مشاركاً فى اللجنة الثقافية للجامعة ، ترددت فى قبول هذا الشرف لأن فيه أعباء لا ينهض بها إلا أولو العزم، ولكن لم أكد أسمع أن الدورة ستنعقد فى هذا الوطن العزيز حتى أقبلت غير متردد ، يدفعنى هذا الشوق الطبيعى الذى تمتلئ به قلوب جميع المسلمين مهما تكن أوطانهم، فهذا الوطن وطن العروبة والإسلام".

ويعبر عن مشاعره الأولى حين حل بهذا الوطن المقدس ، فيقول[٢]

"أول ما شعرت به ومازلت أشعر به إلى الآن هو الذى يجده الغريب حين يؤوب بعد غيبة طويلة جدا إلى موطن عقله وقلبه وروحه بمعنى عام".

وحينما تهيأ طه حسين للقيام "بالعمرة" عُهد إلى الشيخ عبد الله المنيعى مدير إدارة الثقافة بوزارة المعارف السعودية (التى كان وزيرها الأمير فهد بن عبد العزيز الملك فيما بعد) ليرافقه فى رحلته الروحية ، وقد قام طه حسين بالتنبيه على مرافقه[٣] "وهما يغادران مدينة جدة قاصدين البيت الحرام فى مكة المكرمة أن يوقف الركب عند الحديبية ، فلما توقفوا عندها ترجل الرجل وقبض

---

(١) جريدة "البلاد السعودية" ١٦ يناير ١٩٥٥.

(٢) أول فبراير ١٩٥٥ المصدر السابق.

(٣) أحمد فتحى عامر – أهرام ١٩٩٥/٤/١٤.

من تراب "الحديبية" قبضة فشمها ثم تمتم ودموعه تنساب على التراب قائلا: والله إنى لأشم رائحة محمد صلى الله عليه وسلم فى هذا التراب الطاهر"، وهدأ (مرافقه) من روع الدكتور على مدى نصف الساعة من الراحة، ثم استمر الركب حتى دخل الحرم من باب السلام، والدكتور لا يكاد يخفى زلزلة إيمانه عن رفيقه ، وتوجها إلى الكعبة فتسلم الحجر وقبله باكيا، واستمر يطوف ويسعى فى خشوع ضارع، وبكاء خفى حتى أتم عمرته، وقد أخذ منه الإرهاق النفسى أكثر من البدنى كل مأخذ".

وقد تحدث عن تلك اللحظات الروحية الرائعة فى حياة طه حسين، صديقه الشيخ أمين الخولى الذى كان رئيسا للوفد المصرى فى اللجنة الثقافية التى رأسها طه حسين ، وكان صاحبه فى رحلة العمرة ، فحين[1] "استلم طه حسين الحجر الأسود ظل يتنهد ويبكى ويقبل الحجر حتى وقفت مواكب الحجيج (يقصد المعتمرين) انتظارا لأن يغادر هذا الأديب الكبير المكفوف مكانه، ولكنه أطال البكاء والتنهيد والتقبيل ، ونسى نفسه فتركوه فى مكانه، وأجهشوا معه فى البكاء والتنهيد".

مسيحية تبكى بين يدى طه

ولعل خير من يعبر عن تلك اللحظات الروحية طه حسين نفسه حين أفضى بها للشاعر كامل الشناوى فقال [2] :

"لقد سبق أن عشت بفكرى ، وقلبى فى هذه الأماكن المقدسة زهاء عشرين عاما، منذ بدأت أكتب "على هامش السيرة" حتى الآن، ولما زرت مكة والمدينة، أحسست أنى أعيش بفكرى وقلبى ، وجسدى جميعا. عشت بعقلى الباطن وعقلى الواعى، استعدت كل ذكرياتى القديمة. ومنها ما هو من صميم التاريخ، ومنها ما هو من صميم العقيدة. وكانت الذكريات تختلط بواقعى، فتبدو حقائق حينا ، ورموزا حينا، وكان الشعور بها يغمرنى، ويملأ جوانب نفسى" "كنت دائما فى كامل وعيى. أخذتنى الرهبة والخشية والخشوع كل مأخذ عندما كنت وحدى". ويضيف واصفا رحلته الوحيدة إلى الأماكن المقدسة "وكنت فى هذه المرة الواحدة مع الناس ومع نفسى فى وقت واحد".

---

(١) عبد المنعم شميس - مجلة الجديد ١٥ يونيو ١٩٧٧.

(٢) آخر ساعة بأوراق طه دون تاريخ.

"ولقد جرت العادة عندما يصل المرء إلى الكعبة، أو المسجد الحرام أن يتسلمه طائفة من الناس يسمون فى مكة "بالمطوفين" أى الذين يقومون بإجراءات الطواف بالكعبة ، ويسمون فى المدينة "بالمزورين" أى الذين يقومون بإجراءات الزيارة لقبر الرسول عليه السلام. وقد حاولت جهدى أن أتخلص من المطوفين والمزورين. ولكن محاولاتى ذهبت هباء ووجدتنى بين أيديهم أردد بلاوعى ما يقولونه. ووجدتنى فى الوقت نفسه وحدى وإن كنت فى صحبتهم.. كنت شخصية واعية بلا كلام.. وشخصية متكلمة بلاوعى..

كانت الشخصية المتكلمة بلاوعى تردد كلام المطوفين والمزورين.. وكانت الشخصية الواعية بلا كلام تناجى ربها فى صدق وصمت وخشوع".

"قلت له سبحانه:

"اللهم لك الحمد . أنت نور السموات والأرض. ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض. ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن . أنت الحق، ووعدك الحق، والجنة حق. والنار حق. والنبيون حق. والساعة حق.

اللهم لك أسلمت، وبك آمنت ، وعليك توكلت، وإليك أنبت . وبك خاصمت، وإليك حاكمت . فاغفرلى ما قدمت وأخرت ، وما أسررت وما أعلنت . أنت إلهى، لا إله إلا أنت" وهذا الدعاء "أحفظه منذ زمن بعيد، وهو من أصح ما روى من الحديث عن النبى محمد صلى الله عليه وسلم" و"دائما أناجى ربى بهذا الدعاء".

وعندما سأله كامل الشناوى هل خاطبت به ربك علنا؟

فقال: أنا إذا ما خاطبت ربى ناجيته ، وقد سبق أن أذعت هذا الدعاء "عام ١٩٥١" فى فلورنسا "باللغة الفرنسية فى مؤتمر الحضارة المسيحية.. ولم أكد انتهى من إلقاء هذا الدعاء، حتى دوت قاعة المؤتمر بتصفيق شديد. وجاءتنى سيدة مسيحية، وقالت لى وهى تبكى: خذ دموعى وإعجابى وبلغها للإسلام الذى أحبه كثيرا. فقلت لها: لا داعى للدموع.. إعجابك يكفى".

بين طه والشعراوى

وقد كان الشيخ الشعراوى حاضرا هناك فى الأراضى المقدسة ، فى استقبال طه حسين ، فقد كان محمد متولى الشعراوى يعمل بمكة المكرمة أستاذا فى كلية الشريعة ضمن البعثة التعليمية المصرية هناك، وأناط به زملاؤه وأصدقاؤه من أعضاء البعثة أن يتقدمهم لتكريم طه حسين ، وقد

طلبتُ من المرحوم الشيخ الشعراوى قبـل أن يحدثنى عن ذكرياته مع طه حسين فى الأراضى المقدسة . أن يعود بذاكرته حينما سمع باسم طه حسين لأول مرة ، فقال[١] "سمعت عنه وأنا طالب صغير لأنه كان مثلما يقولون "عميد الأدب العربى" ، وكنا مولعين بتتبع الأدباء، نقرأ لهم، لعلنا نستطيع تكوين خميرة لغوية لأنفسنا، وأسوة لغوية فى الأسلوب، فكان طه حسين من هذا النوع لتميزه بالعرض الفاهم وسلاسة الأداء، فلم يكن يأتى بالمعانى المعقدة ليدخلها فى آذان الناس، لكنه كان يترك المعانى حتى تختمر لديه ثم تخرج للناس يسيرة سهلة بشكل طبيعى، بعكس كتاب آخرين كانوا يتعجلون ظهور أفكارهم إلى الناس قبل أن تنضج فى عقولهم وفى نفوسهم فيأتى عرضها بشكل ليس بسيطا ولا سهلاً، فكنا مثلا نقرأ للعقاد الذى كان مشتركا فى المكتبات العالمية التى توافيه بأحدث كتبها قبل أن تصل إلى الناس، فتتكون لديه أفكار جديدة لا ينتظر حتى يهضمها، فيذيعها على الناس فيكون فيها شئ من عسر الفهم.

أيضا عاصرنا صادق الرافعى وكان أسلوبه جامدا ولكنه جزل سهل، أما طه حسين فكان سلس الأسلوب كالمنفلوطى ، فاستهوانا أسلوبه.

وعندما كبرنا بعض الشئ، وشغلنا إلى جانب أسلوب طه بمواقفه من الأزهر وبعض قضايا الإسلام، ظهر عندنا بالنسبة له وجدانين اثنين، وجدان إعجاب بلغته وأسلوبه، ووجدان آخر تكون لدينا بسبب كتابه فى الشعر الجاهلى، ولما كبرنا أكثر وجدنا طه حسين علما من أعلام الوفد، وبلدنا كلها وفدية، فاجتمع مع حبنا لأسلوبه ، حبنا لوفديته، فصار له فى نفوسنا مزيج "ملخبط" لذلك عندما قدمنى المصريون للاحتفال بطه حسين فى مكة، أردت تحيته بقصيدة ، ودعوت الله أن يعيننى على أن أوفى طه حسين حقه فيما له، وأمسك "أذنه" فيما عليه"

وعندما عرضنا قصيدة الشعراوى عليه فى الترحيب بطه حسين طلب منى نسخة منها لولا أن القدر كان أسبق منى إليه، وهذه هى القصيدة التى تنشر هنا كاملة لأول مرة كما نقلناها عن الشيخ الشعراوى بخط يده.

بسم الله الرحمن الرحيم

حى وفد النهى وركب الرجاء	وتنظر ياشرق بعث العلاء
شمر العرب أجمعون عن السا	ق وهبوا للبغية البيضاء
يا ركاب المنى وصالك أضحى	قاب قوسين من منيع الخباء
أخذ الغرب منك يا شرق ليلى	وهى لا ترتجى بعذب النداء

(١) حديث للشعراوى مع المؤلف بمنزله بالهرم فى ١٠ إبريل ١٩٩٧.

وهـى لـو لم تكن سببا لآبت ... بالـذى فـى دمائها من وفاء
كلما آنست من الشرق صوتا ... حسبته مقـدمات النـجاء
ومبانى الأصوات دون المعانى ... أورثتـها تلفـت البلـهاء
لا تلـوموا ليـلى فـإن ذويها ... علموها بالعـجز مر الجـناء
اطمـئنى نفـس الغيور فهذى ... نهضة العرب سارعت فى مضاء
زيـدوا وحـدة تغار على المـ ... ـد وتـردى سفـاسف الأهتـواء
نحـن شعب موحد لا شعوب ... مزقتها مـكايد الأعـداء
جمعـته الدنيا على لغـة الضا ... د وقـوى عـراه دين السماء
اطمـئنى نفـس الغيـور فإنا ... قد أفقـنا مـن نوبـة الإغماء
واحمـدى قد رأيت جامعة العر ... ب مسمى لا اسـما من الأسماء
رأت العلـم أصـل كل ارتباط ... فأقامـت مـنه أسـاس البـناء
وحـدت هذه الشعوب فهو ما ... فاختلاف الفهوم أصـل البلاء
وإذا مـا العقـول كانت سواء ... لم تعـارض مسـالك الأعـضاء
اطمـئنى نفـس الغيور وكونى ... فـى ركاب النهوض حول اللواء
ياحـداة الآمـال با لله زيـدوا ... فمهـيج الركبان حـلو الحـداء
وثقـوا بالمنـى فـإن زمـام الـ ... ـعلم قد صـار فـى يدى عداء
هو طـه فى خـير كـل قديم ... وجـديد عـلى نبـوغ سواء
وهـو غـربى كل فكر حلال ... أزهـرى الحـجا والاستـقصاء
كـرموه وكـرموا العـلم لما ... كلـفوه صيـاغة الأنبـاء
فعـليها مـدار كـل نهوض ... وإليـها أنسـاب كـل ارتـقاء
يا عمـيد البيـان أنت زعتيم ... بالأمـانات أريـحى الأداء
وإذا القـوس أعطيت من براها ... فارتقـب موقنا سـديد الـرماء
لـك فى العلـم مبدأ طـحسنى ... سـرى فى العـالمين مسـرى ذكاء
يجعـل العلـم للرعـية جمـعا ... ء مشـاعا كالمـاء بل والهـواء

فمن الغبن أن يوفر قوت ... لجسوم والروح دون غذاء
لك أيد على المعلم فى مصـ ... ـر أزاحت عنه عنيف العناء
وقرت مهنة المعلم حتى ... صيرتها رسالة الأنبياء
وهوان التعليم فى أى شعب ... أن يرى غارسوه كالأجراء
يا فريد الأسلوب قد صغته من ... نغم ساحر شجى الغناء
كلمات كأنهن الغوانى ... يترقرقن فى شفيف الكساء
مشرقات ما انقدن إلا لطه ... صاغها الفن من حروف الضياء
كم قديم جلوته فتبدى ... رائعا فى تواضع الكبرياء
لفت الناشئين للأدب الضخـ ... ـم وجلى ملاحم البيداء
بك عزت حكومة النقد حتى ... رهبتها صناعة الإنشاء
ومن النقد فاض كل بيان ... ومن النقد غاض كل هراء
وجمال الإسلام فى وعدك الحـ ... ـق تجلى فيه جلال الفداء
صور لا تكون فى غير حق ... خلدتها مصارع الشهداء
وثبات إلى العلا وثبات ... هازئ بالنكال والإغراء
هامش السيرة الحبيبة فيه ... تتغنى سماحة الإنباء
فهو فى الأذن معبدى خفيف ... وثقيل الميزان يوم الجزاء
وهو عن نعمة البيان زكاة ... ولهذا أدركت سر النماء
ركب طه حياك فى بلد الله ... ـه جلال للكعبة الشماء
هى رمز لوحدة الناس فى القصـ ... ـد وربى فى مطلق الأنحاء
وإذا العقل لم يعلل لشىء ... فمن النص علة الأشياء
وإذا المعجزات أقنعن عقلا ... حقّ ما بعدهن دون امتراء
خير ما يعبد الإله به الغيـ ... ـب وفيه معارج الأتقياء
ركب طه حيتك زمزم تسقى ... كل ضيف لله أورع ماء
لك فى حفرها حديث شهى ... وهو مغنيك عن طويل الرشاء

ركب طه هنا مطالع طه   وانبثاق الشريعة السمحاء

كل أرجائها جلالات ذكرى   لهدى الله خاتم الأنبياء

والتحايا له صلاة عليه   وسلام قد زكيا باقتداء

قل لطه قلوب شعب سعود   خفقت خفقة طروب الولاء

كل قلب فيه مباهج عرس   خلعت بشرها على الأرجاء

قل لطه آذان شعب سعود   مرهفات للحن جد ظماء

عشقهم بالعقول والعشق بالعق   ل يرى قصره على النبغاء

قل لطه جميع شعوب سعود   ترجمت عنه لهفة القراء

سال بالبرق والبريد رجاء   "العريف" الصحيفة الغراء

فأجبهم فالمسلمون جميعا   فى اشتياق لأسعد الأنباء

وهموا آملون أن ينعموا منـ   ـك بآثار عمرة بلقاء

حسب طه إن استقل بيانا   أن يشيع القرآن فى الأنحاء

قم فبشر فى الغرب بالدعوة الحـ   ـق دعاء لله أى دعاء

حسب طه من دهره عن مولا   ه إذا فاز واحد باهتداء

يا سيدى إن لى إليك رجاء   فى الذى قد حملت من أعباء

أنشروا العلم ما استطعتم سبيلا   فبه لا تذل الأعداء

وأعدوا به لهم ما استطعتم   إن حق الحياة للأقوياء

حين صار الحديد بأس البرايا   لم يعد فى الأسود أى غناء

واجعلوا العلم للحياتين تنهل   من رحيقيه أمة الحنفاء

فكما رفهت حياة فناء   هكذا رفهوا حياة البقاء

كل علم بظاهر من حياة   فهو علم مهما سما لانتهاء

ها هنا بعثة الكنانة للبيـ   ـت تؤدى ضريبة العلماء

هى فى أهلها ومن وطن الرو   ح نواه ما عد فى الغرباء

عنصراها من أزهرى المعانى   قد تلاقى بجامعى السناء

إنهـا لا تـرى لمصـر نهوضا ... أو تـرى العرب كلهم فى ارتقاء
وهنا القلب إن يصير قـويا ... نشـط الجسـم من غزير الدماء
وهـنا نهضـة يد اللـه فيـها ... من كـداء أساسـها وحـراء
إن يفتـها أبو سعـود عطوفا ... فسعـود لها أعـز بقـاء
رحـم اللـه والـدا راشـديا ... وتـولى رعـاية الأبنـاء
وأدام اللـه آل سعـود ... سعـداء فى أمـة سعـداء
حسب الملك فى الشعوب يجلى ... فالرعـايا صـارت مرايا الرعاء
قـدروا العلـم قدره فعـرفنا ... فى هـواه وزارة الأمـراء
سـدّد الله خطـو فهـد وأرسى ... عمـد العلـم أيمـا إرسـاء
فاسـمُ يا علم ما استطعت سموا ... فالمـراقى من همـة الأكفـاء
فبـآل الشيـخ استقـمت اتجاها ... صافيـا من شـوائب الأهـواء
خلفـاء الإمام فى الـدعوة الحـ ... ـق وفيهـم صـرامة الرقـباء
فبنجـد يسـوس حـزم وقـور ... وبـأرض الحجـاز عـزم الفتـاء
والثقافـات حـين يحرسها الديـ ... ـن لها عصـمة من الأخطـاء
وهى للـدين عدة تشـرح الكو ... ن فنعنـوا لقـدرة البـناء
يا عميـد البيـان لا تحرم الأز ... هـر عـونا بصـائب الآراء
لست أنس فى العلم أيدى قوم ... خدمـوه بهـمة وذكـاء
سجـلا لابـن مانع وجنا جيشـ ... ـه جهـودا سنيـة الآلاء
وإذا مـا الجديـد بان رفيـعا ... فعـلى أصـل بنيـة القدمـاء
وأناديـك يا أميـن وهـذا بعض ... ما يـرتجى مـن الأمنـاء
حسبـه أن يظـل فى عمر الدهـ ... ـر لهـدى القـرآن خـير وعـاء
فأعينـوا برأيكـم وأشـيروا ... وابعثـوا منـه باهـر الأضـواء
فعـلى رأسـه مثقـف عزب ... لا يـرجى لـه سـوى السـراء
هـو شيـخ قد جمـع الله فيـه ... ما يريـد الطمـوح من إرضـاء
يلتـقى فيه محـدث وقـديم ... فـى جلاليهـما أعـز التقـاء

قـد سـألنا با لله فـى بـلد اللـ ـه فلبـوا جـلال هـذا النـداء
كـم سقيـم من نبعته فاذكروه ذاك بـر الأبـنـاء بالآبـاء
واصـرفوا الناس عن مثار جدال فى مـزايا شكلـية الأزيـاء
فكـأن النهـوض لا يتـربى بين حـديى عمـامة وقبـاء
شغـلوا بالإنـاء والبحث أولى يا هـواة العلا بما فى الإنـاء
وفـد مصـر منـا إليـها تحايا ورعـات مقـدسـات الصفـاء
فاحملـوها من جيـرة ا لله نفحا يتهـادى للشـورة البيضـاء
ولحـى اللـه عصـبة فزعتـنا فدعتـها للصبـغة الحمـراء
يـا ولاة الأمـور حسبكم ا لله معيـنا على تـمام البـناء
كـان فى الاحتـلال أعـذار قـوم فتـولى لا عـذر بعـد الجـلاء
قل لليـلى لا تيأسى قد خطـونا وعلـى اللـه أمـر ذاك اللقـاء

٢٤ جمادى الأولى ١٣٧٤ محمد متولى الشعراوى
١٨ يناير ١٩٥٥ عضو بعثة الأزهر بالمملكة العربية السعودية

رد طـه حسين

أما كيف كان صدى هذه القصيدة على طـه حسين، فلدينا فى ذلك مصدران، الصحف السعودية آنذاك، والشيخ الشعراوى نفسه ، أما الصحف السعودية فقد أوردت رد د. طه حسين على المحتفلين به ومنهم الشعراوى وقصيدته ، فقال موجها عتابه إلى[1] "الزملاء المواطنين من المصريين فقد أكثروا واشتطوا وأسرفوا على أنفسهم وعلى الناس حتى ذكرونى ببيتين قديمين أرجو ألا يصدقا عليهم:

ألهى بنى تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يفاخرون بها مذكـان أولهم يا للرجال لشعر غير مسؤوم

"دعوا أخاكم هذا الضعيف وما قدم إليكم من خير قليل، واصنعوا خيرا مما صنع، وأخطر مما

(١) البلاد السعودية ٢٠ يناير ١٩٥٥.

صنع، وأريحوه من إطالة الثناء لأنها تخجله وتشعره بأنه يسمع ما ليس له الحق فيه، ومع ذلك فإن طه حسين يضيف "أكرر لهم شكرى وثنائى وتحيتى واعتذارى إذا لم استطع ولن أستطيع أن أرد إليهم بعض ما أنا مدين لهم به من الشكر، والأمر بينهم وبينى لا ينبغى أن يقف عند تعارض الثناء والشكر، فإنهم يعلمون أننى لا أرضى ذلك ولا أحبه".

"وليذكروا أنهم فى هذه البلاد يمثلون وطنهم ويمثلون حب وطنهم لهذه البلاد، ويمثلون استجابة وطنهم لداعى العروبة كلما دعت، ويمثلون حرص تلك البلاد على أن لا تؤثر نفسها بشئ، وعلى أن لا تستعلى فى الأرض، وعلى أن لا تعيش وحيدة معتزلة، وإنما هى تشعر بالعزة إن عز إخوانها ، وتشعر بالثقافة والعلم إن تثقف إخوانها وتعلموا، تشعر بذلك مخلصة صادقة . شعرت به دائما منذ أقدم العصور ، لم تقصر فى أداء واجبها هذا للإنسانية فى وقت من الأوقات، وهى لا تفعل هذا تفضلا ولا تطولاً ولكنها تراه الحق كل الحق وتؤمن فيما بينها وبين نفسها بأنها لم توجد لتعيش لنفسها، وإنما وجدت لتعيش لجيرانها وإخوانها وللإنسانية".

"ويجب أن يقدروا كذلك أنهم فى هذه البلاد ليسوا رسل وطنهم وحده ولكنهم قبل كل شئ وفوق كل شئ رسل الإسلام الذى حملهم أمانة الخير فاحتملوها. ويجب عليهم أن يحملوها كراما. ويجب عليهم أن يؤدوا هذه الأمانة إلى أهلها ، فالله يأمر الناس بأن يؤدوا الأمانات إلى أهلها".

ويقول الشيخ الشعراوى[٢] "إن القصيدة أعجبت طه حسين وأعجبت كل الموجودين، وكان له تعليق على كل بيت فيها، حتى أنه قال "لو لم يكن فى حياتى من تكريم سوى هذه الأبيات لكفتنى".

من الشعراوى إلى طه بخط يده

ويعطينا الشيخ الشعراوى درسا إيمانيا بالغ الأهمية فى ضرورة ألا نحاسب المفكرين على بداياتهم وألا نجعل هذه البدايات سيفا مسلطا عليهم فى حياتهم وبعد مماتهم ، لأنهم قد تجاوزها بما هو أكثر يقينا وإيمانا، ومنهم د. طه حسين، فيقول[٣]:

(٢) من حديثه للمؤلف.

(٣) من كتاب "الشعراوى الداعية المجدد" للمؤلف – دار الضياء ١٩٩٢.

"علينا ألا نأخذ الناس بما كانوا عليه في بدء حياتهم وإنما يجب أن نؤاخذهم بما انتهت عليه حياتهم. وأذكر أننا ونحن في بدايات حياتنا التعليمية كنا ندرس أدب وشعر أبي العلاء المعري والمتنبي، فوجدنا بأشعارهما بعض الإلحاديات ، فزهدنا في المعري والمتنبي، ، فمثلا يقول المعري "تحطمنا حتى كأننا زجاج، ولكن لا يعاد لنا سبك". فالمعري هنا ينكر يوم القيامة، وفي رأيه أن الزمن يفنينا ولا يعاد لنا بعث؟ فلما ابتعدنا عن أصحاب هذا الشعر الإلحادي، جاء لنا ذات يوم صديق هو الشيخ "فهمي عبد اللطيف"، وقال لي : لقد رأيت المعري في المنام هذه الليلة وهو غاضب منك لأنك جفوته"! فقلت لصديقي : لابد أن نعيد معرفتنا بالمعري، فوجدنا للرجل عذرا معنا وله حق أن يغضب منا، لأننا عندما رحنا نقرأ شعره الذي قاله بعد ذلك وجدناه قد راجع نفسه وعاد يعترف بالبعث والقيامة ، فيقول:

زعم المنجم والطبيب كلاهما: لا تحشر الأجساد. قلت إليكما إن صح قولكما فلست بخاسر، وإن صح قولي فالخسار عليكما. فما قاله المعري في بدايات حياته من إلحاديات (كان) نتيجة لما يعيشه من حالة الشك التي أوصلته فيما بعد إلى اليقين والإيمان الراسخ العميق.

وهكذا يتبين لنا أن آفة أصحاب الفكر أنهم يسجلون كل خاطر لهم ، والناس لا ينظرون للمناسبات والأوقات التي قيلت فيها هذه الخواطر والأفكار، ويغفلون عما انتهت إليه الخواطر والأفكار في النهاية.

لذلك فعميد الأدب العربي د. طه حسين وغيره، كالدكتور مصطفى محمود، بدأوا حياتهم الفكرية متشككين ثم انتهوا إلى الهدى واليقين ، ولهذا يجب ألا نحاسبهم ونؤاخذهم على أوليات خواطرهم وما كتبوه في مرحلة الشك ، لأنهم بعد ذلك ثبت إيمانهم وكتبوا في الإسلام وعنه كأفضل ما يكون، فقد انتهت حياتهم إلى التوبة والصلاح". وقد أكد الشيخ الشعراوي رأيه عندما طلبت منه أن يكتب بخط يده كلمات يختتم بها حديثه معي عن طه حسين، فكتب يقول:

وخير تكريم لطه أن أسأل الله النفع لكل من أخذ عنه وقرأ له حتى يتصل خير عطائه لكل أبناء العروبة إلى أن تقوم الساعة، رحمة وجزاء عما قدم للغة القرآن.

محمد الشعراوي

١٩٩٧/٤/١٠م

✧

إصدرات أدبية

للمؤلف إبراهيم عبد العزيز

الكاتب الصحفى بمجلة الإذاعة والتليفزيون

١-رحلة فى عقول مصرية - ١٩٩١ هيئة الكتاب.

٢-رسائل خاصة جدا - ١٩٩٢ كتاب اليوم.

٣-الملف الشخصى لتوفيق الحكيم - ١٩٩٢ دار المعارف.

٤-يحيى حقى .. ذكريات مطوية (مشترك مع نهى حقى) ١٩٩٣ دار سعاد الصباح.

٥-رسائل يحيى حقى إلى إبنته (مشترك مع نهى حقى) ١٩٩٦ هيئة الكتاب.

٦-أوراق مجهولة للدكتور طه حسين - ١٩٩٧ دار المعارف.

٧-أيام العمر.. رسائل خاصة بين طه حسين وتوفيق الحكيم - ١٩٩٧ هيئة الكتاب.

٨-أشعار توفيق الحكيم - ١٩٩٨ دار قباء.

٩-رسائل طه حسين - ١٩٩٩ ميريت للنشر والمعلومات.

تحت الطبع

*فى براح الفكر للدكتور حسين فوزى (كتاب لم ينشر للسندباد).

نصوص مختارة من بعض الرسائل

أنا ...

إن كان حقاً أن بعض الناس يعرفون أنفسهم معرفة تتيح لهم أن يتحدثوا فيسرفوا أو يوجزوا في الحديث عن أنفسهم تلك التي يعرفونها أو يزعمون أنهم يعرفونها؛ فإني لا يضيرني أن أعترف بأنني لست أعرف نفسي ...

ولكني أعرف في نفسي إلى ذلك خلالاً قد يعرفها بعض الناس وقد ينكرونها، أعرف فيها أنها نفس مؤمنة لا يزلها عن إيمانها أن تكون على رأي والناس جميعاً على رأي، لأنها إيمانها إيمان القلب والعقل جميعاً...

وأعرف فيها التصميم حين تريد، لا ينحرف بها عن الغاية التي تريدها أن تشتد دونها عقبة من العقاب لأنها لا تريد حين تريد إلا مؤمنة إيمان القلب والعقل والضمير ...

وأعرف فيها الصبر على بأساء الحياة ونعمائها جميعاً؛ فما تعرف اليأس حين يلح الظلم، ولا البطر حين تبسط ظلال النعمة لأن بؤس الحياة ونعماءها أعراض تزول

مع هذا الإيمان، وهذا التصميم، وهذا الصبر، مضيت في الحياة منذ كنت، فما أنكرتُ مرة عاقبة من عواقب أمر مضيتُ فيه ... وأغلب الظن أنني سأمضي مع ذلك ما بقي من حياتي، حتى يجحدون أو يتجاهلون الذين يشهدون عاقبة أمرنا كله بعد أن يصير ذكرى في ضمائر الأجيال المستقبلة، أن الإيمان، والتصميم والصبر، هي الحياة، الحياة التي تحقق معنى وجود الإنسان الحي المستمد بآثاره في الإنسانية الباقية ...

طه حسين

حضرة صاحب المعالي مدير الجامعة المصرية

أتشرف بأن أرفع إلى معاليكم أن طلاباً من غير كلية الآداب قد أغاروا صباح اليوم على الكلية جماعات فانتهكوا حرمات الدرس وأهانوا الأساتذة واعتدوا بالضرب على الطلاب وآذوا الطالبات بسب يجب أن ترتفع عنه الألسنة النزيهة. ونادوا بسقوط العميد وهجموا على غرفته. وتفرقوا بعد ذلك دون أن تعنى الجامعة بحماية الكلية أو ردهم عنها.

وكان مصدر هذا العدوان ما أثير من لغط حول كتابين يقرآن في قسم اللغة الإنجليزية.

ومعاليكم تعلمون أن مجلس الكلية قد نظر في هذا الأمر ورأى أن ليس فيما يدرس في الكلية ما يجرح الشعور الديني أو يؤذي الإسلام أو ينال من شخص النبي صلعم. وقد رفعت الكلية في ذلك الحكم تقريراً فقبلتموه وسجلتم موافقتكم عليه وتضامنكم مع أساتذة الكلية.

على أني رأيت اليوم حين التقينا عند معالي الوزير أنكم قد غيرتم رأيكم وقبلتم أن تمنع قراءة الكتابين نظراً للظروف. وكنت أظن أن أول شيء كانت تجب العناية به هو حماية الكلية من العدوان ومعاقبة المعتدين عليها وتمكين الأساتذة والطلاب من أداء واجبهم العلمي.

لهذا كله أرجو أن تتفضلوا فترفعوا إلى معالي الوزير استقالتي من منصب العميد وأنا بالطبع مستعد لأداء واجبات الأستاذ كلما يوم يأمن الأساتذة والطلاب في كلية الآداب من مثل العدوان الذي حصل اليوم.

وتفضلوا بقبول تحيتي وإجلالي

٢١ مارس ١٩٢٩

٤/١٠/١٩٤٨

نجلي حضرة صاحب العزة الدكتور طه حسين

أقبلك الفاضلة وأدعو لك بدوام الرفاهية وكمال الصحة
وأرجو أن تكون أفراد الأسرة الكريمة بخير : (وبعد)
لم يصلني ما يطمئني عن مسعاكم في مسألة حفيدنا (محمد يحيى)
نجل عبد الحميد ابن عمكم خالد وقد حضر بطرفي مسرورًا ومتأثرًا
جدًا أثر ما وعدتم له تليفونيًا ومستبشرًا بقبول رجائه
وقد عرفني بأن ابنه طرد من المدرسة لعدم دفع المصاريف
وجميع أفراد عائلته في زعل شديد مخافة ضياع مستقبل
ولدهم ولما لاحظت حالة تستدعي الشفقة هالني
ذلك فاضطررت لتكرار رجائه وأملي عظيم بأن
تجعلوا لهذه المسألة المكانة الأولى من همتكم
وأنا متوقن تمامًا بل أضعاف أضعاف هذه المسائل
ميسورة لديكم ولفظة بسيطة منكم يسهل جدًا
تقريرها فأرجو ولحي في الرجاء ، ووالدك مقدر جدًا
في هذا الإلحاح لأهمية ذلك لديه خصوصًا وأنه
في استطاعتكم تنفيذ هذه الرغبة :

والدكم

والسلام عليكم ورحمة الله

حسين علي سلام

عزيزتي ...
الحبيبة وأختي وجميع الأعزاء وأنجالك وأنتم جميعاً تحية ... وأرجو
أن تكونوا في ... من الراحة والنشاط ما يجب لكم ... وصحة وسعادة . ولعل
أخانا مصطفى وصل إليكم قريباً فقد أنبأ ... أنه ... من مصر يوم ١٧
الجاري ... أن ... ما ... إلى ... . [illegible]
بالإسكندرية مع ... في منزل ... والحمد لله ... هذا
الصيف ... وعيشنا ... البحر ... الفاخرة ... فوق ربوة
... على البحر ... الزوج
... سكننا ... واختلاطاً ... القوم ... الوضع .
وجميع ... . وكلنا بخير والحمد لله .

لقد ... كثيراً ... بالك و... أنك ... إليه ... والحجيج
... وجدك ... وضحكك ولوميك وخطابك وصوابك وكل ما ... فشكراً لك ...
... هذه الوصايا ... أن ... وأحباب ... و... أنك
... في ... على ... من خطابك
... بهذا ... [illegible] ... الأعلى الزاهر
... وكم ... بأرجاء البوح ... أرحج الناس ... بحسه
... بنفسكم ... السماح ... والشيمة ... التي ... على هذه
... بين ... الخلاف والجدل ... والمسرح
... أسباب ... كبيراً ... الزعامة ... [illegible]
... [illegible]

... ولو ...

فإنه ... مصيب وإنه ... الحبيب ...

... هذا ... أيضاً ... الله ...

والسلام عليك ورحمة الله

... عزام

٨ ... ١٩٢١ بالإسكندرية

وطلبوا من عدلي باشا أن يحدد لهم موعداً
يلقاهم فيه فأبلغهم أنه مستعد لمقابلة شيخ
الجامع وحده، وسمعنا أنه قال للشيخ إننا
الآن في حكومة دستورية تسيرها قوانين
ولا تتحكم عليها إرادة الشيوخ.

لكن كوكب الشرق بقى وحده يبدئ ويعيد
في الرد عن الكتاب بقلم مصطفى صادق الرافعي
فهل حدثت بعدنا تطورات أخرى؟

ولست أرى بأساً بأن تستريح من الكتابة
إلى الجرائد في هذه الأيام عملاً بمشورة ثروت باشا.
وهل جاء ثروت باشا إلى أوروبا؟ فقد كنت
أعلم قبل سفري أنه على نية المجيء بحرمه
في أوائل أغسطس

في اكس بعض المصريين ولا من نعرف
المشرقين منهم نساءً ورجالاً لكني بعيد
عن هؤلاء وهؤلاء وكانت معنا أميرتان أما
إحداهما فشابة في صحتي وأما الأخرى فشابة
إلى حد ما ولكنها أقل صحتي، وقد مضتا إلى باريس
من قبل أن أتعرف إليهما، كأنما كتب علينا أن لا نجتمع
مع تلك العائلة [illegible] ولتذهب إلى الشيطان [illegible]
والسلام عليكم جميعاً وتحياتي زاكيات
مصطفى عبد الرازق

عزيزي حضرة صاحب العزة الدكتور طه حسين بك

تحية صادقة كريمة لك وللسيدة المحترمة حرمك

وللأنجال الأعزاء وبعد فقد تلقيت رسالتك الخاصة

بما شكوته للسيدة حرم الدكتور منصور من تراخي كبار

المحامين الوفديين في العناية بأمره وإني أؤكد لك أني

لم أتوان لحظة واحدة عن تتبع هذه المسألة والاهتمام بها

و[illegible] تسلمت كتابك اتصلت بحضرة الأستاذ محمود سليمان غنام

سيكون من مقدمة حضرات المحامين عند نظر المعارضة القادمة

[illegible] أنهم لن يتوانوا عن تأدية واجبهم نحو الدكتور منصور

هذا وإني أنتهز هذه الفرصة فأحييك تحية ممتزجة

[illegible] الترضية على ما تدبجه يراعتك من مقالات رائعة جمعت

بين [illegible] سلاسة اللفظ ودقة المعنى وسرعة البديهة في الكشف

عن الحقائق وتبصير الرأي العام بما وراء الستار

وليس بجديد على عميد الأدب العربي أن نرى له كل يوم

هذه النفثات وتلك الآيات البينات

حيا الله قلمك وبارك عزمك ومتعك بما تحبه وترضاه

وتقبل وافر تحياتي المخلص

[illegible] ١٩٤٦

مصطفى النحاس

محمد عبد الوهاب

سيدي الأستاذ

تحية واحتراما وبعد

توجهت إلى الجامعة لفرصة لقائكم ولكني
أسف لعدم وجودكم وقد وصلني أمس
خطاب من الدكتور براده الذي اتفقت معه
على إحياء حفلة مساء الأحد بالزقازيق،
وما كنت أدري أن أحدا تكلم معي بشأن
تأجيل تلك الحفلة إلا أمس من شخص
تكلم معي بالتليفون ورأيت أن أرسل إليكم خطابي
هذا لتتفضلوا ببلاغ احراج مركزي مع تقديم
أسفي عن حرمانه شخصيا من تلك الحفلة
النادرة

وتفضلوا بقبول فائق تحياتي

عبد الوهاب

بيبك

أخي العزيز

أما إذا لم تشغلك عني ظروف الحياة في مصر فأنت تلومني لأني
أبطأت في الكتابة إليك. وأما إذا شغلتك الدنيا وجه النهار والسمر
أول الليل والنوم بين هذا وذاك فأنت تذكرني من حين إلى
حين وتسأل متى أتصل إلى أخبار(ه). وأنا قابل منك كلا
الأمرين مغتبط بهما سعيد بأن تذكرني كثيرا أو بأن أمر
على خاطرك مرا سريعا. وإذا كنت لم أكتب إليك فلأن الأيام
التي قضيتها في باريس إلى الآن كانت مفعمة بجلائل الأعمال وصغائرها
من اختلاف إلى السوربون والكوليج دي فرانس والاليزيه والكوميدي
فرانسيز والأوبرا والمسرح وما شئت من نحو هذا كله من
الاحتفالات والأعياد التي أقيمت للكوليج دي فرانس. ولكنت أذكرك
وآسف لأني لم أكن أجد الوقت للكتابة إليك. أما الآن وقد فرغت
من هذا كله فما هو إلا أن تتصل إليك كتبي حتى تشكو من كثرتها
وكثرة ما أحب أن تقرأ هذه الكتب من غير جواب. ولست أطلب
لكل كتاب جوابا وإنما أطلب جوابا لكل كتابين. وهذا الكتاب هو
الثاني فقد كتبت إليك من ستريزا في إيطاليا وأرجو أن
لا تحوجني إلى [illegible] لست أقل منك عملا فبين يدي محاضرات
تريد أن تقرأ وأخرى تريد أن تكتب للمؤتمر وملاعب باريس منيرة
وليست متنزهات الأقاليم أقل منها إغراء وسأذكرك على كل
حال فتستطيع أن تأخذ لي في الأسبوع نصف ساعة من عمرك.

إبراهيم يبلغك تحيته

ذكرناك كثيرا في السفينة مع صاحب الدولة [illegible]
ذلك أننا كنا نتذكر المنهزمة والمكرة الذين يحضرون الشرطة
أو سيوشنرلي فذكرنا أسماء ثم افترقنا. ومضى على ذلك وقت
طويل ثم مر الباشا بامرأتي وهي تتحدث إلى جماعة فقطع حديثهما
قائلا لزوجتي: لقد نسيتني يا سيدتي أمس المكرة. قالت من هو
قال: نجيب. ولست أذكر لك ما أخرج سرورا من هذا الجواب.
ولكني أهدي إليك تحيتي الخالصة وأرجو أن تتقبل مني
تحية أنت وحدك تعرف ما تشتمل عليه من حب وإخاء.

بإخلاص
٢٦ يونيه
نجيب بك الهلالي

طبق الأصل

وبيننا بحر وسفر أيام. أحب أن أفهم من البعثة في أوائل يونيو وأن يلتحق بي حبيب
بها من الصيف حتى يتمكن كل من المحبين هنا صيفا فيعتاد الطقس
والأهل واللغة، وحتى يبدأ عمله أول العام غير متحمل لكل هذه المشاق.
فهل لي أن أطمع في هذا. إذا كان لا بد لي أن أبين الأسباب فهي
بكل صراحة أني لا أريد البعاد عنا أكثر من آخر سبتمبر وليس هناك
أي داع أن أظل محبوسة على البعثة صيفا دون أي عمل ما دمت
سأعود متى بدأ العمل إلى مصر. أليس هذا عدلا وحقا. فإذا أردت
أسبابا أكثر اقناعا إداريا فإن الأستاذ دي منبين الذي هبت من
أجله أولا مريض قد اعتزل العمل في السوربون وهو لا يقوى على أي
عمل ولا أجرؤ أن أطلب منه مساعدة لأنه لن يستطيعها لا لمرضه
فحسب بل لبعده عما أنا فيه كما أسلفت لك.

كلي أمل أن أراك في الصيف فنتحدث طويلا عما أريد
حقا أن أكلمك فيه فهل يا ترى ستسمح لنا الظروف بذلك. أرجو ذلك
كما أرجوك أن تتقبل مني احترامي وإخلاصي وأن تبلغ السيدة الكريمة
حبي وودي وأن تبلغ كريمتك الطيبة تمنياتي لهما أن يهبهما الله
السعادة والصحة أولا وأن ينجحا في امتحاناتهما أشرف نجاح وأحسنه ثانيا.

تلميذتك
القلماوي.

وخير تكريم لطه أن نسأل الله
النفع بالكل من أخذ عنه وقرأ له حتى يصل
فيض عطائه لكل أبناء العروبة إلى الدكتور
الشاعر رحمة وجزاء عما قدم للغة القرآن

محمد [illegible]

١٠/٤/٢٠٠٧م

أكثر نصيب من الجلسات الحارة .. جلسات سياسية ، وجلسات أدبية .. ولكن في هذه الجلسات
لم تكن تدور في مثلما أثرت المرحلة الأخيرة .. ذلك مثلي لم أشعر أبدًا - مطلقًا قبل المرة -
بأنني أقف هكذا وحدي .. كان الناس يتفرقون إزاء كل مرحلة .. ناس يقفون معي ،
وناس يقفون ضدي .. وكان الناس الذين يقفون معي يكونون أكثر عددًا من الناس
الذين يقفون ضدي .. ولكن .. هذه المرة تغيرت .. الناس الآن .. أصبح الناس الذين يتكلمون
بصوت عال .. لا يقولون رأيهم ، ولكنهم يسألون عن رأي الحكومة .. ولا يحددون موقفهم
من القضايا العامة أو الخاصة ، ولكنهم يبحثون عن موقف الحكومة .. فإذا لم تجد الحكومة
رأي ولا موقف ، أصبح لا رأي لهم ولا موقف ..

وهذا هو ما أشاع اليأس في نفسي ..

هذا هو ما جعلني أشعر بالوحدة ، والبرودة ، والانطواء .. ولا أريد أن أقول :
الخوف ..

وبعد يا أستاذي ..

إني اليوم أحس بفضلك ونبلك ، أكثر مما أحسست بهما في أي يوم مضى .. فقد
انطلقت أنت .. أما أنا ....

وتسألني ماذا أريد ..

لا شيء ..

لا شيء إطلاقًا ..

إنه فقط أعتذر لك عن عدم إرسال كتبي إليك ..

وأشكرك لأنك أتحت لي فرصة للتنفيس عن نفسي .. وأشكرك مرة ثانية لأنك
بالأمس فقط قرأت - ربما لأول مرة بأناة - أحلام ستزداد .. وربما كانت
قراءتك هي التي دفعتني إلى الإطالة عليك ..

سامحني لهذا التطويل ..

مع كل حبي واحترامي ، وأطيب تمنياتي

المخلص

إحسان عبد القدوس

٤/٤/١٩٦٦

مصيف ساحل البرلس

BRULOS BEACH

تحريراً في ٨/٨/٢١ سنة ١٩٣١

أخي الصديق النبيل

تحية وتمنيات طيبة، وصلتني رسالتك العذبة فكانت نفحة من جو فرنسا لطفت جو الحر الجاف في جميع نواحيه، وصلتني حين أرتحل للكتابة إليك بعد ما حرمت من رؤيتك في المنزل في اليوم الذي تواعدنا عليه، لكنه كادت مشيئة على تحول حتى جئني وبين أيام على الشاطئ لولا مشاغلة شديدة طويلة تلت حال سفرك مع مرض ابني الكبير دون مسارعتي بالرد، وزاد ذلك نسياني العنوان فمعذرة من هذا التأخر كله، ولي في جميل لطفكم وكريم خلقكم ما يشفع لي ويقدر حالتي

ذكرت أيها الصديق النبيل أمراً خطيراً من كل ما سعد — كما سميته — وتركت لي الرأي فيه، وأنا في هذا أجري على ضرب من الحرية أو الفلسفة أو الهرب من المسئولية أو كما تسمي، فلا أقدر ولا أحكم، ولكني لزمت مذهبي في هذه المسألة العرضية فلم أعرها اهتماماً ولم أر فيها ما يستحق أحفل به فلم أفعل، وإنما كلام من هنا وهناك ورد ذكرها، ولا أزال أرى ألا أعيرها عناية ما، وقد أحسست كل الإحساس أنك لم تقف عندها ولم تكترث بها

وذكرت المحاضرة وأنك من أجلها تفكر فيَّ، فأنا سعيد أتم السعادة بهذا التفكير ظافر بأكثر ما يستحق عملي من جزاء، وأنه في لذة الدرس والبحث — كما تعرف — لذة وسعادة كانت تكفي جزاء بل تزيد، ولكنك بما عودتنا من نبل وكرم خلق تأبى إلا أن تجزينا أوفى الجزاء بل تزيد

أتمنى أن تكون والأسرة الكريمة على أتم ما يكون من صحة وطمأنينة بال حتى تنال حظك من الرياضة تنتفع بما تستطيع من عمل عظيم في تلك الإجازة، وإني أرسل إليك وإلى الأسرة أطيب تحية

مع سلام من صديق مخلص

أمين الخولي

يشغل عقلي أبناء الأمة . والذين لا ينظر الى
عامة الشعب الا انهم عصب الأمة . والذين
يحمل لنفوس القراء ما يحمله من الحب لسائر
أبناء مصر . بل لعله اكثر ايمانا بهؤلاء لنهوضه
والعامة الذين حملوا أمانة التعليم الى اليوم .

ولقد كنت أيها الأستاذ الكريم أوثر لو استطعت أن
أشافهك بهذا الحديث لولا علمي بأنك وقتك يضيق
عن مجالس المشافهة . فلعلك اذا خلوت
ساعة لقراءة هذا الكتاب وضعه أمام بعينه
مالم انتقص . واذا رأيت تتفضل أن
تخصص لي ساعة اخلو فيها بك لنتحدث في مثل
هذا الأمر كان ذلك فضلا كبيرا

والسلام عليك ورحمة الله من المخلص

محمد فريد ابو حديد

١٩٥٠/١٢/٢٩

من الغرائب اندهشت للوحة الحجرية ج
لأكبر اولاد رمسيس الثاني وتتكلم حكي
عنه وجود معبد ٢ لجهة الشلال الشرقية
من الهرم الاكبر ويسمية معبد الوادي
وقد ادهش هذا علماء الآثار عادةً
مع كل حال قد اطلت عليك ولكنه لصنعتم
مبلكت ، وفي الختام تقبل مني كل تحية
وكل محبة صادقة

في ١٢/١/١٩٥٠

Staatliche Museen
ägyptische abteilung
Berlin
Deutschland.

سيدي الأستاذ الجليل

أقدم لكم وللسيدة والنجليك أخلص تحية، وأدعو لكم بكل عافية وسعادة

جاء الكتاب الكريم وأنا فرغت من فهرس الشاهنامة ومقدمتها وهما ورطة نفسي به من العمل في كتب الأمير ابراهيم خان، ومن عزائم الصيف، فجاء كتاب سيدي روحا خفف بعض الآلام وجمع بعض المسرات فأنشدت مع مهيار:

اذكرونا مثل ذكرانا لكم رب ذكرى قربت من نزحا

ولسيدي الشكر العظيم على هذه الذكرى.

وبعد فإن ما سمعتموه مكرة العام الماضي كانت صدقا ولكن عدت الى عام انقلب الاستاذ اسم ما عزما عليه فانقلب الصدق كذبا، وقد سرني أن حضرت الصور ودرجت الى الاستاذية الصريحة. وفي كلية الآداب هذا العام أخبار وأخبار" ومنها أن أدرس بالآداب الى أن أذهب الى أوكسفورد" وستعلم حين تقدم أني لو أردت لأرسلت.

فإن عندنا من الإجازة ولا أزال ناصبا، وأقصى ما أرجوه أن أظفر بأسبوعين قبل بدء الدراسة فادع الله أن يظفرني بها.

ثم أختم بتكرار التحية والتسليم وتقديم أوفر الشكر.

المخلص

عبد الوهاب عزام

٢٠ أغسطس ١٩٢١

إن شاء الله إنني على أتم استعداد للعودة إلى مصر إذا كانت الوزارة
تأتي علي. إني أقول كلمة الحق في سبيل رجل إن أحسن له عملا أقبل
في بوتا شره. أكبر دليل على ذلك هو أنني لم أكتف بالتلكؤ أنني
أرسلت مقالة لجريدة البلاغ منذ زمن بعيد والبلاغ نشرها
وعنوانها من هي كلية الآداب ومن عميدها؟ ومنذ يومين أرسلت
لنفس الجريدة مقالة أخرى عن "استقلال الجامعات" وقرأت
في نفس الوقت نبأ الأرض بصيحات الحق تدوي في آذان
الظلمة وتهز من عروشهم.
وهكذا أيها السيدات والسادة ترى الشعب دائما طالبا للإصلاح
حتى من ~~[illegible]~~ الشباب الذي لنا بالأسف نحرمه الخير لهذا
الوطن المسكين ولكن لا تأسوا ولا تحزنوا فسوف تكون الكلمة
لنا لنشأنا على [illegible] ونشأ [illegible] ونسمع [illegible] الوطنية ونسمع دويه
فلنصبر على ضيمهم قليلا حتى يأتي اليوم الذي نستطيع أن نقول
فيه لتثبيت دعائم العدل والحرية وعندئذ نضع على الظلم قيودا متينة
لا انفكاك لها طالما أتوسل إليكم في الاعتماد على إخلاصنا إلى النهاية
فأنتم أدرى بنا لا نزال في مستقبل العمر ولا نزال صوتنا غير مسموع فسوف
يأتي يوم نصيح فيه بالحق وإذ ذاك ننشر ما لكم من فضل.
ونتمنى أن نتم من عمل صالح لنؤدي بعض ما هو واجب علينا
لكم وعربونا أيدينا لا أداة له بغير الصبر على محبتكم والإخلاص
لشخصكم المحبوب ومهما نزلت بنا من ظروف وعليكم من تلميذكم المحب
المخلص سلام الله وتحيته مع منصور

ناديتُ بالتلفون ثلاث مرات لأطلب موعداً للزيارة
لعلمي ان الدار مزدحمة دائماً بالزائرين وأنا ابتعد عن الازدحام
ولكن التلفون طبعاً مشغول، وأن تليفون العميد عميد
التلفونات

كم أنا سعيدة بزيارة وبدون زيارة! أرجو ان
يعود لطفي بك قريباً إلى الجامعة "ليستقر الحق في نصابه"،
على نحو تعبير كاهن أوزيريس

مع التهنئة بعيد الفطر المبارك

"مي"

المتنبي لهذا التصريح من جميع الجرائد مع اختلاف في تعليقاتها. ثم عاد رئيس الوزراء اليوم وعدل من تصريحه بما يأتي: "أن موقف مصر لم يتحدد بعد ولكنه سيكون في الغالب مماثلا لموقف انجلترا." ثم فسر هذا التعديل بما يأتي: "قصدت بعبارة "في الغالب" معناها المنطقي الصحيح ومعناها الصحيح أن مماثلة موقفنا لموقف انجلترا ليست ضربة لازب ولا هي أمر محتوم [illegible] إذا كانت تعود علينا بالضرر من قريب أو بعيد. ذلك ما أردت بتصريحي هذا. أردت أن أكبر الظن وأرجح الفروض المنتظرة أن تتفق مصلحتنا ومصلحة انجلترا في اتخاذ موقف متشابه حيال تلك المشكلة. فمن حمل الكلام على غير محمله أن يفسر هذا القول على أنه تسليم بتبعية موقف مصر لموقف انجلترا في هذا الشأن أو في أي شأن سواه. وهل معنى أن تقف مصر موقفا مماثلا لموقف انجلترا أن تقف منها موقف التابع للمتبوع! وهل تنافي عبارة المماثلة التي استعملتها في تصريحي — واستعملتها مقيدة بعبارة "في الغالب" — هل تنافي أن تكون المماثلة قائمة على أساس المحالفة بين حليفين لا بين تابع ومتبوع!" وأتوقع أن يكون هذا التعديل من شأنه تهدئة الخواطر ولو موقتا. ولابد أنك تعلم من السياسة الدولية التي أصبحت في فرنسا أن الحرب وشيكة الوقوع في الحبشة — وفي هذه الحالة لا يعلم إلا الله ماذا يكون نصيب مصر من هذه الحرب.

ولكن دعنا من أحاديث العقل ومن أحاديث الجنون معا. وكفانا الآن حديثا.

وأختم كتابي برجاء أن تبلغ سلامي لمدام لمبير ولمارجريت وكلود وأرجو أن تكونوا جميعا في أتم صحة.

ثم لا ينسى فريد — وهو يقرأ هذا الكتاب — أن يجتهد في تحسين خطه. وأنا من جهتي لا أزال أسأل هل يشرب السجاير مع الشيشة. فلا أعتقد إلا جواب. فأرجو أن يقبل سلامي وأن يفكر في هذا الموضوع حتى يهتدي إلى حل له فيخبرني به عند رجوعه إلى مصر.

وختاما تقبل تحياتي الخالصة مع رجائي أن أراك عند رجوعك إلى مصر ممتعا بالعافية وبنعمة العقل؟

عبد الرزاق أحمد السنهوري

DÉLÉGATION PERMANENTE
DU ROYAUME D'EGYPTE
PRÈS LA SOCIÉTÉ DES NATIONS

عزيزي الدكتور

ارسل لك اطيب التحيات واهنئك بعودتك موفور الراحة والنشاط وقد سمعت من
صديقي [illegible] باخبار رحلتكم في مصر واعمالكم [illegible]. [illegible] كانت موفقة
[illegible] وعملت [illegible] قريبا [illegible] الحرب والاخبار [illegible] اسباب الذعر
والخطر. وكان من شأنك ان تمنع من التفكير في الثورة المصرية [illegible]. ولكنها
في الواقع [illegible] كما لو كنا [illegible] ابدا. لذلك احمد المعذرة اذا كتبت لك [illegible]
[illegible] في شأن من الثورة المصرية. ولعلك تذكر انك حدثتني يوما في شأن رجل
اسمه احمد جاد الله موسى [illegible] الى [illegible]. وقد علمت انه في
مايو ١٩٣٧ [illegible] في التاريخ [illegible]
وانه [illegible] ارسال [illegible] في التاريخ [illegible]
[illegible] احمد جاد الله موسى [illegible]
[illegible] اذا كان [illegible] من [illegible]. وارجو ان تقبل
[illegible] اصدق التحيات

[illegible]

A. Badawi
Wullenweber Str. 3. b/Niclas
Berlin N. W. 87

سيدي واستاذي

لا عجيب يُرى في بلد العجائب . وبلدك أمّ العجائب
كل شيئ على النقيض . تنعكس فيها طبيعة الاشياء
"وجزاء المحسن أن يُساء" ولكنها على الرغم تخدم
وانت خادمها المخلص حيثما كنت وكيفما كنت
جزاؤه على الله الخير .

تحية يخالطها الشوق من تلميذكم المتألم الحزين مع
احمد بدوي

Ahmed Badawi

Th. 1-46

اوتيل الشرق الكبرى – خوام • دمشق (سوريا)

GRAND HOTEL D'ORIENT

KHAOUAM

Damas, le 193

دمشق في يوم ٥ حزيران ١٩٣٨

أخي العزيز الدكتور طه

سلام عليكم ورحمة الله

وصلنا بحمد الله إلى دمشق وقد كان في طريقنا من طبرية إلى دمشق بعض الصعوبات فقد انهمر علينا [illegible] وكثر الضباب حتى لم يستطع السائق أن يرى على بعد متر وأمطرت علينا السماء وعند منتصف الطريق وبينما نحن سائرون ارتطمت سيارة في أحجار وانقلبت وجرح ثلاثة من ركابها ففزعنا جميعا إذ ظننا أنها إحدى سياراتنا خصوصا وقد جاءنا الخبر أنها كذلك ثم حمدنا الله كثيرا على أنها لم تكن تحملنا وأن جماعة من دمشق [illegible] علينا [illegible] وقع المصاب فنقلنا المصابين معنا إلى المستشفى وكان منظرا مؤثرا أثار في بعضنا الخوف وفي بعضنا الحذر وفي بعضنا التفاؤل [illegible] – سنقوم غدا إن شاء الله إلى بغداد ونقطع ٩١٥ كيلومترا إلى بغداد. وكل أعضاء الرحلة يشكرونك – أولا – تمهيدك السبيل للرحلة والسعي في إتمامها – وثانيا – توديعك لنا من المحطة ويحيونك [illegible] إخلاص وتحية والسلام عليكم

أحمد